الأَخَوان



Astrid Lindgren



أسترید لیندجرین

دار المنى

أسترید لیندجرین

الأَخَـــوَان

النص العربي بقلم : د. وليد سيف



دار المنى





Bokförlaget Dar Al Muna AB 2020

Original title in Swedish: Bröderna Lejonhjärta
Published by R. & Sjögren

Arabic text: Dr Walid Saif
Printed in Sweden by ScandBook AB, Falun 2020
ISBN 978 91 88356 38 3

www.daralmuna.com

Bokförlaget Dar Al-Muna AB
Box 127
SE 182 05 Djursholm
Sweden

الفصل الاول

سأحدثكم الآن عن شقيقي جوناثان ليونهارت. وأعتقد أن قصته أشبه ما تكون بالملاحم البطوليّة، ولعلها تشبه قصص الأشباح بعض الشيء، ومع ذلك فإن كل كلمة فيها حدثت فعلاً، على الرغم من أنني وشقيقي جوناثان وحدنا نعرف هذا.

لم يكن اسم شقيقي ينتهي بـ«ليونهارت» منذ البداية، فقد كان اسمه الأخير في الأصل «ليون» مثل أمّي ومثلي تماما. أي أن اسمه الكامل كان جوناثان ليون. أما اسمي فهو كارل ليون، وأمّا اسم أمّي فهو سيجريد ليون. وكان اسم أبي أليكس ليون، إلاّ أنه أبحر يوماً ولم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

وما أريد أن أحدثكم عنه هو الظروف والأحداث التي أدت إلى أن أصبح اسم شقيقي «جوناثان ليونهارت»، وما تبع ذلك من أحداث غريبة.

كان جوناثان يعلم أنني على وشك الموت، أعتقد أن الجميع كانوا يعرفون، باستثنائي أنا. كذلك كان زملائي في المدرسة يعرفون الحقيقة، لأنني كنت أتغيب معظم الوقت بسبب السعال والمرض الدائم. وفي شهور السنة الأخيرة لم يكن في استطاعتي أن اذهب إلى المدرسة إطلاقاً. والنساء اللواتي كانت أمّي تخيط لهنّ الثياب، كنّ يعرفن أيضاً

× *الكلمة الانجليزية Lion «ليون» تعني الأسد، أما Lionheart «ليونهارت» فتعني قلب الأسد، وهي تستعمل اسماً للدلالة على الشجاعة البطوليّة المتميّزة.*

أنني سأموت قريباً. واتفق مرّة أن سَمِعْتُ إحداهنّ تتحدث مع أمي حول الموضوع، على الرغم من حرص الجميع علَى ألاّ أسمع شيئاً. فقد ظنّتا أنني كنت نائماً. ولكنني كنت في الواقع مستلقياً فقط مغمضاً عينيّ. وقد بقيت مستلقيا على تلك الحال، حتى لا تعرفا أنني قد سمعت ذلك الخبر المفجع - أي أنني سأموت قريباً. لقد حزنت كثيراً بالطبع، واعتراني خوف شديد. ومع ذلك كنتُ حريصاً على إخفاء ذلك عن أمّي. إلاّ أنني تحدثت مع جوناثان حول الأمر لدى عودته إلى البيت.

قلت له: «هل كنت تعلم أنني سأموت قريباً؟» ثم بكيت.

أطرق جوناثان مفكراً للحظة. لعلّه لم يكن راغباً حقاً في الإجابة. ولكنه في النهاية قال:

«نعم، أعرف.»

عندئذ انخرطت في مزيد من البكاء.

ثم سألت: «كيف يمكن أن تكون الأمور مؤلمة إلى هذا الحد. كيف يمكن أن تكون بهذا السوء حتى يكون على بعض الناس أن يموتوا وهم لم يبلغوا العاشرة بعد من أعمارهم؟»

قال جوناثان: «أتعلم يا رسكي، أنا لا أرى الأمور سيّئة إلى هذا الحد. أعتقد أنك سوف تقضي أوقاتاً رائعة ممتعة.»

قلت مندهشاً: «رائعة! أي روعة في أن يموت الأنسان ويُدفن تحت الأرض؟»

قال جوناثان: «آه. إن الجسد وحده هو الذي يُسَجّى تحت الأرض، أما أنت، ذاتك.. روحك.. فتطير بعيداً الى مكان ما مختلف تماما.»

كان من الصعب أن أصدّق هذا. ولذا سألت: «أين؟»

أجاب: «إلى نانجيالا.»

إلى نانجيالا - قالها هكذا بصورة عفوية، وكأنه يذكر شيئاً يعرفه كل إنسان على الأرض. ولكني لم أكن قد سمعت بهذا أبداً قبل الآن.

قلت: «نانجيالا؟ أين تقع هذه؟»

وهنا قال جوناثان أنه لا يعرف على وجه التحديد، ولكنها تقع في مكان ما في الجانب الآخر من النجوم. ثم بدأ يحدثني عن نانجيالا، حتى شعرت كأني أطير هناك على الفور.

وقال جوناثان: «ما زالت الحياة هناك في زمن الملاحم البطوليّة الأسطورية ونيران المخيّمات. وسوف تحب ذلك كلّه.»

وأكد لي جوناثان أن جميع قصص الملاحم والأساطير قد جاءت من هناك، ذلك أن مثل هذه الأمور لا تحدث إلاّ في ذلك المكان. وقال لي إنني إذا ذهبت هناك فسيكون في وسعي أن أشارك في المغامرات البطوليّة المذهلة من أوّل الصباح إلى المساء، بل كذلك في أثناء الليل.

وقال: «أتعرف يا رسكي؟ ذلك سيكون مختلفاً عن وضعك الحاليّ هنا حيث تقضي الوقت مستلقياً في الفراش تسعل وتعاني من المرض ولا تستطيع أن تشارك في اللعب إطلاقاً. أليس كذلك؟»

كان جوناثان يناديني دائماً «رسكي» تحبّباً. لقد بدأ يناديني بهذا الاسم منذ كنت طفلاً صغيراً. نعم، لقد كان جوناثان يحبني حبّاً جمّا. وكان هذا غريباً، لأنني لم أكن يوماً إلاّ صبياً قبيح الشكل، قليل الذكاء، جباناً، معوجّ الساقين. وقد سألت جوناثان يوماً كيف يمكن أن يحبّ ولداً قبيح الشكل، محدود الذكاء، معوجّ الساقين. فأجاب:

«لو لم تكن ذلك الولد اللطيف ذا الوجه الشاحب القبيح والساقين





المعوجّتين، لما كنت رسكي، الأخ الذي أحب.»

ولكن، في ذلك المساء بينما كنت أشعر بالخوف الشّديد من الموت المقبل، أخبرني أنني فور وصولي إلى نانجيالا، فإنني سأصبح ولداً سليم الجسم وقوياً وجميلاً كذلك.

سألته: «أصبح جميلاً مثلك؟»

أجاب: «بل أجمل منّي بكثير.»

ولكن، ما كان ينبغي له أن يغرّني بذلك القول، لأنه لم يكن هناك من هو أجمل من جوناثان، ولا أظنّ أن أحداً سيكون يوماً بمثل جماله.

في إحدى المرّات قالت امرأة ممّن تخيط لهنّ أمّي الثياب:

«ياعزيزتي السيدة ليون، إنّ لك ولداً يشبه أميراً في إحدى الحكايات القديمة.» وبالطبع، لم تكن تتحدث عنّي!

كان جوناثان بالفعل يشبه أميراً من أمراء الحكايات القديمة. كان شعره يلمع كالذهب، وكان له عينان تشعّان حقاً بزرقة عميقة، وأسنان شديدة البياض، وساقان مستقيمتان تماماً.

ليس هذا وحسب ، وإنما كان كذلك طيباً وقوياً، وكان لامعاً ذكياً يعرف كل شيء، ويستوعب كل شيء، وكان الأول في صفه دائماً. وأينما كان يمشي في ساحة المدرسة، كان التلاميذ يحيطون به، فالكل كان يرغب في صحبته. وكان في استطاعته دائماً أن يجد ما يسلّيهم، كما كان يقودهم في مغامرات مختلفة. ولم يكن في وسعي أن أشاركهم، لأنني كنت أقضي أيامي متمدداً على الأريكه. إلاّ أن جوناثان كان يقصُّ عليّ كل شيء حين يعود إلى البيت: كل ما فعله أو سمعه أو شاهده أو قرأه. كان يجلس

الساعة تلو الساعة على حافة سريري ليقصَّ عليّ. وكان جوناثان ينام في المطبخ أيضاً، على سرير من النوع الذي يطوى، وكان يستخرجه من خزانة الثياب في كل مساء، وحين كان يتمدد في سريره، كان يتابع حديثه معي فيقصُّ عليّ المزيد من الحكايات والقصص، ويبقى كذلك حتى تنادي أمّي من الغرفة المجاورة:

«كفى كلاماً، على كارل أن ينام الآن.»

ولكن، من الصعب أن ينام الأنسان مع السعال المتواصل.في بعض الأحيان كان جوناثان يستيقظ في الليل على صوت سعالي، فيسخّن لي خليطاً من الماء والعسل ليخفف من حدّة سعلتي. لقد كان ولداً عطوفاً طيباً. نعم، هكذا كان جوناثان.

في ذلك المساء حين كنت أرتعد خوفاً من فكرة الموت، جلس معي ساعات عدّة، وتحدثنا عن نانجيالا بأصوات هادئة حتى لا تسمع أمّي كلامنا. كانت تجلس كعادتها تخيط الثياب، ولكنها تحتفظ بآلة الخياطة في غرفتها، وهي نفس الغرفة التي تنام فيها - إذ أن بيتنا يتكوّن من غرفة واحدة ومطبخ لاغير. وكان باب غرفتها مفتوحاً، فكنا نسمعها تغني تلك الاغنية القديمة عن البحّار الذي ذهب بعيداً في البحر ؛ أعتقد أنها كانت تفكر بوالدي. لا أذكر كلمات الأغنية جيداً. كل ما أذكره بضعة عبارات هي التالية:

إذا متُّ في البحر يا عزيزتي
فلربما في يوم من الايام
جاءت حمامة ناصعة البياض بلون الثلج
من مكان بعيد، بعيد

وحطت على حافة النافذة
عندها عجّلي إلى النافذة ياعزيزتي
فَتلْكُمْ هي روحي
تريد أَن ترتاح قليلا هناك
بين ذراعيك يا عزيزتي

إنها أغنية جميلة وحزينة. ولكن جوناثان ضحك عندما سمعها وقال لي:

«أتعرف يا رسكي، ربّما جئتَ طائراً إليّ في مساء ما من نانجيالا. وفي هذه الحالة، أرجو ألاّ تنسى أن تحط هناك في صورة حمامةٍ بيضاء ناصعة بلون الثلج على حافة النافذة. هل تفعل هذا؟»

عندئذٍ بدأت أسعل سعالاً شديداً، فرفعني بين يديه وضمّني إلى صدره كما اعتادَ أن يفعل دائماً حينما يشتد المرض عليّ، وطفق يغني:

أعرف ياحبيبي الصغير رسكي
أن روحك هنا
تريد أن ترتاح هنا قليلاً
بين ذراعيّ يا حبيبي

حتى تلك اللحظة لم يكن قد خطر لي كيف ستكون الحياة في نانجيالا من غير جوناثان. كم سأشعر بالوحدة بدونه! ما جدوى أن أكون هناك حيث تجري حوادث الحكايات والملاحم والمغامرات، من غير ان يكون جوناثان فيها أيضاً؟ سوف أشعر مؤكداً بالخوف، ولن يكون في استطاعتي أن أعرف كيف أفعل وأتصرّف.

وهكذا بكيت وقلت: «لا أريد أن أذهب إلى هناك. أريد أن أكون حيث

تكون أنت يا جوناثان.»

قال جوناثان: «ولكني سآتي إلى نانجيالا أنا كذلك، بعد حين.»

قلت: «نعم، بعد حين، ولكن ربّما عشت إلى أن يبلغ عمرك تسعين عاماً. وفي هذا الأثناء سأكون هناك وحدي.»

عندئذٍ أخبرني جوناثان أنه لا يوجد في نانجيالا زمنٌ كما هي الحال على الأرض. فحتى لو عاش تسعين سنة، فإنني في نانجيالا لن أشعر بمرور أكثر من يومين حتى يلحق بي هناك. وهكذا تبدو الأمور حيث لا يوجد زمن حقيقي.

ولذا قال جوناثان: «إن في استطاعتك أن تتدبر أمورك وحدك لمدّة يومين، أليس كذلك؟ يمكنك أن تتسلّق الأشجار وتخيّم في الغابة وتشعل ناراً، وتستطيع أن تجلس على ضفة الجدول وتصطاد السمك، وتفعل كل تلك الأشياء التي طالما تشوّقت إلى فعلها. وبينما أنت جالس هناك على ضفة الجدول تصطاد سمكةً، سوف أقبل عليك طائراً، وسوف تهتف إذ تراني قائلا: «يا الله! أهذا أنت يا جوناثان قد وصلت؟»

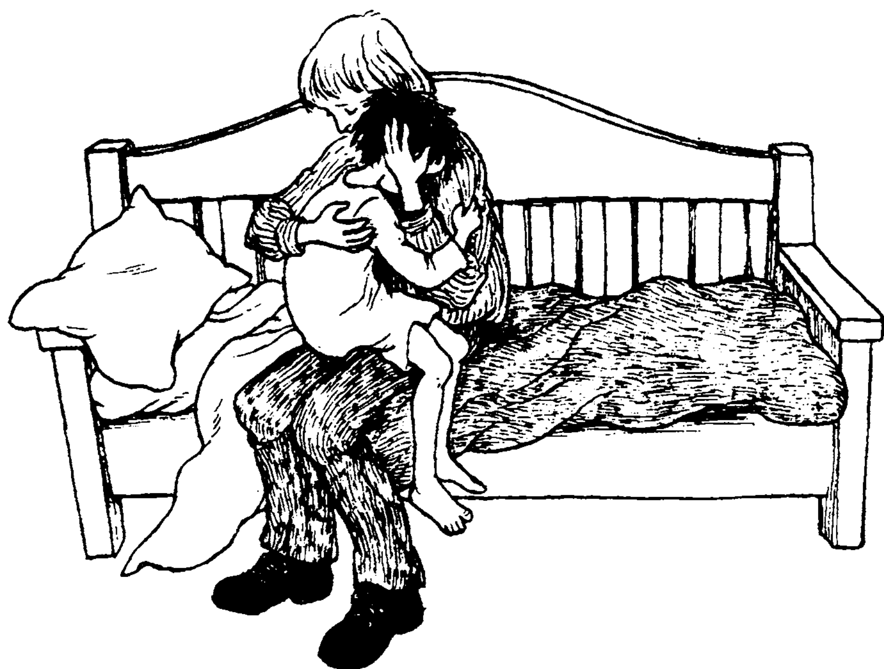
حاولت أن أكفّ عن البكاء، لأني اعتقدت أنه سيكون بإمكاني أن أتدبر أمري لمدّة يومين.

ولكني قلت: «تخيّل كم سيكون الأمر أفضل لو أنك سبقتني إلى هناك، فتكون أنت الذي يجلس على حافة الجدول يصطاد السمك، ثم يستقبلني.»

وافقني جوناثان على هذا، ثم أرسل نحوي نظرة عميقة طويلة مفعمة بالعطف والطيبة. ولاحظت أنه كان حزيناً، لأنه قال بأسلوب هادىء ونبرة مشبعة بالأسف:

«ولكن بدلاًمن ذلك سيكون عليّ ان أعيش على الأرض من غير أخي الحبيب رسكي، ربّما لتسعين عاماً!»

هذا ما كنا نظن!



الفصل الثاني

الآن أصل معكم إلى الجزء الصعب ؛ الجزء الذي لا أحتمل التفكير فيه، الجزء الذي لا أملك إلاّ التفكير فيه.

أخي الحبيب جوناثان! ربّما توقعتم أن اقول إنه ما زال معي، يجالسني ويحدّثني في الأمسيات، ويذهب إلى المدرسة ويلعب مع رفاقه في ساحتها، ويسخنّ لي الماء الممزوج بالعسل وما إلى ذلك، ولكن الأمر ليس كذلك.. لا، إنه ليس كذلك.

جوناثان يقيم الآن في نانجيالا.

الأمر صعب، لا أستطيع الآن - لا أستطيع أن أخبركم. ولكن، هذا ما قالته الصحف بعد ذلك :

«لقد نشب حريق هائل في عمارة فاكلروزن هنا في البلدة مساء أمس. وأدى ذلك إلى احتراق العمارة المبنية من الخشب احتراقاً تاماً، وقتل شخص واحد.

عندما اندلع الحريق، كان كارل ليون البالغ من العمر عشرة أعوام ينام وحده في شقة تقع في الطابق الثاني. وما إن اندلع الحريق حتى عاد جوناثان ليون، البالغ من العمر ثلاث عشرة عاماً إلى البيت. وقبل أن يتمكن أحد من إيقافه اندفع الى داخل البناية المشتعلة لينقذ شقيقه. ولم تمض إلا بضع ثوانٍ حتى كانت النار قد أتت تماماً على سلم البناية، فلم يكن أمام الأخوين اللذين حاصرتهما النيران إلاّ أن يحاولا النجاة بالقفز عبر النافذة. ولم يكن أمام الناس الذين تجمّعوا في الخارج إلاّ أن يشهدوا كيف عمد

الفتى ذو الثلاث عشرة سنة إلى حمل أخيه على ظهره بينما النيران تزأر خلفهما، ثم قفز بِهِ من النافذة. ولدى سقوطهما على الأرض أصيب الفتى الأكبر إصابة شديدة أدت إلى وفاته على الفور تقريباً، أما الفتى الأصغر فقد حماه ظهر أخيه من وطأة السقوط، فلم يصب بأي أذى.

وفي أثناء وقوع الحادث كانت أم الولدين التي تعمل في الحياكة في زيارة لإحدى النساء من زبائنها. وقد أصيبت بصدمة شديدة لدى عودتها الى البيت وتلقي الخبر. ولم تُعْرَفْ بعد أسباب نشوب الحريق.»

على صفحة أخرى من الصحيفة، كان هناك المزيد من الكلام حول جوناثان كتبته معلمة المدرسة، وقالت فيه :

«عزيزي جوناثان ليون. ألم يكن من الأصح أن يكون اسمك جوناثان ليونهارت كما ينبغي لفتى شجاع مثلك! عزيزي جوناثان! حتى لو لم يُكْتَبْ عنك في كتب التاريخ، فلقد أثبتّ أنك كنت في اللحظة الحاسمة على مستوى من الشجاعة والإقدام لا تقل عما أُثِرَ عن الأبطال الذين دُوِّنت أخبارهم في كتب التاريخ. إن معلمتك الحزينة على فقدك لن تنساك ابداً. وسيذكرك أصحابك لزمن طويل. وسيبدو الصف فارغاً من غير جوناثان، الفتى النبيل الشجاع. ولكن الله يحب أولئك الذين يموتون صغاراً، فسلام عليك يا جوناثان ليونهارت.»

لم تكن معلّمة جوناثان تلك بارعة أو لامعة بصورة خاصة، ولكنها كانت تحب جوناثان حباً جماً، شأنها في ذلك شأن الآخرين جميعاً. وقد كانت تلك الكلمة التي نشرتها في الصحيفة عنه لفتة لطيفة، ولا سيما اقتراحها أن

يُسمى ليونهارت. كانت هذه لفتة لطيفة حقاً.

لعله لم يبق أحد في البلدة لم يشعر بالحزن والأسف لموت جوناثان، أو لم يتمن لو كنت أنا الذي مات بدلاً منه. على الاقل، هذا ما كنت استشعره من النساء اللواتي كنّ يأتين إلى أمي مع قطع القماش ومواد الخياطة. كانت الواحدة منهن إذا دخلت تنهدت وهي تنظر إليّ، ثم تدخل إلى المطبخ وتقول لأمي :«مسكينة يا سيدة ليون! ومسكين جوناثان الذي كان فتى متميّزاً.»

إننا نعيش الآن في بناية مجاورة لمكان البناية القديمة، وفي شقة مماثلة للشقة السابقة التي كنا نعيش فيها، ولكنها تقع في الطابق الأرضيّ. لقد تبرعت إحدى الجمعيات الخيريّة لنا ببعض الأثاث المستعمل. كذلك قدّمت لنا نساء الحيّ بعض الأشياء الأخرى. والأريكه التي أنام عليها تكاد تتماثل مع الأريكه القديمة. كل ما في الشقة الجديدة يكاد يماثل وضع الشقة القديمة. ومع ذلك فلم يعد في حياتي شيء على الإطلاق كما كان سابقاً، إذ أن جوناثان ليس معنا الآن. لا يوجد الآن من يجلس معي ويحدثني في الأمسيات. إنني أشعر بوحدة شديدة مؤلمة توغل في أعماقي. وكل ما أستطيع عمله هو أن أستلقي وأهمس لنفسي بالكلمات الأخيرة التي نطق بها جوناثان قبل موته مباشرة، في تلك اللحظة التي كنا فيها نتمدد على الأرض بعد أن قفزنا وارتطمنا بها. كان جوناثان منبطحاً ووجهه إلى الأرض، إلاّ أن أحد الناس قلبه على ظهره، واستطعت أن أرى وجهه. كان خيط من الدم يسيل من طرف فمه، ولم يكن في استطاعته أن يتحدث إلاّ

بصعوبة بالغة. ومع ذلك فقد بدا وكأنّه يحاول الابتسام على الرغم من كل شيء. وتمكّن أخيراً من أن يفوه ببعض الكلمات :«لا تبكني يا رسكي. سنلتقي في نانجيالا.»

كان هذا كل ما استطاع قوله، ولا شئ آخر. ثم أغلق عينيه. وجاء الناس وحملوه بعيداً، ولم أره بعد ذلك ابداً.

إني لا أحب أن أتذكر الوقت الذي تلا ذلك مباشرةً. ولكن، ليس في وسع المرء أن ينسى شيئاً فاجعاً ومؤلماً كهذا. لقد صرت أقضي الوقت مستلقياً هنا على الأريكه أفكر بجوناثان حتى أشعر أن رأسي يكاد ينفجر. ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يشعر بالشوق إلى أحد كما شعرت بالشوق إليه. وقد شعرت بالخوف أيضاً. فقد بقي الخاطر التالي يلازمني ويلح عليّ : ماذا لو كان كلُّ ما قيل عن نانجيالا وهماً لا حقيقة؟ ماذا لو كان ذلك واحداً من تلك الأشياء التي كان جوناثان يخترعها بخياله؟!

وهكذا طفقت أبكي و أبكي.

ولكن جوناثان ما لبث أن جاء وواساني. نعم، لقد جاء. ولكم كان ذلك رائعاً. فقد اطمأنت نفسي بعد ذلك إلى حدّ كبير. ولعلّه قد أحسّ وهو هناك في نانجيالا مقدار ما أعانيه في غيابه، فقدّر أن من الضروري أن يأتي ويواسيني. وهكذا جاء، ولم أعد بذلك حزيناً كما كنت ؛ أنني الآن أنتظر وحسب.

لقد جاء جوناثان في إحدى الأمسيات قبل زمن قصير. كنت وحيداً في البيت. وكنت أستلقي على السرير وأبكي شوقاً إليه. وكنت أكثر خوفاً

وتعاسة ومرضاً واضطراباً مما يمكن أن تصف الكلمات. وكانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، فقد كان الطقس ربيعيّاً دافئاً. وسمعت هديل الحمام في الخارج. إذ توجد في الساحة الخلفيّة أعداد كبيرةٌ من الحمام الذي لا يتوقّف عن الهديل. ثم وقع الحدث الجميل.

فعندما كنت مستلقياً هناك أبكي على الوسادة، سمعت هديل حمامة بالقرب منّي. وحين رفعت رأسي رأيت حمامة تقف على حافة النافذة تنظر إليّ بعينين وادعتين مشبعتين بالعطف والمحبة. كانت حمامة ناصعة البياض بلون الثلج، أرجو أن تلاحظوا هذا. لم تكن من تلك الحمائم الرمادية التي توجد في الساحة الخلفية، بل كانت حمامة بيضاء بلون الثلج. لا أحد يستطيع أن يتصوّر شعوري حين رأيتها، ذلك أنها كانت كما تقول الأغنية -«عندما تأتي حمامة ناصعة البياض بلون الثلج.» ولكأني عندئذٍ أستمع إلى صوت جوناثان يغني من جديد :«أعرف يا حبيبي الصغير رسكي أن روحك هنا.» ولكنه هو الذي جاء إليّ الآن بدلاً من أن أجيء أنا اليه.

أردت أن أقول شيئاً، ولكني لم أستطع. فبقيت مستلقياً هناك استمع إلى هديل الحمامة. وخلف هديلها، أو في أثنائه.. لا أدري كيف أصف هذا - سمعت صوت جوناثان، على الرغم من أنه بدا مختلفاً عمّا اعتدته منه. كان أشبه بهمس يطوف في المطبخ كلّه. وربما بدا هذا لكم شبيهاً بقصص الأشباح، وربّما كان من المتوقع أن أشعر بالخوف، ولكن هذا لم يحدث، بل غمرني شعور عميق بالسعادة كدت معه أطير إلى السقف. إذ كان كل ما سمعته رائعاً حقاً.



واذاً فإن كل ما قاله جوناثان عن نانجيالا كان صحيحاً. جاء جوناثان ليستعجل ذهابي إلى نانجيالا، لأن كل شيء هناك بديعٌ من جميع الوجوه كما قال لي. لقد وجد هناك بيتاً في انتظاره حين وصل؛ لقد أُعطيَ بيتاً خاصاً به في نانجيالا. وأخبرني أن بيته ذاك يقوم على مزرعة قديمة اسمها «مزرعة الفرسان»، وتقع في «وادي الكرز»، ألا يبدو هذا رائعاً؟ تخيّلوا أيضاً؛ حين وصل إلى مزرعة الفرسان كان أول ما أبصره لوحة خضراء على البوابة خُطّط عليها: «الأخوان ليونهارت».

قال جوناثان: «وهذا يعني أن المكان مخصّص لكلينا.»

تخيلوا! أنا أيضاً سأدعى ليونهارت، نعم أنا، حين أصل إلى نانجيالا. إنني سعيد بهذا، لأنني أفضل أن أدعى بما يدعى به أخي جوناثان، حتى لو لم أكن في مثل شجاعته.

ثم ساد الهدوء مرّة واحدة، وطارت الحمامة بعيداً، فوق السطوح، ثم عودةً إلى نانجيالا.

وأنا الآن أستلقي على الأريكة في انتظار أن أطير وراء تلك الحمامة، وارجو ألاّ يكون من الصعب عليّ أن أجد طريقي هناك. ولكن جوناثان أخبرني أن الأمر لن يكون صعباً إطلاقاً. ومع ذلك فقد كتبت العنوان احتياطاً: الأخوان ليونهارت

مزرعة الفرسان

وادي الكرز

نانجيالا.

لقد مضى على جوناثان شهران حتى الآن وهو يعيش هناك وحده. وكان عليّ أن أبقى وحدي بدونه طوال الشهرين الرهيبين. أما الآن، فأنا على وشك الالتحاق به في نانجيالا. سأكتب مذكّرة لأمّي وأضعها على طاولة المطبخ لتجدها في صباح اليوم التالي حينما تستيقظ :

لا تبكِ يا أمّاه
نلتقي في نانجيالا.

الفصل الثالث

ثم حدث الأمر الغريب الذي لم أجرّب شيئاً في مثل غرابته قط. فجأةً وجدت نفسي أمام البوابة أقرأ اللوحة الخضراء التي كتب عليها: الأخوان ليونهارت.

كيف وصلتُ إلى هناك؟ متى طرت؟ كيف عرفتُ طريقي من غير أن أسأل أحداً؟ لا ادري. كل ما أعرفه أنني وجدت نفسي واقفاً هناك أنظر إلى اللوحة التي تحمل الاسم.

ناديت جوناثان. ناديت مرات عدّة، ولكنه لم يجب. ثم تذكرت - نعم بالطبع، لابد أنه الآن يجلس هناك على حافة الجدول يصطاد السمك.

وبدأت أركض منحدراً في الممرّ الضيق الذي يؤدّي إلى الجدول. ركضت وركضت - وهناك، بالقرب من الجسر، كان يجلس جوناثان. وإذا كان في استطاعتي أن أخبركم بهذا، فإني لا أستطيع أن أصف لكم شعوري حين شاهدته.

لم يشهدني أصِلُ هناك. حاولت أن أنادي: «جوناثان!»، ولكن أعتقد أنني كنت أبكي في تلك اللحظة، لأنني لم أتمكّن إلاّ من إصدار صوت خافت غريب. ومع ذلك فقد سمعه جوناثان. نظر إلى الأعلى ورآني. عندئذٍ صرخ بأعلى صوته، وألقى عصا الصيد واندفع نحوي راكضاً واحتضنني بشدّة، وكأنه يريد أن يتأكد مِن أنني هناك حقاً. ثم بكيت قليلاً. لماذا بكيت؟ لا أدري، ولكني كنت قد اشتقت إليه كثيراً.. كثيراً جداً.

أما جوناثان فقد طفق يضحك بدلاً من ذلك، بينما كنا نقف هناك على

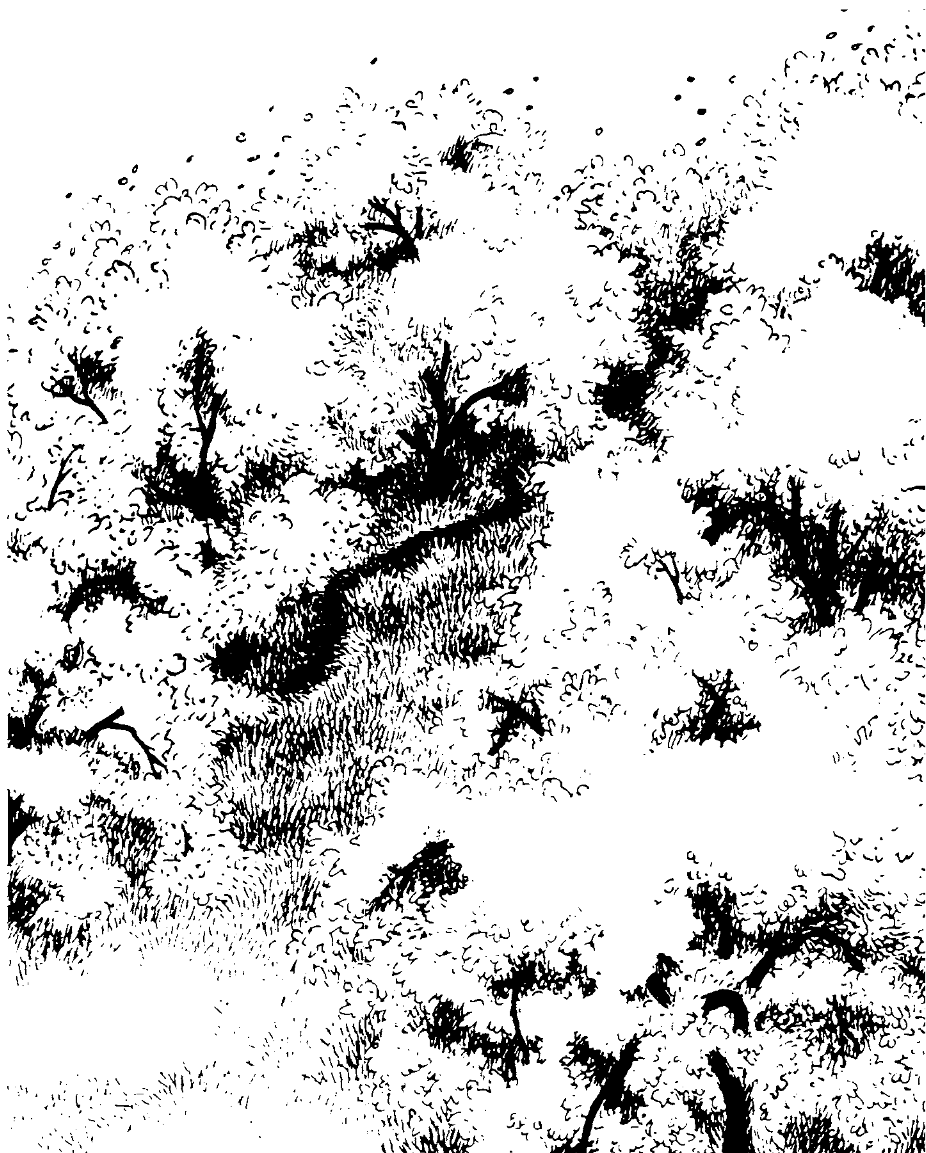
المنحدر يحتضن أحدنا الآخر، وكنا نشعر بسعـادة غامرة لا توصف، لأننا قد اجتمعنا من جديد.

ثم قال جوناثان:

«أخيراً جئت. أليس كذلك يا رسكي ليونهارت؟»



رسكي ليونهارت! بدا ذلك طريفاً حقاً، فضحكنا بصوت عالٍ. وتابعنا الضحك، وكان ذاك هو أطرف ما سمعنا منذ زمن طويل. ربّما كانت



الحقيقة أننا كنا نريد أي شيء نضحك بسببه. كنا سعيدين جداً حتى أننا شعرنا بأن كل الأشياء تمور في داخلنا. وبعد أن مكثنا وقتاً طويلاً نضحك ونقهقه بدأنا نتصارع على سبيل المرح واللعب، إلا أن هذا لم يوقفنا عن الضحك. بل مضينا نضحك حتى انبطحنا على العشب، وصرنا نتدحرج عليه ونحن نتابع الضحك، وبقينا على ذلك حتى وجدنا أنفسنا نقع في ماء الجدول. ولم يزدنا ذلك إلاّ ضحكاً حتى ظننت أننا سنغرق.

ولكن، بدلاً من ذلك بدأنا في السباحة. لم أكن من قبل قد تعلّمت السباحة، على الرغم من أنني كنت أتمنّى ذلك دائماً. أما الآن فقد وجدت نفسي أسبح بمهارة، هكذا من غير تعلّم سابق. أخذت أسبح بمهارة فائقة كأي سبّاح ماهر.

صحت قائلاً: «أنظر يا جوناثان، إنني أستطيع السباحة!»

قال جوناثان: «نعم، بالطبع تستطيع السباحة.»

عندئذٍ، تنبهت فجأة إلى أمر ما.

قلت: «جوناثان! ألم تلاحظ شيئاً؟ لقد توقفت عن السعال.»

قال: «نعم، بالطبع توقفت عن السعال. إنك في نانجيالا الآن.»

سبحت هناك لوقت طويل. ثم جمعت نفسي وصعدت إلى الجسر، ووقفت هناك مبتلاً والماء يسيل من ملابسي. كان بنطالي ملتصقاً بجسمي بسبب الابتلال، ولذلك استطعت أن ألاحظ بوضوح ما طرأ عليّ. صَدِّقوا أو لا تُصَدِّقوا، لقد صارت ساقاي مستقيمتين، تماماً مثل ساقي جوناثان.

ثم تساءلت في نفسي: هل يمكن أنني قد صرت جميلاً كذلك؟ وسألت

جوناثان إذا كان يرى أنني صرت جميلاً.

أجاب: «أنظر في المرآة.» يعني بذلك ماء الجدول، إذ إن الماء كان صافياً وهادئاً ولامعاً، حتى أن بإمكان أحدنا أن يرى صورته واضحة فيه. وهكذا استلقيت على بطني فوق الجسر، وانحنيت برأسي على حافته، ونظرت في الماء أدناه، ولكني لم ألحظ أنني صرت جميلاً بصورة خاصّة. وجاء جوناثان وتمدد إلى جانبي. وبقينا كذلك وقتاً طويلاً ننظر إلى انعكاس صورتَيْ الأخوين ليونهارت على صفحة الماء: جوناثان بجماله الأخّاذ وشعره الذهبي وعينيه اللامعتين ووجهه الرائع، وأنا بأنفي الضخم المفلطح وشعري الأشعث غير المنتظم.

ثم قلت: «لا، لا أعتقد أنني قد اكتسبت شيئاً من الجمال.»

ولكن جوناثان رأى أن ثمّة فرقاً كبيراً الآن.

قال: «إنك تبدو الآن صحيح الجسم، تتمتع بالصحة والعافية.»

عندئذٍ تلمّست جسمي كله، وأنا ما أزال مستلقياً على الجسر، فشعرت أنني صحيح ومعافىً؛ في كل جزءٍ مني. وإذن، فلماذا أطلب الجمال؟ كنت أشعر بالسعادة والعافية تتخلّل جسدي كلّه حتى بدا أنه يضحك بكامله.

بقينا نتمدد هناك لفترة من الوقت. وتركنا أنفسنا للشمس تدفىء جسدينا. وراقبنا الأسماك تسبح وتتقافز في الجدول تحت الجسر. ثم أبدى جوناثان رغبته في العودة إلى البيت. وكذلك كانت رغبتي، لأني كنت أتطلع بفضول إلى مشاهدة مزرعة الفرسان حيث سأعيش مع جوناثان.

مشى جوناثان أمامي صاعداً الممرّ نحو المزرعة، ومشيت خلفه بساقين مستقيمتين سليمتين. وطوال الطريق كنت أتمعّن في ساقيّ شاعراً بالسعادة

أنني أمشي بهما. وإذ بلغنا مكاناً مرتفعاً من الممرّ الصاعد، أدرت رأسي فجأة، وعندئذٍ شاهدت وادي الكرز لأوّل مرّة. أخيراً هذا هو وادي الكرز ؛ آه، ما أجمله! كان الوادي أبيض ببراعم الكرز التي تملأ المكان. كان الوادي مزيجاً من اللونين الأبيض والأخضر، مع براعم الكرز البيضاء والعشب العميق الخضرة. وعبر تلك المساحة الرائعة من البياض والخضرة كان النهر يتدفق مثل شريط فضيّ. لماذا لم أتنبّه إلى الوادي قبل الآن؟ هل السبب أنّ رؤية جوناثان قد استحوذت عليّ تماماً قبل تلك اللحظة حتى لم أرَ غيره؟ أما الآن، فقد وقفت ساكناً في الممرّ أمتّع بصري بالمنظر الرائع.

ثم قلت لجوناثان: «لعلّ هذا أجمل وادٍ في الأرض.»

قال جوناثان: «نعم، ولكنه ليس في الأرض.»

عندها تذكرت أنني الآن في نانجيالا.

كان وادي الكرز محاطاً من كل جانب بالجبال العالية، وكان منظرها جميلاً كذلك. ومن منحدرات الجبال، كانت الجداول والشلالات تجري وتسقط لتصب في الوادي، حتى ليبدو الوادي وكأنه يصدح بأصوات المياه المتدفقة الجارية الساقطة إليه. فقد كان الوقت ربيعاً. وكان ثمّة شيء خاصّ بالنسبة إلى الهواء أيضاً، فقد شعرت كأن أحدنا يستطيع أن يشربه لشدّة صفائه ونظافته.

قلت: «ما أحوج الناس في الأرض حيث كنا نعيش إلى شيء من هذا الهواء!» قلت هذا وأنا أتذكر كيف كنت أستلقي على الأريكة في مطبخ البيت، وأنا أشعر بما يشبه الاختناق، وكأن المكان قد فرغ من الهواء تماماً.

ولكنّ الهواء النقيّ هنا متوافر. وهكذا أخذت أتنفس بعمق وأملأ صدري بالهواء بقدر ما أستطيع، وبدا الأمر وكأنني لا أستطيع أن أكتفي منه.

فضحك جوناثان منّي وقال: «أترك قليلاً منه لي.»

كان الممر الذي نسير عليه مغموراً ببراعم الكرز البيضاء الساقطة. وكانت أوراق البراعم البيضاء تطير في الجوّ فتسقط على رأسينا وتعلق بشعرنا وبكل شيء. لكم أحب الممرات الضيّقة الخضراء التي تغمرها براعم الكرز البيضاء! أني أحب ذلك حقاً.

في نهاية الممرّ، تقع مزرعة الفرسان، حيث البوابة واللوحة الخضراء التي تحمل اسمينا.

قرأت اللوحة بصوتٍ عالٍ ليسمعه جوناثان «الأخوان ليونهارت، تأمّل يا جوناثان! هذا هو المكان الذي سنعيش فيه معاً.»

قال جوناثان: «نعم، تأمّل ذلك يا رسكي! أليس هذا رائعاً؟»

نعم كان ذلك رائعاً حقاً. لقد فهمت لماذا كان هذا رأي جوناثان في المكان. بالنسبة إليّ، ما كنت لأتخيّل أن هناك مكاناً أروع من هذا يمكن أن أعيش فيه.

كان البيت أبيض اللون، ولم يكن كبيراً أبداً. أما الباب فكان أخضر اللون. وكان البيت محاطاً بالخضرة من كل جانب، حيث نمت بين العشب أنواع مختلفة من الزهور الرائعة الجميلة. وكانت هناك أشجار كرز مزهرة. ويحيط بذلك كلهّ سور حجريّ رماديّ اللون نمت عليه أزهار ذات ألوان بديعة. ولم يكن السور مرتفعاً، فقد كان في وسع أحدنا أن يقفز





عنه، إلاّ أن الإنسان حين يدخل من بوابة السور الخارجية يشعر أن ذلك السور يحميه من أي شئ يقع خارجه. ولذا يحسّ الإنسان في الداخل أنه في بيته حقاً وانه مستقلّ بذاته تماماً.

في الواقع كان هناك بيتان لا بيت واحد، إلاّ أن البيت الآخر كان يبدو شبيهاً بالاسطبل أكثر من أي شئ آخر. كان البيتان متلاصقين فيما يشكل زاوية بينهما. وهناك في نقطة اتصالهما كان يوجد مقعد خشبي قديم يبدو وكأنه يعود الى العصر الحجريّ. ومع ذلك فقد كان مقعداً لطيفاً في ركن لطيف. وفور أن تقع العين عليه يتخيّل الإنسان نفسه جالساً هناك يتأمّل قليلاً، أو يتحدّث ويراقب الطيور، أو ربّما يشرب كأساً من عصير الفاكهة.

قلت لجوناثان: «يعجبني هذا المكان. هل الداخل جميل بالمستوى نفسه؟»

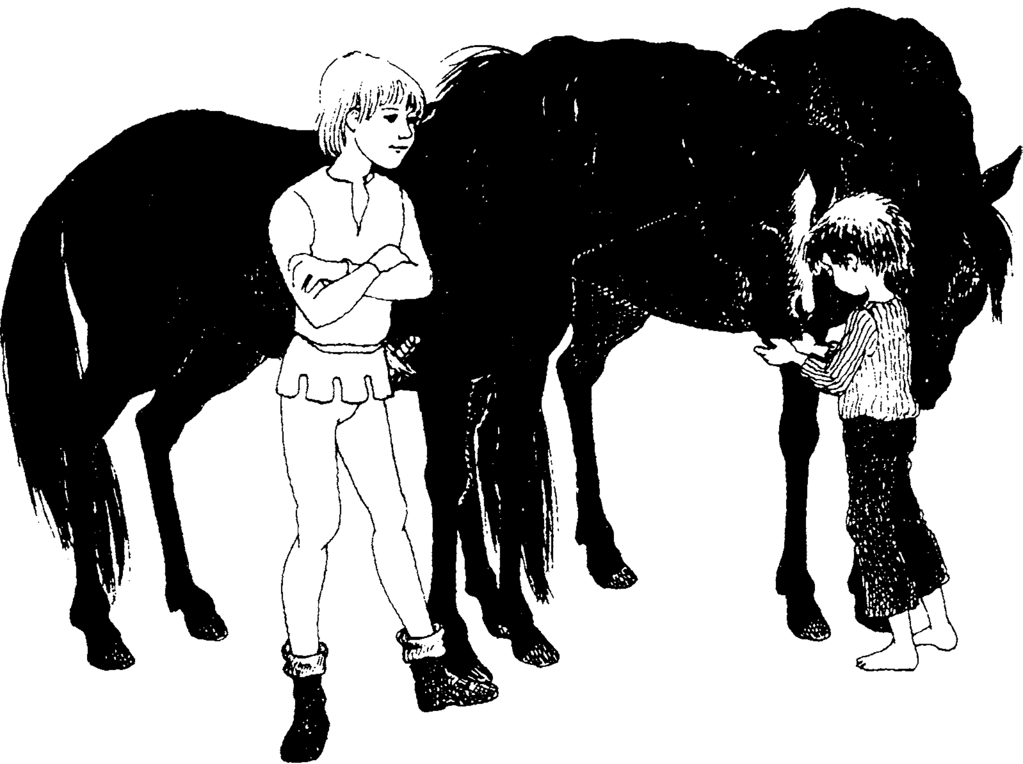
أجاب جوناثان: «تعال وانظر. وكان في هذه اللحظة يقف عند الباب وعلى وشك الدخول، إلاّ أنني سمعت في اللحظة نفسها صهيلاً - نعم، لقد كان البيت يصهل حقاً - وقال جوناثان: «أرى أن ندخل الاسطبل أوّلاً.»

دخل في البيت الثاني، وركضت لاحقاً به. تخيلوا! ركضت وراءه! وكان المكان إسطبلاً بالفعل كما تخيلته. وكان هناك حصانان بنيّان جميلان، وما إن دخلنا حتى التفت الحصانان نحونا وارتفع صهيلهما.

قال جوناثان: «هذان غريم و فيالار. احزر أيهما حصانك؟»

قلت: «دعك من هذا. لا تقل لي إن لي حصاناً منهما، لأنني لا أصدق ذلك.»

ولكن جوناثان أكدّ لي أنّ كل إنسان في نانجيالا يحتاج إلى حصان.



قال:«إنك لا تستطيع أن تبلغ مكاناً من غير حصان. ألا ترى يارسكي؟ أحياناً يكون عليك هنا أن تقطع مسافات طويلة.»

كان ذلك أروع ما سمعت منذ زمن طويل، أعني أنه يجب أن يكون لكل إنسان حصان في نانجيالا. ذلك أنني أحب الخيول كثيراً. تخيل طراوة أنوفها. لا أظن أن هناك ماهو أطرى من أنوفها.

كانا جوادين رائعين حقاً. وكانا متماثلين في كل شئ، إلا أن فيالار كان متميّزاً بغرة بيضاء في جبينه.

وطلب مني جوناثان أن أخمّن أيهما لي. فقلت:«أظن أنه غريم.»

قال جوناثان: «أخطأت هنا، بل إن فيالار هو حصانك.»

تركت فيالار يتشممني، وبدأت أربّت عليه دون أدنى خوف، على الرغم من أنني لم ألمس حصاناً من قبل. وقد أحببته منذ اللحظة الأولى. وأظنّ أنه كذلك أحبني، أو على الأقل هذا ما اعتقدته.

ثم قال جوناثان: «وعندنا أرانب أيضاً في قفص خلف الاسطبل. ولكن تستطيع أن تنظر إليها في وقت آخر.»

قلت: «يجب أن أراها الآن، فوراً.» فلطالما أحببت أن أربّي بعض الأرانب، إلاّ أن هذا كان متعذراً في البيت الذي كنا نعيش فيه سابقاً.

وهكذا قمت بجولة سريعة خلف الأسطبل، وهناك وجدت قفصاً فيه ثلاث أرانب رائعة، تمضغ بعض أوراق الهندباء البريّة.

بعد ذلك قلت لجوناثان: «ما أطرف هذا! هنا في نانجيالا يوجد كل ما كنت أرغب فيه.»

قال جوناثان: «نعم. ولكن، أليس هذا ما قلته لك سابقاً؟»

وبالفعل، كانت الأمور هنا تماماً كما أخبرني سابقاً، حين كان يجلس معي في مطبخ البيت الذي كنا نعيش فيه قبل مجيئنا إلى نانجيالا، إلاّ أن في وسعي الآن أن أرى ذلك كلّه واقعاً متحققاً. وكنت سعيداً لهذا.

هناك بعض الأمور التي لا يمكن للمرء أن ينساها. ولن أنسى أبداً ذلك المساء الأول الذي قضيته مع جوناثان في مطبخ «مزرعة الفرسان». فلكم كان رائعاً أن أتمدد هناك وأحادثه كما كنا نفعل سابقاً. فنحن الآن نعيش في مطبخ كما كنا دائماً، على الرغم من أن هذا المطبخ لا يشبه في شيءٍ مطبخنا القديم. وقد بدا لي أن المطبخ في «مزرعة الفرسان» قديم جداً،

بالدعامات الخشبية السميكة لسقفه، وبالمدفئة الكبيرة المفتوحة فيه. وما كان أعظمها من مدفئة. فقد كانت ترتفع إلى منتصف الحائط. وإذا شئت أن تطبخ بعض الطعام، فإنّ عليك أن تفعل ذلك مباشرة على النار، تماماً كما كان الناس يفعلون في الزمان القديم. أما في وسط الغرفة، فكانت توجد مائدة لم أر في حياتي مثلها ضخامةً وثقلاً. وكانت تحيط بها مقاعد خشبية طويلة من كل جانب. وأعتقد جازماً أن مجموعة كبيرة من الناس يستطيعون الجلوس حول تلك المائدة ليتناولوا الطعام في الوقت نفسه بلا أدنى تزاحم.

وقال جوناثان: «يمكننا أن نعيش في المطبخ كسابق عهدنا، وبذلك تستطيع أمنا أن تعيش في الغرفة الأخرى حين تقدم علينا.»

كانت مزرعة الفرسان تتكون من غرفة ومطبخ لا غير. ولكننا لم نعتد على غير ذلك. ولم نكن في حاجة إلى أكثر منه. ومع ذلك فقد كان المكان هنا ضعفي مساحة بيتنا القديم.

بيتنا القديم! أخبرتُ جوناثان بالمذكرّة التي تركتها لأمّي على طاولة المطبخ.

«لقد كتبتُ لها: إلى اللقاء في نانجيالا. ولكنْ، من يدري متى يكون ذلك!»

قال جوناثان: «ربّما استغرق ذلك زمناً. ولكن عندما تجيء سيكون لها غرفة كبيرة تتّسع لعشرة ماكنات خياطة إن شاءت.»

خمّنوا الآن ما الذي أحب أكثر من أي شيء! أحب أن أستلقي في سرير قديم في مطبخ قديم، وأحدّث جوناثان، بينما تتراقص أضواء النار على الجدران، وحين أنظر عبر النافذة أرى غصناً من شجرة كرز يتمايل مع نسيم

المساء. ثم تبدأ النار في التناقص تدريجاً حتى لا يتبقى غير الحطب المتوهّج. وتزداد الظلال سماكةً في الزوايا، ثم يزحف النعاس إلى عينيّ تدريجاً، وأبقى مستلقياً هناك من غير سعال بينما يتابع جوناثان حديثه لي دون توقف، خبراً إثر خبر، وقصّة تلو قصّة، إلى أن أسمع صوته وكأنه قادم من بعيد بعيد، أشبه ما يكون بالهمس، وعندها أستغرق في النوم العميق. هذا بالتحديد ما أحبّ. وهذا ما حدث فعلاً في ذلك المساء الأول الذي قضيناه معاً في «مزرعة الفرسان». ولهذا السبب لن أنسى أبداً ذلك المساء.





الفصل الرابع

في اليوم التالي خرجنا لركوب الخيل. نعم، أستطيع الركوب الآن على الرغم من أن هذه هي المرّة الأولى التي أمتطي فيها ظهر جواد. لا أعرف كيف يمكن للشخص أن يفعل ما يشاء وما يشتهي هنا في نانجيالا. لقد عدوت بالحصان وكأنني عشت راكباً على ظهره.

أما جوناثان فلا أحد يبدو أروع منه راكباً. أين تلك المرأة التي كانت تصفه بأنه يشبه أميراً من أمراء الأساطير؟ لو أتيح لها أن تراه الآن مقبلاً على ظهر جواده عبر المروج الخضر في «وادي الكرز» لرأت فيه حقاً أميراً أسطورياً لا يُنْسى منظره! آه، ما أبدع منظره حين أقبل يعدو بالحصان ثم قفز به فوق الجدول فبدا كأنه يطير وشعره يتموّج في كل اتجاه بفعل الريح. نعم، لو أنك رأيت ذلك المنظر لما شككت لحظة واحدة أنه أمير من الأمراء الذين تتحدث عنهم الملاحم والأساطير. كان يرتدي ملابس فارس بصورة دائمة تقريباً. فقد كانت الخزانة في «مزرعة الفرسان» مليئة بالثياب التي لا أدري من أين جيء بها، ولكنها لم تكن تشبه في شيء ما يلبسه الناس في العالم الذي فارقناه. بل كانت أشبه ما يكون بملابس الفرسان. وقد ارتديت بعضها كذلك بعد أن تخلّصت نهائياً من أسمالي القديمة القبيحة الرثّة التي لا أريد أن أراها ثانية أبداً. وقد قال لي جوناثان إن علينا أن نرتدي هذه الملابس الجديدة لأنها تناسب الزمن الذي نعيش فيه الآن، وإلاّ ظنّ الناس في «وادي الكرز» أننا غريبو الاطوار. إننا نعيش الآن في أيام الأساطير ونيران المخيمات. أليس هذا ما حدّثني عنه جوناثان سابقاً قبل قدومنا إلى هنا؟ وبينما كنا نتجوّل راكبَيْن في وادينا الجميل سألته:

«لا بد أننا نعيش الآن في أزمان سحيقة القدم في نانجيالا. أليس كذلك؟»

أجاب قائلاً:

«نعم. يمكنك أن تقول هذا من وجوهٍ مختلفةٍ. ولكن يمكنك كذلك أن تقول إنها أزمان فتيّة.»

فكر قليلاً ثم أضاف:

«نعم، هي كذلك. إنها أيام فتيّة ومليئة بالخير والعافية، مما يجعل الحياة فيها بسيطة ومريحة.»

ولكن، ما لبث أن أرسل نظرة شاردة غامضة وقال:

«على الأقل، هكذا هي الحال في «وادي الكرز.»

سألت: «هل تعني أن الأمور مختلفة في أماكن أخرى؟»

وأجاب بأنها يمكن بالتأكيد أن تكون مختلفة عن هذا في أماكن أخرى.

لقد كان من حسن حظنا أننا نزلنا في هذا الوادي - «وادي الكرز»، حيث الحياة مريحة وبسيطة كما قال جوناثان. وما كان بالإمكان أن تكون أسهل وأجمل مما هي عليه في صباح كهذا الصباح. فقد صحوت على أشعة الشمس التي كانت تنفذ من زجاج النافذة، بينما كانت الطيور تصدح بسعادة على الأشجار في الخارج. وكان جوناثان يضع الخبز والحليب على الطاولة لإفطارنا. وبعد أن فرغنا من الإفطار خرجنا لإطعام الأرانب. ثم قام كل منا بتنظيف جواده وإعداده. ومن ثم امتطيناهما وانطلقنا نعدو بهما. وكان الندى يلمع ويتلألأ على العشب في كل مكان، بينما كان النّحل يرسل طنينه من على براعم الكرز. ومضينا نعدو بجوادينا دون أن يخامرنا

الخوف بأن هذه الحياة الرائعة يمكن أن تتوقف فجأةً، كما تنتهي الأشياء الجميلة في العادة.لا، إن هذا لا يحدث في نانجيالا! على الأقل، ليس هنا في «وادي الكرز!»

وهكذا مضينا نتجول راكِبَيْن عبر المروج هنا وهناك كما يتفق لنا. ثم سرنا مع اتجاه الجدول. وكنا نتفتّل وندور بالجوادين بين الفينة والأخرى. وفجأةً تبدّى لنا دخان الصباح من القرية التي تقع أسفل الوادي. شاهدنا القرية يغلفها الدخان أولاً، ثم تكشفت لنا القرية كلها ببيوتها القديمة ومزراعها. سمعنا صياح الديكة ونباح الكلاب وثغاء الغنم والماعز. وكانت في مجموعها توحي بابتداء الصباح. لقد كانت القرية تستيقظ من النوم في تلك الساعة.

وبرزت لنا امرأة مقبلة نحونا وهي تحمل سلتها. كانت امراة ريفيّة ليست بالعجوز ولا بالفتاة الصغيرة، وإنما بين هذه وتلك. وكانت ذات بشرة داكنة بتأثير الخروج في كل أنواع الطقس كما يبدو. وكانت ترتدي ثياباً من الطراز القديم الذي يذكرنا بثياب النساء في قصص الملاحم والأساطير القديمة.

خاطبت المرأة جوناثان قائلةً مع ابتسامة وديّة: «آه يا جوناثان. هذا أخوك إذن قد وصل أخيراً، أليس كذلك؟»

أجاب جوناثان:«نعم. لقد وصل منذ وقت قصير.» قال ذلك بلهجة تدلّ على سعادته. ثم تابع قائلاً لي:«رسكي، هذه هي صوفيا.»

هزت صوفيا رأسها وقالت تخاطبني:«نعم، أنا صوفيا. إنني سعيدة بلقائك. والآن تستطيعان أخْذَ السلّة بنفسيكما.»

تناول جوناثان السلّة منها فوراً فيما بدا أنه كان معتاداً على ذلك دون أن يحتاج إلى السؤال عن محتويات السلّة.

ثم قالت صوفيا لجوناثان: «سوف تحضر أخاك معك إلى «الديك الذهبي الصغير» هذا المساء، لكي يتعرف الجميع إليه. أليس كذلك؟»

وأجاب جوناثان بأنه سيفْعل. ثم ودعنا المرأة وانطلقنا عائدين على جوادينا. وسألت جوناثان عما يعنيه «الديك الذهبي الصغير»، فأجاب:

«إنها حانة الديك الذهبي الصغير - الحانة التي تقع في القرية. إننا نلتقي هناك في العادة ونتحدث عن كل ما يقع لنا.»

توقعت أنه سيكون من الممتع حقاً أن أذهب مع جوناثان إلى حانة «الديك الذهبي الصغير» في ذلك المساء لأتعرّف طبيعة الناس الذين يقطنون «وادي الكرز». أردت أن أعرف كل شيء عن «وادي الكرز» ونانجيالا. وكنت أريد أن أرى فيما إذا كانت الأمور هنا تطابق ما كان جوناثان قد قاله لي عنها. ثم خطر لي أمر في طريق عودتنا فذكرّت به جوناثان. قلت:

«جوناثان! لقد قلت لي يوماً إن الإنسان في نانجيالا يقضي النهار والليل في مغامرات متّصلة. هل تذكر ذلك؟ ولكني أرى الأمور هنا هادئة جداً ولا أثر لشيء من تلك المغامرات التي حدّثتني عنها.»

ضحك جوناثان وقال:

«لقد وصلت البارحة فقط، لا تنسَ هذا. لم تقض بعد من الوقت ما يكفي لترى شيئاً كثيراً. سيكون هناك وقت كافٍ للمغامرات فيما أعتقد.»

بعد أن أمعنت التفكير في الأمر قليلاً، وجدت أنه يكفيني من المغامرات

والمتعة الرائعة ما حصل لي حتى الآن مع وجود مزرعة الفرسان وهذين الجوادين وتلك الأرانب. إنني لا أحتاج إلى مزيد من المغامرات.

ثم أرسل جوناثان إليّ نظرة غريبة، وبدا كأنه يشعر نحوي بالاشفاق، وقال:

«هل ترى يا رسكي؟ كنت أتمنّى لو كانت الأمور كلهّا كذلك حقاً، ولكن لا بد أن تعلم أن بعض المغامرات التي تحدث هنا هي من النوع الذي يجب ألاّ يحدث.»

حين وصلنا البيت، قام جوناثان باستخراج محتويات السّلة ووضعها على الطاولة. كان هناك رغيف من الخبز وزجاجة حليب وعلبة زجاجية صغيرة من العسل، وأربع فطائر.

سألت مندهشاً: «هل صوفيا هي التي تزودنا بالطعام دائماً؟» ولم أكن قد فكرت سابقاً بكيفية حصولنا على الطعام.

أجاب جوناثان: «إنها تفعل هذا في بعض الأحيان.»

سألت من جديد: «مجاناً؟»

أجاب جوناثان: «مجاناً. نعم، يمكنك أن تقول هذا على نحوٍ ما. كل شيء هنا في «وادي الكرز» يأتي مجاناً. يعطي بعضنا بعضاً ويساعد بعضنا بعضاً، على وفق الحاجة.»

قلت: «وهل تعطي صوفيا شيئاً في المقابل؟»

ضحك جوناثان من جديد وقال: «نعم إنني أفعل ذلك بالتأكيد. فأنا أوفّر لها السماد لأحواض زهورها من زبل الحصان، إضافةً إلى أشياء أخرى كثيرة. وأنا كذلك أعتني لها بأحواض الزهور. كل ذلك بالمجان.»

ثم أضاف بصوت خفيض لا يكاد يُسمع: «في الحقيقة، إنني أفعل لها أشياء كثيرة أخرى.»

وهنا رأيته يستخرج من السلّة شيئاً آخر: ورقة صغيرة ملفوفة. فتح الورقة وقرأها، ثم قطّب جبينه كما لو أنه قرأ شيئاً لا يسرّ البال، إلاّ أنه لم يقل شيئاً. ولم أرغب من جهتي في السؤال عن الموضوع. فقد قدّرت أنه سيخبرني بما جاء في الورقة عندما يقرّر ذلك.

كانت هناك خِزانة في إحدى زوايا المطبخ. وفي ذلك المساء الأول الذي قضيته في «مزرعة الفرسان» أخبرني جوناثان أن الخزانة تحتوي على درج سرّي، وأنّه ليس بإمكان أحد أن يكتشفه أو يفتحه إن لم يكن على علم مسبق بالطريقة السريّة لعمل ذلك. وبالطبع كنت أرغب في أن أرى ذلك الدرج السريّ فوراً، إلاّ أن جوناثان قال: «في وقت آخر، يجب أن تنام الآن.»

عندئذ ذهبت في النوم ونسيت كل شيء عنه. ولكنني تذكرته الآن من جديد حين رأيت جوناثان يتجه إلى الخزانة، وسمعت بعض «الطرقعات». ولم يكن من الصعب أن أخمّن ما يفعل. لقد كان يخفي تلك الورقة في الدرج السريّ، ثم أغلق الخزانة بالقفل، ووضع المفتاح في هاون قديم يوجد على رف عالٍ في المطبخ.

بعدئذٍ خرجنا للسباحة بعض الوقت. وقمت بالقفز في الماء من على الجسر! تخيّل أنني جرؤت على هذا! ثم صنع لي جوناثان عصا للصيد كتلك التي له. وصدنا من السمك ما يكفي لعشائنا. أما أنا فقد صدت سمكة واحدة ممتازة، وأما جوناثان فقد اصطاد اثنتين. طبخنا السمكات على موقد

النار الكبير في قدر يُعَلَّق فوق النار بسلسلة من الفولاذ. وبعد أن أكلنا قال جوناثان:

«سنرى الآن يا رسكي قدراتك في الرماية. وسوف تحتاج إلى ذلك بعض الأحيان.»

وهكذا صحبني إلى الإسطبل. وفي غرفة العُدّة كان هناك قوسان معلقان. وقد تبيّنت أن جوناثان هو الذي أعدهما. فلطالما كان يصنع الأقواس للأطفال في البلدة التي كنا نعيش فيها. ولكنَّ هذين القوسين كانا أكبر وأكثر إتقاناً. لقد كانا قوسين رائعين حقاً.

وضعنا هدفاً للتسديد على باب الإسطبل ورمينا طوال العصر. وقد علّمني جوناثان كيف أفعل. رميت بمهارة، ولكنّ جوناثان كان أبرع مني بالتأكيد، فقد كان يصيب عين الهدف في كل مرّة يسدّد فيها.

والطريف، أنه على الرغم من أن جوناثان كان يفعل كل شيء ببراعة تفوق مهارتي بكثير، إلاّ أنه لم يكن يرى في مهاراته شيئاً خارقاً للعادة. فهو لم يكن يتباهى إطلاقاً، وإنما كان يؤدّي العمل بعفويّة تامّة. بل كنت أشعر أحياناً بأنه يتمنّى لو كنت أمهر منه. لقد أصبت عين الهدف مرّة واحدة، وبدا هو سعيداً بذلك. وكأنه قد جاءني بهديّة خاصة.

عندما اقترب المساء، قال جوناثان إن الوقت قد حان للمضي إلى حانة «الديك الذهبي الصغير». وهكذا صفرنا لجوادينا غريم وفيالار. إننا في العادة نتركهما يرتعان بحريّة في المروج الخضر. وكان يكفي أن نصفر لهما لكي يعودا راكضين بسرعة عبر البوابة. قام كل منا بتثبيت السرج على ظهر حصانه ثم ركبنا وانطلقنا بلا عجلة نحو القرية.

فجأة شعرت بالخوف والخجل، فأنا لم أعتد مخالطة الناس لا سيّما سكان نانجيالا. وأخبرت جوناثان بذلك.

قال جوناثان: «ما الذي تخشاه؟ لا أحد هنا يمكن ان يسبب لك الأذى.»

قلت: «لا. ولكن ربّما سخروا مني.»

وشعرت فوراً بأن تصوّري هذا في غير محلّه، إذ لا سبب يجعلهم يسخرون منّي. ولكني اعتدت على تخيّل الأشياء هكذا.

ثم قال جوناثان: «أعتقد أن علينا منذ الآن أن ندعوك كارل، طالما اسمك الأخير قد صار ليونهارت. أما رسكي ليونهارت فيمكن بالفعل أن يثير الضحك والسخرية. لقد جعلك أنت تنفجر في ضحك طويل. وأنا كذلك.»

نعم، إنني أرغب أشدّ الرغبة في أن أدعى كارل منذ الآن. فلا شك أنه يناسب اسمي الأخير. ورفعت صوتي لأجرّب وقع الاسم الجديد: «كارل ليونهارت. كارل وجوناثان ليونهارت.» لقد كان للإسم وقع جميل.

وعلّق جوناثان: «ومع ذلك ستبقى بالنسبة إليّ رسكي الحبيب كما كنت دائماً. أليس كذلك يا صغيري كارل؟»

وما لبثنا حتى وصلنا القرية ودخلنا طرقاتها على جوادينا. ولم يكن من الصعب أن نعرف طريقنا، فقد كان بإمكاننا أن نسمع أصوات الضحك والكلام من مسافة طويلة. ثم رأينا العلامة مع صورة ديك مذهّب صغير. نعم، هنا توجد حانة «الديك الذهبي الصغير» التي تذكر بتلك الحانات الأليفة التي كنا نقرأ عنها في الكتب. كانت الأضواء تشع برقّة ودفء عبر

النوافذ. وشعرت بأنني على وشك أن أدخل في تجربة جديدة، إذ إنني لم أجرِّب هذا الموقف من قبل.

ولكنا اتجهنا أولاً إلى الساحة حيث ربطنا الجوادين غريم وفيالار إلى جانب عدد كبير من الجياد الأخرى التي كانت تقف مربوطةً هناك. لقد كان جوناثان محقاً حين تحدث عن حاجة الإنسان الماسّة إلى حصان في نانجيالا. أعتقد أن كل إنسان في وادي الكرز قد جاء راكباً على حصانه إلى حانة الديك الذهبي الصغير في ذلك المساء. وعندما دخلنا وجدنا الغرفة مكتظة بالناس: رجال ونساء، كبار وصغار. كل أهل القرية كانوا هناك يجلسون ويتحادثون ويستمتعون بالوقت، إلاّ أن بعض الأطفال الصغار كانوا قد ذهبوا في النوم في أحضان آبائهم وأمهاتهم.

وحين رأونا بدت البهجة على الجميع. وصاحوا:

«جوناثان! ها هو جوناثان!»

أما صاحب الحانة الذي كان رجلاً ضخماً طويلاً وسيماً أحمر الخدّين، فقد صاح بصوت مرتفع لكي يُسْمِعَ الآخرين على الرغم من الضجيج:

«ها هو جوناثان! لا، بل هذان هما الأخوان ليونهارت معاً. ياللروعة! كلاهما هنا.»

وتقدم نحونا ورفعني فوق الطاولة لكي يشهدني الجميع. وقفت هناك وأنا أحسّ أن وجهي قد اكتسى كلّه بحمرة الخجل.

ولكن جوناثان قال:

«هذا هو أخي الحبيب كارل ليونهارت الذي وصل أخيراً. عليكم جميعاً





أن تكونوا لطفاء معه مثلما أنتم معي تماماً.»

قال صاحب الحانة: «لا شك في ذلك.» ثم رفعني من جديد ليضعني على الأرض، ولكن قبل أن يتركني شدّني بين ذراعيه بعض الوقت، وشعرت بمدى قوته، وقال لي:

«نحن الاثنان سنكون صديقين كما هو الحال بيني وبين جوناثان. اسمي جوسي، على الرغم من أنني أدعى غالباً: الديك الذهبي الصغير. وبإمكانك أن تأتي إلى حانة الديك الذهبي الصغير متى شئت، لا تنس ذلك يا كارل ليونهارت.»

كانت صوفيا تجلس هناك أيضاً وحدها أمام إحدى الطاولات. وهكذا انضممت مع جوناثان إليها. كانت سعيدة بذلك كما اعتقد. ابتسمت لنا برقّة وسألتني عن رأيي بحصاني. ثم تساءلت عمّا إذا كان جوناثان يستطيع أن يأتي لمساعدتها في حديقتها يوماً ما. ولكنها ما لبثت أن ذهبت في صمت عميق، ولاحظت أن شيئاً ما يقلقها. ولاحظت شيئاً آخر كذلك. كان جميع الجالسين هناك ينظرون إلى صوفيا باحترام خاصّ. وكلما وقف أحدهم ليغادر المكان كان ينحني أمام طاولتنا أولا انحناءة احترام، وكأن هناك شيئاً خاصّا يتعلق بتلك السيّدة، على الرغم من أنني لم أكن أعرف السبب في ذلك.كانت تجلس هناك بثيابها البسيطة، وتضع شالاً على رأسها بينما كانت تريح يديها الخشنتين السمراوين على حجرها. وكانت تبدو في مظهرها ذاك كأي امرأة ريفيّة عاديّة. فما الذي كان يميز تلك المرأة عن الآخرين؟

كانت الجلسة ممتعة حقاً في الحانة. غنينا الكثير من الأغاني. كنت أعرف

بعض تلك الأغاني مسبقاً، وكنت أجهل الباقي تماماً، ولكن الكل كان سعيداً. أو هكذا يبدون في الظاهر. ففي بعض الأحيان كنت أشعر أنَّهم يخفون متاعب سريّة مثل صوفيا. وبدا لي أن أفكارهم تتجه أحياناً إلى أمر آخر - أمر يثير مخاوفهم. ولكن جوناثان كان قد أخبرني أن الحياة سهلة وهيّنة هنا في وادي الكرز»، فما الذي يمكن أن يخيفهم إذن؟ على أية حال، كانت السعادة تطغى عليهم بين الوقت والآخر. فقد كانوا يغنون ويضحكون. وبدا أنهم جميعاً أصدقاء ومتحابّون. ولكني أعتقد أنهم كانوا يحبّون جوناثان أكثر من أي شخص آخر. وأعتقد انهم كانوا يحبّون صوفيا بصفة خاصّة كذلك.

حين خرجنا أخيراً من الحانة ودخلنا الساحة لأخذ الجوادين سألت:

«جوناثان! ما الذي يميّز صوفيا؟»

وهنا سمعنا صوتاً في عتمة المكان يقول:

«بالضبط. ما الذي يميّز صوفيا حقاً؟ لطالما تساءلت عن هذا؟»

كانت الساحة معتمة فلم أتبين صاحب الصوت. ولكنه تقدّم فجأة إلى دائرة الضوء، وبهذا ميّزت الرجل. فقد كان يجلس إلى جانبنا في الحانة. وهو رجل ذو شعر متموّج أحمر ولحية صغيرة حمراء. لقد لاحظته بصورة خاصّة لأنه كان يجلس صامتاً ينظر متفحّصاً طوال الوقت من غير أن يشارك في الغناء.

سألت جوناثان بينما كنا نخرج من باب الساحة على جوادينا:

«من هذا؟»

أجاب جوناثان: «اسمه هربرت، وهو يعلم تماماً ما الذي يميز صوفيا.»

ثم انطلقنا عـائدين إلى بيـتنا . كـانت ليلة باردة وكـانت السـمـا ء صـافـيـة ومـرصّـعـة بالنجـوم. بل إنني لـم أشـهـد في حـيـاتي هذا العـدد الهـائل من النجوم. كما أنني لم أرَ نجوماً في مثل بريقها الوهّاج. وقد حاولت أن أعين من بينها كوكب الأرض. ولكن جوناثان قال:

«إن كوكب الأرض يسبح في أطراف الكون الفسيح، وليس بإمكانك أن تــراه مــن هــنــا . »

وقد أثـار هذا في نفسي بعض الحـزن.

الفصل الخامس

وأخيراً جاء اليوم الذي عرفت فيه الحقيقة عن صوفيا.

ففي صبيحة أحد الأيام قال جوناثان: «سنذهب اليوم إلى ملكة الحمائم.»

قلت: «رائع. ولكن، من هي تلك الملكة؟»

قال جوناثان: «إنها صوفيا. ولكنني أحب أن أناديها بملكة الحمائم.»

فيما بعد عرفت لماذا تدعى صوفيا بملكة الحمائم.

كانت المسافة طويلة إلى مزرعة الزنابق حيث تقيم صوفيا في بيت يقع على أطراف وادي الكرز وتنتصب خلفه الجبال العالية. وصلنا إلى هناك في الصباح. وكانت صوفيا تطعم الحمائم البيضاء الناصعة. وعندما رأيت تلك الحمائم تذكرت تلك الحمامة البيضاء التي وقفت على حافة نافذتي قبل ألف سنة على الأقلّ!

همست في أذن جوناثان قائلاً: «هل تذكر؟ أليست واحدة من هذه الحمائم هي التي حملت روحك إليّ عندما جئتني في ذلك الزمان؟»

قال جوناثان: «بلى. كيف كان يمكن لي أن أفعل ذلك بدونها. حمائم صوفيا وحدها هي التي تستطيع قطع تلك المسافة الطويلة.»

بدت الحمائم حول صوفيا كالغمائم البيض بينما كانت صوفيا تقف في وسطها محاطة بالأجنحة المرفرفة. كانت حقاً تبدو ملكةً للحمائم. وعندما شاهدتنا حيّتنا بلطف كالعادة، إلاّ أن مسحة من الحزن كانت باديةً على وجهها. وفور وصولنا قالت لجوناثان: «وجدت فيولانتا ميّتةً في الليلة الماضية وقد انغرز سهم في صدرها، ولم أجد معها الرسالة التي كانت تحملها.»

أظلمت عينا جوناثان. لم أره من قبل في مثل هذه الحالة من المرارة



والأسف حتى كأني لم أعد أميِّز شكله وصوته.

قال: «هذا يؤكد ظنّي السابق. هناك خائن في وادي الكرز.»

قالت صوفيا: «نعم، أعتقد ذلك. لم أكن أريد التصديق قبل الآن. ولكني أرى الآن أن ذلك لا بدّ أن يكون صحيحاً.»

بدا الحزن واضحاً عليها، ولكنها التفتت نحوي وقالت: «تعال يا كارل! يجب أن تأتي وتلقي نظرةً على المكان، على الرغم من كل شيء.»

كانت تعيش بمفردها في مزرعة الزنابق مع حمائمها. وكانت تربّي النحل والماعز كذلك في حديقتها المكتظة بالأزهار.

وبينما كانت صوفيا ترافقني في المكان، بدأ جوناثان يحرث التربة وينظفها من الأعشاب.

نظرت إلى كل شيء: بيوت النحل والزنابق والأقحوان والنرجس والماعز. كان كل ذلك رائعاً حقاً، إلاّ أنني بقيت أفكر بفيولانتا وأتساءل: من هي هذه التي اخترقها السهم في أعلى الجبال؟!

ثم عدنا إلى جوناثان الذي كان راكعاً على ركبتيه منهمكاً في تعشيب الأرض حتى اسودّت أصابعه. نظرت صوفيا اليه دون أن يفارقها الحزن وقالت: «اسمع يا مزارعي الصغير! أرى أنك ستنهمك قريباً في عمل من نوع آخر.»

قال جوناثان: «نعم. أرى ذلك أيضاً.»

مسكينة صوفيا! كان القلق البادي عليها أكبر من أن تستطيع إخفاءه عنا. مشت قليلاً وأرسلت نظرة بعيدة نحو الجبال وقد بدأ قلقها الظاهر ينتقل إليّ. ما الذي كانت تتطلع اليه؟ ما الذي كانت في انتظاره؟ سرعان ما عرفنا حين قالت صوفيا فجأةً:

«ها هي هناك! الحمد لله، تلك هي بالوما!»

كانت إحدى حمائمها تطير قادمة نحوها. ظهرت في البداية مثل بقعة صغيرة، وما لبثت أن وصلت واستقرّت على كتف صوفيا.

قالت صوفيا بسرعة: «هيّا يا جوناثان!»

قال جوناثان: «أجل. ولكن رسكي - أعني كارل، ألا ينبغي أن يطّلع

على كل شيء الآن؟»
قالت صوفيا: «بالطبع. أسرعا الآن - كلاكما.»
سبقتنا صوفيا إلى المنزل والحمامة ما تزال على كتفها. قادتنا إلى غرفة صغيرة تابعة للمطبخ، ثم أقفلت الباب وأسدلت الستائر. يبدو أنها كانت حريصة كل الحرص على ألاّ يعرف أحد ماذا تفعل.
خاطبت صوفيا حمامتها قائلةً: «بالوما يا حمامتي العزيزة! هل لديك اليوم رسالة أفضل من الرسالة الأخيرة التي جئت بها ؟»
دسّت صوفيا يدها تحت أحد جناحي الحمامة، واستخرجت لفافة صغيرة. فَضّتها وأخرجت منها ورقة ملفوفة صغيرة كتلك التي رأيت جوناثان يخرجها من السلّة ويخفيها في الدرج السرّي في البيت.
قال جوناثان: «هيا اقرئيها بسرعة، بسرعة، بسرعة!»
قرأت صوفيا وأطلقت صرخة مكتومة. ثم قالت: «لقد أخذوا أورفار أيضاً. لم يعد هناك الآن من يستطيع عمل أيّ شيء.»
ناولت جوناثان الورقة. قرأها فأظلمت عيناه هذه المرّة أكثر من السابق.
علّق جوناثان بغضب: «هناك خائن في وادي الكرز. من يكون ذلك الحقير؟!»
قالت صوفيا: «لا أعرف. لا أعرف حتى الآن. ولكن سيرى ما أفعل به حين أعرفه.»
كنت أجلس هناك أستمع من غير أن أفهم شيئاً.
تنهّدت صوفيا وقالت: «عليك أن تخبر كارل. أما أنا فسأذهب لأحضر

إفطاراً.»

اختفت صوفيا داخل المطبخ، وجلس جوناثان مسنداً ظهره إلى الحائط. جلس هناك صامتاً أوّل الأمر وهو يتأمل أصابع يديه الملطّخه بالرمل. ولكنه قال أخيراً:

«لا بأس. سأخبرك الآن - الآن بعد أن أذنت صوفيا بذلك.»

كان قد حدثني كثيراً عن نانجيالا قبل أن آتي اليها وبعد ذلك. ولكنْ، لا شيء مثل الذي حدّثني به في غرفة صوفيا في تلك الساعة.

قال: «هل تذكر عندما قلت لك إن الحياة هنا في وادي الكرز هيّنة وبسيطة؟ هكذا كانت دائماً وهكذا يجب أن تبقى. ولكن لا يبدو أنها ستبقى هكذا بعد الآن؛ إذ إنه إذا كانت الحياة تَعسةً وصعبة هناك في الوادي الآخر، فلا بدّ أن تصبح كذلك في واديِ الكرز أيضاً. هل ترى هذا؟»

سألت: «وهل يوجد أكثر من وادٍ في نانجيالا؟» وهنا أخبرني جوناثان أنه يوجد في نانجيالا واديان أخضران: وادي الكرز ووادي الوردة البريّة، تحيط بهما جبال شاهقة، جبالٌ متوحّشة يصعب على الإنسان اجتيازها إذا لم يكن على علم مسبق بمراتها ومسالكها المتعرّجة الملتوية الضيّقة الخطرة. ولكنّ سكان الواديين يعرفون تلك الممرات ويمكنهم التنقل بحرّية عبرها للتزاور والالتقاء.

ثم أردف جوناثان قائلاً: «بل الأصح أنه كان باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك سابقاً. أمّا الآن فلا يستطيع أحد مغادرة وادي الوردة البريّة أو دخوله باستثناء حمائم صوفيا.»

سألت: «لمـاذا؟»

أجاب جوناثان: «لأن وادي الوردة البريّة لم يعد حراً مستقلا، فقد وقع في يد الأعداء.»

نظر جوناثان إليّ وبدا أنه يشعر بالأسف لأنه أثار الخوف في نفسي.

ثم تابـع قائـلاً: «ولا أحـد يعـرف مـاذا يمكـن أن يحـدث لـوادي الكـرز نفســه.»

كنت قبل تلك اللحظة أشعر بالطمأنينة والأمان في نانجيالا ولا يخامرني أي شعور بالخطر. أما الآن فقد بدأت أشعر بخوف حقيقي.

ثم سألت: «من هو ذلك العدو؟»

قال جوناثان: «اسمه تنغل.» نطق اسمه بأسلوب يوحي بالخطر ويدلّ على الرعب الذي يثيره ذلك الاسم.

قلت: «أين يقيم تنغل ذاك؟»

وهنا حدّثني جوناثان عن كارمانياكا - البلد الذي يقع في أعلى مرتفعات الجبال القديمة، خلف نهر الأنهار القديمة، حيث يقيم الشيطان الطاغية تنغل ويمارس سلطته. ازداد خوفي ولكني حاولت إخفاء ذلك. وسألت:

«لماذا لا يمكث هناك في الجبال القديمة؟ لماذا يجب أن يأتي إلى نانجيالا ليدمّر كل شيء؟»

قال جوناثان: «ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال. أنا لا أعرف الجواب. ولكن، هكذا هو على كل حال. إنه يحسد سكان نانجيالا على حياتهم ويطمع فيما يملكون. وهو كذلك يحتاج إلى عبيدٍ يسخّرهم لمصالحه.»

ثم جلس صامتاً وأخذ يحدّق بيديه، ولكنه غمغم ببعض الكلمات التي وصلت إلى سمعي: «الوحش يمتلك كاتلا أيضاً!»

كاتلا! لا أدري لماذا بدا لي الاسم مثيراً للرعب أكثر من أي شيء آخر قاله.

سألته ثانيةً: «ما هي كاتلا؟»

هزّ جوناثان رأسه وقال: «لا يا رسكي. أعرف أنك خائف بما فيه الكفاية. لا أريد أن أزيد مخاوفك بالحديث عن كاتلا. أخشى ألاّ تستطيع النوم هذه الليلة.»

بدلاً من ذلك حدّثني عن صوفيا وعن العمل المميّز الذي تقوم به.

قال جوناثان: «صوفيا تقود النضال السريّ ضد تنغل. إننا نعمل على مقاومته لمساعدة وادي الوردة البريّة. ولكن يجب أن نفعل ذلك سرّاً.»

قلت: «ولكن، لماذا صوفيا فقط.»

قال جوناثان: «لأنها قوية وتعرف عن مثل هذه الأمور. ولأنها لا تعرف الخوف أبداً.»

قلت: «الخوف! ولكنك أنت أيضاً لا تعرف الخوف يا جوناثان. أليس كذلك؟»

فكّر قليلاً ثم أجاب: «صحيح. أنا أيضاً لست خائفاً.»

آه، كم تمنيت أن أكون شجاعاً مثل صوفيا وجوناثان. ولكني بدلاً من ذلك جلست هناك والرعب يسيطر عليّ حتى لم أعد قادراً على التفكير.

سألت: «هل يعرف الجميع عن موضوع صوفيا وحمائمها التي تطير بالرسائل السريّة عبر الجبال؟»

أجاب جوناثان قائلاً: «فقط أولئك الذين نثق بهم ثقة تامّة. ولكنْ، يوجد بينهم خائن واحد.»

هنا أظلمت عينا جوناثان من جديد وقال بحزن: «كانت الحمامة فيولانتا تحمل رسالة سريّة من صوفيا حين رميت بالسهم الليلة الماضية. فإذا وقعت الرسالة بيد تنغل فمعنى ذلك أن كثيراً من الناس سيموتون هناك في وادي الوردة البريّة.»

ما أقسى أن يقوم إنسان بقتل حمامة بريئة ناصعة البياض، حتى لو كانت تحمل رسالة سريّة!

فجأة تذكرت خزانة الحائط في بيتنا، فسألت جوناثان:

«لماذا تحتفظ بالرسائل السريّة في خزانة الحائط في بيتنا. ألا يشكّل هذا خطراً؟»

أجاب جوناثان: «بلى إنه يشكل خطراً. ولكنَّ الخطر سيكون أعظم لو احتفظنا بها عند صوفيا. فأول مكان يمكن أن يفتشه جواسيس تنغل إذا أتوا وادي الكرز هو بيت صوفيا، لا بيت الصبيّ المزارع الذي يعمل في حديقتها.»

كان هذا أمراً جيداً كما قال جوناثان. فلا أحد يتوقّع أنَّ صوفيا تعرف حقيقته، وتعرف أنه ليس مجرد الجنائني العامل في حديقتها، بل هو كذلك أقرب الناس إليها في الصراع ضدّ تنغل.

قال جوناثان: «صوفيا قررت ذلك بنفسها. إنها لا تريد أن يعرف أحد من الناس هنا في وادي الكرز بالحقيقة. ولذا فإنَّ عليك أن تقسم على كتمان السرّ حتى يأتي اليوم الذي تعلن فيه صوفيا ذلك على الملأ.»

وهكذا أقسمت على أنني أفضل الموت على أن أبوح بشيء مما سمعت وأخون القضيّة العادلة.

تناولنا طعام الافطار على مائدة صوفيا ثم انطلقنا عائدين إلى بيتنا. ولكنّا صادفنا شخصاً آخر راكباً على حصانه في ذلك الصباح حينما كنا نغادر مزرعة الزنابق. إنه الرجل ذو اللحية الحمراء - ما اسمه؟ آه - هربرت.

قال هربرت: «آه، إذن كنتما في زيارة صوفيا. ما الذي كنتما تفعلانه عندها؟»

أجاب جوناثان وهو يرفع يده الملطخة بالوحل: «كنا نعمل على تعشيب المزرعة. وأنت؟ هل أنت خارج للصيد؟» سأله جوناثان هذا لأنه رآه يصطحب معه قوسه.

أجاب هربرت: «نعم، أريد أن أصطاد بعض الأرانب.»

وذهب تفكيري إلى الأرانب الصغيرة في بيتنا، وأسعدني أن أرى هربرت يحث حصانه مبتعداً حتى يغيب عن بصري.

قلت لجوناثان: «ما رأيك بهربرت هذا؟»

فكّر جوناثان قليلاً ثم قال: «إنه أبرع فرسان وادي الكرز كلّه» ولم يقل شيئاً آخر، وإنما حثّ حصانه وتابعنا الطريق.

كان جوناثان قد أخذ معه رسالة بالوما وأخفاها في حقيبة جلديّة صغيرة تحت قميصه. وعندما صرنا داخل البيت أخفاها في الدرج السرّي في خزانة الحائط. ولكنه سمح لي قبل ذلك أن أقرأ ما فيها، وكان نصها يقول:

«قُبض على أورفار في الأمس وسُجن في كهف كاتلا. لا بدّ أن شخصاً ما في وادي الكرز قد كشف مخبأه. يوجد بينكم خائن. عليكم أن تكتشفوه.»

علّق جوناثان قائلاً: «خائن بيننا! ليتني أستطيع اكتشافه!»

كانت الرسالة تشمل المزيد من الكلام، ولكنه كان مكتوباً بلغة سريّة لم أفهمها. وقد قال جوناثان إنه لا حاجة لي بمعرفتها. إنها معلومات يجب أن تطلع عليها صوفيا بصورة خاصّة.

ولكن جوناثان علّمني كيف أفتح الدرج السريّ، وسمح لي بأن أفتحه وأغلقه مرّات عدّة. ثم أغلقه بنفسه وأحكم قفل خزانة الحائط ووضع المفتاح في الهاون.

قضيت ذلك النهار أفكر بما سمعته، ولم أتمكن من النوم العميق في تلك الليلة. حلمت بتنغل والحمامة الميّتة وسجين كهف كاتلا. وبكيت في منامي حتى أنني صحوت من النوم.

عندئذٍ - صدّق أو لا تصدّق - رأيت شخصاً ما يقف في الركن المظلم قريباً من خزانة الحائط. وعندما صرخت سارع إلى الهروب والاختفاء عبر الباب مثل شبح مظلم، قبل أن أتمكن من استعادة وعيي الكامل من آثار النوم.

حدث كل ذلك بسرعة كبيرة حتى أنني بدأت أشك في أن ذلك كان جزءاً من الحلم. ولكنّ جوناثان كان له رأي آخر حين أخبرته بالحادث، إذ قال:

«لا يا رسكي. ذلك لم يكن حلماً. لم يكن حلماً أبداً، بل هو الخائن!»

الفصل السادس

قال جوناثان: «لا بدّ أن تأتي نهاية تنغل في يوم من الأيام.»

كنا نجلس على العشب الأخضر إلى جانب الجدول. وكان الصباح رائعاً لا تصدّق معه أنه يوجد في الكون شرور أو طاغية مثل تنغل. كان كل شيء هادئاً من حولنا فلا نسمع غير خرير الماء. وكان من الجميل أن نستلقي هناك على ظهرينا وننظر في السماء الصافية إلاّ من بعض الغيوم البيضاء الصغيرة. إن في وسع الإنسان أن يمضي الوقت هكذا مسترخياً ويدندن بأغنية لطيفة لنفسه دون أن يزعجه شيء.

ولكن جوناثان بدأ يتحدث فجأة عن تنغل. لم أكن راغباً في تذكّره، إلاّ أنني مع ذلك قلت:

«ماذا تعني بقولك إن نهاية تنغل لا بدّ أن تأتي في يومٍ ما؟»

أجاب جوناثان: «أعني أنه سيحدث له ما يحدث لكل الطغاة من أمثاله في وقت ما، أي أنه لا بدّ أن يُسحق كالحشرة وينتهي إلى الأبد.»

قلت: «أرجو أن يحدث هذا قريباً.»

غمغم جوناثان بصوت خفيض وقال: «إلاّ أنه قويّ. وهو يمتلك كاتلا.»

لقد عاد جوناثان ليذكر ذلك الاسم الرهيب. أحببت أن أسأله عن كاتلا، إلاّ أنني توقفت عن ذلك، إذ إنني لم أرغب في أن أفسد على نفسي ذلك الصباح الرائع.

ولكن جوناثان تابع الكلام وأسمعني ما هو أسوأ من كل شيء آخر:

«إسمع يا رسكي! سوف يكون عليك أن تمكث وحدك في مزرعة الفرسان لمدّة معيّنة، إذ عليَّ أن أذهب إلى وادي الوردة البريّة.»

كيف يمكن له أن يقول شيئاً بهذه القسْوة؟ كيف يخطر في باله أنني مستعد للبقاء وحدي في مزرعة الفرسان دقيقة واحدة بدونه؟ إذا كان ينوي أن يغامر بحياته مع تنغل فإنني أريد أن أكون معه. وقد أخبرته بهذا.

أرسل إليّ نظرة غريبة وقال:

«رسكي! أنت أخي الوحيد، وأريد أن أحميك من الشرور جميعها. كيف تطلب مني أن أصحبك معي في أمر شديد الخطورة أحتاج معه إلى كلّ قوتي؟»

لم يكن هذا الكلام مطمئناً أبداً، فقد شعرت بالحزن والغضب وأخذت أغلي من الداخل، وصرخت قائلاً:

«وماذا عنك أنت؟ كيف تطلب مني أن أمكث في مزرعة الفرسان منتظراً إياك بينما أنت غائب في مغامرة قد لا تعود منها؟»

وتذكرت فجأةً حالي بعد أن مات جوناثان في الأرض وغادرني وحيداً أمضي الوقت مستلقياً على السرير أفكّر فيه وأتساءل عما إذا كنت سأراه مرّة أخرى. آه، إن مجرد التفكير في الأمر يجعلني أشعر بأنني أحدّق في هوّة مظلمة سحيقة. والآن يريد أن يتركني من جديد ويغيب في عالم من المخاطر التي لا أعرف عنها شيئاً. وإذا لم يعد منها هذه المرّة فسوف أبقى وحيداً إلى الأبد بدون عونٍ ولا سند. وشعرت بالغضب يتصاعد من داخلي، واشتد صراخي في وجهه وتفوّهت بكل ما خطر لي من الكلام

القاسي والشديد.

لم يكن من السهل عليه أن يهدّئ من غضبي، ولو قليلاً. ولكنّ الأمور مضت كما يرغب في النهاية. وكنت أدرك أنه يحسب الأمور ويقدّرها أفضل مني.

في مساء اليوم السابق على مغادرته، وبينما كنا نجلس في المطبخ إلى جانب الموقد، قال لي: «لا تخش شيئاً. سوف أعود إليك مؤكّداً.»

كان غضبي قد سكن، ولكني كنت حزيناً حقاً. وقد أدرك جوناثان ذلك فكان يعاملني بلطف زائد. قدّم لي خبزاً طازجاً مطلواً بالزبد والعسل، وقصّ عليّ الكثير من الحكايات والأساطير، ولكني لم أكن أنصت إليه. فقد كنت منشغلاً بالتفكير في حكاية الطاغية تنغل، وبدأت أعتقد أنها أكثر الحكايات عنفاً وشراسةً. وسألت جوناثان لماذا ينبغي عليه أن يتحمّل تلك المسؤوليّة الخطيرة. أليس في وسعه أن يكتفي بالمكوث في مزرعة الفرسان ويستمتع بحياته؟ ولكن جوناثان أجاب بأن هناك أموراً لا بدّ أن يفعلها الإنسان مهما كانت خطيرة.

سألت: «لماذا؟»

أجاب: «لأنه إن لم يقم الإنسان بمسؤولياته فإنه لا يكون إنساناً حقاً، وإنما يكون شيئاً فاسداً قذراً لا يساوي شيئاً.»

ثم شرح لي العمل الذي ينوي القيام به. إنه ينوي إنقاذ أورفار من كهف كاتلا. إذ أن أورفار هو أهم الشخصيات في الكفاح ضدّ تنغل، بل هو أهم من صوفيا نفسها كما قال جوناثان. وغيابه إلى الأبد قد يعني نهاية وديان نانجيالا الخضراء.

كان الليل قد حلّ، والنار قد بدأت تنخمد.

ثم جاء النهار. ووقفت عند البوابة أراقب جوناثان وهو يبتعد بجواده ويغيب في الضباب. كان الضباب يلفّ وادي الكرز كلّه ذلك الصباح. ويجب أن يصدّقني السامع حين أقول إنني شعرت بقلبي ينكسر وأنا أراه يبتعد ثم يتلاشى في الضباب. وهكذا صرت وحيداً. كان ألمي لا يطاق. شعرت بأنني أكاد أجُنّ من الحسرة والحزن. وأسرعت إلى الاسطبل وأخرجت جوادي فيالار وقفزت عليه وانطلقت به في أثر جوناثان. كنت أريد أن أراه مرّة أخرى قبل أن أفقده إلى الأبد كما كنت أخشى.

كنت أعرف أن عليه أن يعرّج على مزرعة الزنابق أولاً ليتلقّي التعليمات من صوفيا.

وهكذا انطلقت إلى هناك مندفعاً بسرعة جنونية على جوادي، ولحقت به حينما صار خارج المزرعة. عندئذٍ شعرت بالخجل الشديد وتمنيّت لو أختفي من الأرض، إلاّ أنه كان قد أبصرني.

قال: «ما الذي تريد؟»

هه! يسأل عمّا أريد!

لم أعرف ماذا أقول، ولكنني غمغمت قائلاً: «هل أنت متأكد من أنك سوف تعود؟»

حث جواده مقترباً مني حتى صار جواده بمحاذاة جوادي. مدّ يده ومسح عن خدّي بعض الدموع المتساقطة وقال:

«لا تبك يا رسكي! سوف نلتقي من جديد - أعدك بهذا. ولكنْ، إن لم نلتق هنا فسوف نلتقي في نانجيليما.»

سألت: «نانجيليما! ما هذه الأخرى؟»

قال: «سأخبرك في وقت آخر.»

لا أدري كيف احتملت البقاء وحدي في مزرعة الفرسان، أو كيف مرّت بي الأيام هناك. اعتنيت بحيواناتي طبعاً. فقد قضيت معظم الوقت في الإسطبل مع فيالار، وأنفقت أوقاتاً أخرى أحدّثُ أرانبي. كذلك كنت أصطاد السمك أحياناً وأتدرّب على الرمي بالقوس والنشّاب. ولكنَّ كل شيء بدا لي بلا جدوى في غياب جوناثان. وكانت صوفيا تأتيني بالطعام من وقت لآخر، وكنا نتحدث في هذه المناسبات عن جوناثان. وكنت أتمنّى دائماً أن تطمئنني بالقول: «إن جوناثان قادم قريباً»، ولكنها لم تفعل. وكنت أرغب في أن أسألها «لماذا لم تذهب هي لإنقاد أورفار بدلاً من جوناثان.» ولكن، ما جدوى السؤال طالما أنني أعرف الجواب مسبقاً.

كان تنغل يكره صوفيا كما شرح لي جوناثان من قبل عندما حدثني عن أحوال المنطقة. فقد قال: «إن صوفيا في وادي الكرز وأورفار في وادي الوردة البريّة هما ألدّ أعداء تنغل. وهو يعرف ذلك جيداً. لقد نجح حتى الآن في اصطياد أورفار واعتقاله في كهف كاتلا. ويرغب مؤكداً في أن يُلحق صوفيا به هناك ليموتا معاً. لقد أعلن الطاغية جائزة قدرها خمس عشرة حصاناً أبيض لمن يسلّمه صوفيا حيةً أو ميّتة.»

لقد ذكر لي جوناثان هذا، ولذا كنت أعرف لماذا كان يجب أن تبتعد صوفيا عن وادي الوردة البريّة ولماذا يجب أن يذهب جوناثان بدلاً منها. إذ إنّ تنغل لا يعرف شيئاً عنه، أو هكذا كان الاعتقاد. ولكنّ شخصاً ما قد عرف أن جوناثان لم يكن مجرّد جنائنيّ يعمل في حديقة صوفيا ؛ ذلك هو

الشخص الذي تسلّل إلى بيتنا في الليل ولمحته في العتمة يقف قرب خزانة الحائط. وقد جعل ذلك صوفيا تشعر بقلق شديد، فقد قالت:

«ذلك الرجل يعرف أكثر مما يجب.»

وطَلَبَتْ مني أن أخطرها فوراً إذا لمحتُ أحداً يتسلّل إلى مزرعة الفرسان. ذكرت لها أننا قد نقلنا جميع الرسائل السرّية من خزانة الحائط إلى مكان آخر، ولذا فإن من يبحث هناك لن يجد شيئاً. لقد خبأنا الرسائل في صندوق خاصّ أخفيناه تحت الحبوب في السلّة الكبيرة التي نحفظ فيها علف الحصانين.

ذهبت صوفيا معي إلى المخزن واستخرجت الصندوق ووضعت فيه رسائل أخرى. كان ذلك مخبأً ممتازاً في رأي صوفيا وفي رأيي كذلك.

أمضيت أوقاتاً صعبة ولا سيّما في المساء والليل. ورأيت أحلاماً مزعجة عن جوناثان وكان قلقي عليه يزداد في كل لحظة.

في إحدى الأمسيات ركبت حصاني قاصداً حانة الديك الذهبي الصغير، إذ لم أعد أحتمل البقاء وحدي في مزرعة الفرسان حيث الهدوء القاتل الذي لا يترك لي سوى الخواطر المزعجة والأفكار السوداء.

وحين دخلت الحانة وحدي بدون جوناثان، أخذ الجميع يحملقون بي. نعم كلّهم كان ينظر ويحدّق. ثم قال جوسي:

«ماذا الآن؟! لماذا لا نرى غير واحد من الأخوين ليونهارت؟ ماذا فعلت بأخيك جوناثان؟»

كان الموقف صعباً. وتذكرت أوامر صوفيا وجوناثان. مهما حدث، فيجب ألاّ أخبر أحداً عمّا يفعل جوناثان وأين يذهب. يجب ألاّ أخبر أحداً إطلاقاً

كائناً من كان ذلك الشخص. ولهذا تجاهلت سؤال جوسي متظاهراً أنني لم أسمعه. ولكن هربرت كان هناك أيضاً يجلس أمام طاولته. وهو كذلك كان يريد أن يعرف. فقد سأل:

«نعم، أين جوناثان؟ لا يمكن أن تكون صوفيا قد طردته من العمل في حديقتها!»

أجبت: «لقد خرج جوناثان للصيد. إنه الآن في الجبال يصطاد الذئاب.»

كان عليّ أن أقول شيئاً. وقدّرت أن هذا تفسير معقول، فقد كان جوناثان قد ذكر لي أن هناك أعداداً كبيرة من الذئاب تعيش بين الجبال.

لم تكن صوفيا في الحانة ذلك المساء. وفيما عداها كان الجميع هناك كالعادة. أنشدوا أغانيهم واستمتعوا بالوقت كما جرت عادتهم. ولكني لم أشاركهم الغناء لأن الأمور من وجهة نظري لم تكن عاديّة أبداً. بل إن المكان بدا لي موحشاً بدون جوناثان. ولذلك عجّلت بالخروج.

وحين مشيت خارجاً قال جوسي: «لا تكن حزيناً هكذا. فما يلبث جوناثان أن يفرغ من الصيد ويعود إلى البيت.»

آه كم سرّني أن أسمع قوله هذا مما جعلني أكثر حباً له! ربّت على خدّي وأعطاني بعض الكعك اللذيذ قائلاً:

«املأ بطنك بهذا الكعك بينما أنت جالسٌ في انتظار جوناثان.»

لقد كان رجلاً لطيفاً حقاً، حتى أن لطفه خفف بعض الشيء من شعوري بالوحدة. عدت إلى البيت وجلست أمام الموقد وأخذت آكل الكعك. كان الطقس ربيعياً دافئاً يوشك أن يكون كالصيف. ومع ذلك كان عليّ أن أشعل

نار الموقد لأن حرارة الشمس لم تكن قد اخترقت جدران البيت حتى ذلك الحين.

شعرت بالبرد حين اندسست في فراشي ولكني سرعان ما غرقت في النوم. حلمت بجوناثان. كان حلماً فظيعاً جعلني أستيقظ من النوم.

صحت قائلاً: «نعم يا جوناثان! أنا قادم!» ونزلت من سريري فوراً. وشعرت كأنني أسمع صدى صرخات قادمة من جوناثان يملأ عتمة الغرفة. لقد رأيته في المنام يدعوني لنجدته. نعم، هذا ما كان. كان صدى صوته في المنام ما يزال يرن في أذني، حتى أنني رغبت في أن أخرج مندفعاً في الظلام للوصول اليه أينما كان. ولكن سرعان ما أدركت أن هذا مستحيل. فما كان مني إلاّ أنني عدت إلى فراشي وتمددت هناك مرتجفاً يسيطر عليّ الشعور بأنني صغير وخائف ووحيد، بل أكثر الناس شعوراً بالوحدة كما خُيّل إليّ.

لم يتغير شعوري حين جاء الصباح، وكان صباحاً مشرقاً جميلاً. بطبيعة الحال كنت قد نسيت حينئذٍ بعض تفاصيل الحلم المرعب، ولكني لم أنس أن جوناثان كان يصيح وهو يدعوني لنجدته. أخي يدعوني لنجدته! ألا يعني ذلك أن عليّ أن أخرج للبحث عنه؟

لا أدري كم قضيت من الوقت جالساً هناك مستنداً بظهري على حائط الإسطبل من الخارج. وطفقت أقطّع العشب بينما كان تفكيري منشغلاً بجوناثان. لقد قطعت كل العشب الذي كان يحيط بي، ولم أتنبّه إلى ذلك إلاّ فيما بعد. أمّا في ذلك الوقت فقد كنت منشغلاً عن ذلك بالتفكير الذي كان يعذّبني. وكان من الممكن أن أبقى كذلك وقتاً غير محدود لولا أنني

تذكرت ما قاله جوناثان من أن على الإنسان أن يخاطر أحياناً وإلاّ لم يكن إنساناً حقاً بل كومة من الأوساخ.

وهكذا اتخذت قراري الحاسم. ضربت بقبضتي على بيت الأرانب حتى أنها قفزت فزعة وقلت بصوت مرتفع حاسم النبرة:

«سأفعل ذلك! سأفعل ذلك! لست كومة من الأوساخ.»

آه، كم أراحني أنني توصّلت إلى قرار!

قلت للأرانب: «أنا متأكد من صحة قراري.»

لم يكن ثمّة من أحدّثه غير الأرانب. آه، الأرانب! يجب أن أطلقها في البرّية طالما أنني عزمت على مغادرة البيت. وهكذا حملتها بين ذراعيّ نحو البوّابة وأريتها وادي الكرز الأخضر البديع قائلاً:

«إن الوادي مليء بالعشب. أعتقد أنكم سوف تستمتعون بالحرّية أكثر من الحبس الذي كنتم فيه. ولكن، خذوا حذركم من الثعلب ومن هربرت.»

بدت الأرانب الثلاثة مندهشة بعض الشيء، فقد توقفت قليلاً كأنها لا تصدّق ما يحدث لها. ولكنها ما لبثت أن انطلقت كالبرق وغابت في لحظة واحدة في خضرة الوادي.

ثم أسرعت لتجهيز نفسي بكل ما يجب أن أحمله معي: غطاء ألف به نفسي وقت النوم، وحجر القدح لأشعل به ناراً أستدفيء بها، وكيس حبوب لطعام فيالار، وكيس آخر من الطعام لي. لم يكن لديّ غير الخبز، ولكنه كان أفضل خبز يمكن الحصول عليه، إذ إنه من صنع صوفيا. وهكذا ملأت الكيس به. وقدّرت أنه سيكفيني لمدّة طويلة، فإذا نفدَ كلّه فسيكون عليّ أن

آكل العشب كالأرانب.

كانت صوفيا قد وعدت بأن تأتيني بحساء في اليوم التالي، لكنها حين تجيء لن تجدني هنا. مسكينة صوفيا ؛ سيكون عليها أن تحتسي ذلك الحساء وحدها. ولكني لن أتركها حائرة منشغلة بأمر غيابي. يجب أن أترك لها خبراً بطريقة ما. ولكن يجب ألاّ تعرف إلاّ في وقت متأخر حتى لا يكون بإمكانها أن توقفني.

أخذت قطعة من الفحم وكتبت بها على حائط المطبخ بخط كبير: «شخص ما دعاني لنجدته في منامي، ويجب أن ألبيّ نداءه وأخرج باحثاً عنه في أماكن بعيدة جداً وراء الجبال.»

كان من الضروري أن أكتب لها هذه الرسالة بهذا الأسلوب الغريب، حتى إذا كان في رفقتها شخص مشبوه فلن يفهم القصد. لعلّه سيظنّ أنني حاولت أن أكتب قصيدة أو شيئاً من هذا القبيل. أمّا صوفيا فسوف تفهم المقصود فوراً. سوف تفهم أنني خرجت بحثاً عن جوناثان.

شعرت بالراحة. ولأوّل مرّة شعرت أيضاً بأنني قويّ وشجاع. وغنيت لنفسي:

ثمّة إنسان قد ناداني في حلمي
ثمّة إنسان
وعليّ الآن
أن أبحث عنه حتى ألقاه في أيّ مكان
حتى لو كان
في أقصى الأرض وراء الجبل وخلف الوديان»

آه كم أنعشني ذلك الغناء. لا بدّ أن أذكر هذا لجوناثان حين ألقاه. ولكن ماذا لو أنني لم أتمكن من العثور عليه؟

عند هذا الخاطر تبخّرت شجاعتي كلها مرّة واحدة. لقد عدت لأحسّ أنني لست أكثر من كومة من الأوساخ أو التفاهة كما كنت دائماً. عندئذٍ شعرت بالحاجة إلى رؤية حصاني فيالار كالعادة. كان يجب أن أذهب اليه فوراً. فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يخفف عني قليلاً حين أشعر بالحزن والقلق. كم مرّة وجدت نفسي واقفاً عنده كلما اشتدت عليّ الوحدة والدهشة!! كم مرّة وجدت بعض عزائي وسلواي في مجرّد النظر في عينيه العميقتين وفي مجرّد لمس جسمه الحار وأنفه الطريّ! فبدون فيالار لم يكن في وسعي أن أحتمل قسوة الوحدة في غياب جوناثان.

وهكذا ركضت نحو الإسطبل.

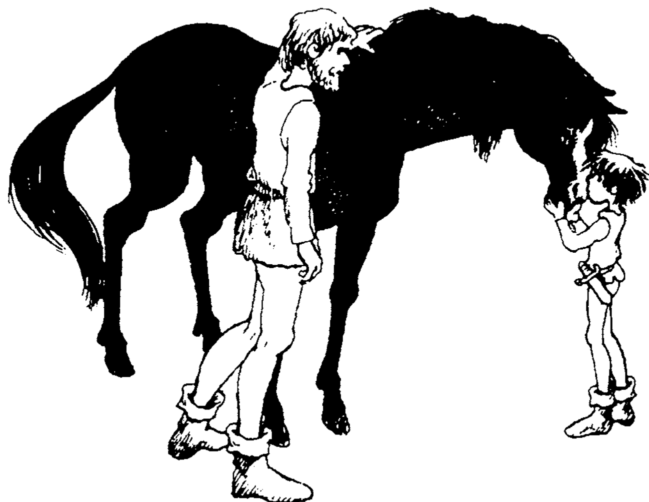
لم أجد فيالار وحده هناك، وإنما وجدت هربرت كذلك. نعم، كان هربرت يقف هناك يربّت على حصاني. وحين رآني اهتز قليلاً.

بدأ قلبي يدقّ بشدّة.

قلت في نفسي: «هذا هو الخائن.» نعم، فلطالما شككت به. والآن أصبحت متأكداً. هربرت هو الخائن. وإلاّ، فلماذا جاء يتلصّص على مزرعة الفرسان؟

لقد قالت صوفيا إن الشخص الخائن يعرف أكثر مما يجب. هذا الشخص هو هربرت مؤكداً. لقد تبيّن هذا لي الآن.

كم تراه يعرف؟ هل يعرف كل شيء؟ هل اكتشف الرسائل التي خبأناها في سلّة الشعير؟ حاولت جهدي أن أخفي خوفي منه، وقلت بلهجة واثقة قدر



الإمكان:

«ماذا تفعل هنا؟ ما الذي تريده من فيالار؟»

أجاب هربرت: «لا شيء. كنت في طريقي إليك حين سمعت صهيله. وأنا أحب الخيول. إنه حصان رائع.»

قلت في نفسي: «لن تخدعني بهذا الكلام.»

ثم قلت له: «ماذا تريد منيّ؟»

أجاب: «أريد أن أعطيك هذا.» ومدّ لي يده بشيء ملفوف بخرقة بيضاء، وتابع قائلاً:

«بدا عليك الحزن والجوع الشديدان في الليلة الماضية. فقدّرت أنه ربّما كان الطعام عندك قد نفد في اثناء غياب جوناثان في الصيد.»

لم أعد أعرف الآن ماذا أقول أو ماذا أفعل. غمغمت ببعض كلمات الشكر. ولكن، هل يمكن أن أقبل الطعام من خائن أم لا؟

فتحت الخرقة الملفوفة فوجدت قطعة كبيرة من لحم الماعز المقدّد والمُدَخّن.

كانت رائحتها مثيرة للشهيّة حقاً. وشعرت بالرغبة في أن أغرس فيها أسناني فوراً، على الرغم من أن الواجب يفرض عليّ أن أقذفها في وجهه وأطلب منه أن يغادر فوراً.

ولكني لم أفعل ذلك. إذ إن صوفيا هي المسؤولة عن مواجهة الخونة. ولذا ينبغي عليّ أن أتظاهر بأني لا أعرف ولا أدرك شيئاً. وفي الحقيقة أنني كنت أيضاً راغباً في قطعة اللحم، فليس هناك ما هو أفضل منها طعاماً للرحلة.

كان هربرت ما يزال واقفاً إلى جوار فيالار. وقال:

«إن لك حصاناً رائعاً حقاً يكاد يكون في مستوى بلندا.»

قلت: «ولكنّ بلندا فرس بيضاء. هل تحب الخيول البيضاء؟»

أجاب هربرت: «نعم، أحب الخيول البيضاء حُبّاً جمّاً.»

وهممت أن أقول: «وعليه، فأنت تحب الحصول على خمس عشرة منها، أليس كذلك؟» ولكني لم أفعل. وبدلاً من ذلك قال هربرت كلاماً مثيراً للفزع:

«ألا يجب أن تقدّم لفيالار بعض الشعير؟ هو أيضاً يحتاج إلى شيء لطيف.»

لم يكن في وسعي أن أوقفه. فقد ذهب فوراً إلى مخزن الحبوب وركضت وراءه. أردت أن أصيح به «توقف!» ولكني لم أستطع نطق حرف واحد.

فتح هربرت غطاء سلّة الشعير، والتقط المجرفة الموضوعة فوق الشعير. أغمضت عينيّ لكي لا أراه يصل إلى صندوق الرسائل المخبأ هناك تحت الحبوب. ولكن، هنا سمعتُه يشتم. فتحت عينيّ فرأيت فأراً صغيراً يقفز من سلّة الشعير. حاول هربرت أن يدوسه بقدمه، ولكنه كان أسرع

منه، إذ جرى هارباً عبر أرضيّة الإسطبل واختفى حيث لا ندري.

قال هربرت: «لقد عضّ إصبعي ذلك الحقير.» ووقف هناك يفحص إصبعه، وعندئذ اغتنمت الفرصة، فأسرعت إلى سلّة الشعير وغرفت منها بالمجرفة قدراً وأغلقت غطاءَها على الفور أمام ناظريّ هربرت.

قلت: «سيُسَرّ فيالار. فهذا موعد شعيره في كل يوم.»

وقلت في نفسي: «أمّا أنت يا هربرت فلست مسروراً مؤكداً.»

قلت هذا في نفسي بينما كان هربرت يلقي تحية وداع عجلى ويقطع أرض الإسطبل خارجاً.

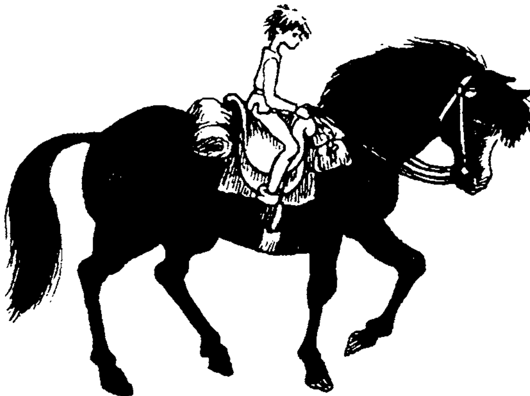
لم يتمكّن من الوصول إلى تلك الرسائل السريّة في تلك المرّة. ولكن، صار من الضروريّ الآن أن أجد لها مكاناً سريّاً آخر. فكرّت طويلاً، وأخيراً دفنت صندوق الرسائل في قبو البطاطا المحفوظة.

ثم كتبت لغزاً جديداً على حائط المطبخ لصوفيا:

«اللحية الحمراء تريد خيولاً بيضاء وتعرف أكثر مما يجب. احذري منها.»

لم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً آخر من أجل صوفيا.

مع بزوغ الشمس في صباح اليوم التالي، وقبل أن يستيقظ أحد في وادي الكرز، غادرت مزرعة الفرسان على صهوة حصاني، متجهاً نحو الجبال.



الفصل السابع

حدثت فيالار عن شعوري في تلك المناسبة التي أخرج فيها وحدي في رحلة طويلة عبر الجبال.

«هل تعي يا فيالار ما تعنيه هذه المغامرة لي؟ تذكّر أنني قضيت حياتي السابقة في الأرض لا أفعل شيئاً إلاّ أن أتمددّ على الأريكة! إياك أن تعتقد أنني نسيت جوناثان لحظة واحدة. ولكنّني أشعر الآن شعوراً رائعاً حتى أنني أرغب في أن أصيح بملء صوتي حتى تردد الجبال الصدى.»

نعم لقد كان شعوري رائعاً حقاً. ولا شك عندي أن جوناثان سيتفهم هذا. أية جبال رائعة! ما على الإنسان إلاّ أن يتصور وجود جبال بهذا الارتفاع الشاهق مع وجود عدد كبير من البحيرات الصغيرة الصافية والجداول المتدفقة والشلالات والمروج المليئة بأزهار الربيع - كل ذلك في منطقة الجبال. وها أنذا رسكي، أجد نفسي على صهوة حصاني وسط هذا المشهد البديع أملأ بصري به. لم أتصورّ أن في الدنيا منظراً بهذا الجمال، ولذا فقد شعرت بأن رأسي يدور من الدهشة والإعجاب.

ولكن هذا كلّه ما لبث أن بدأ في التغيّر تدريجياً. فقد وجدت نفسي أمام طريق جبلي متعرّج شديد الإلتواء. ولعلّ هذا هو الطريق الذي حدّثني عنه جوناثان سابقاً حين قال: «إن الوصول إلى وادي الوردة البريّة يقتضي المرور بطرق ملتوية متعرّجة صعبة وبمنعطفات حادّة.» وهذا ما وجدت نفسي فيه فعلاً. إذ سرعان ما خلّفت المروج الخضراء ورائي وصار عليّ أن أصعد طريقاً

جبلياً شرساً ومحفوفاً بالمخاطر، ومتقلباً بين صعود وهبوط حادّين. وكان عليّ في بعض الأحيان أن أسير على طرق صخريّة ضيقة تقع على حافة الجرف الجبليّ الشاهق، حتى أنني خشيت أن تنزلق حوافر جوادي عن الحافة فأسقط معه في هوّة سحيقة. ولكن، يبدو أن فيالار كان معتاداً على مثل هذه الطرق الجبليّة الخطرة. نعم، لقد كان فيالار جواداً رائعاً حقاً!

حين أقبل المساء، كان الإرهاق قد أخذ مني ومن جوادي. وهكذا اخترت بقعة خضراء صغيرة بالقرب من أحد الجداول لأقيم فيها تلك الليلة. وبذلك نستطيع أن نشرب من ماء الجدول، ويستطيع جوادي أن يرعى العشب هناك.

ثم أوقدت ناراً. ولطالما حلمت بأن أوقد ناراً في البريّة وأقيم عندها. فقد كان جوناثان قد حدّثني كثيراً عن روعة ذلك. وها أنذا أخيراً أنجح في تحقيق الحلم.

حدّثت نفسي قائلاً بصوت مرتفع: «ها أنت يا رسكي قد صار بإمكانك الآن أن تحقق تلك الرغبة.»

جمعت بعض الأغصان الجافّة وجعلتها في كومة كبيرة وأشعلت بها النار، فأخذت تحترق وتطلق الشّرَرَ مع صوت مسموع. وجلست أمامها وغمرني شعور رائع جميل كالذي كان جوناثان يصفه لي. وأخذت أنظر إلى لهب النار وآكل من الخبز واللحم المدخّن الذي كان لذيذاً حقاً، إلاّ أنني تمنيت لو كان شخص غير هربرت هو الذي أعطاني إياه.

شعرت بالسعادة وطفقت أغني لنفسي في ذلك المكان الخالي: «خبزي وناري وحصاني! تَمْ تَمْ. خبزي وناري وحصاني! تَمْ تَمْ!» - لم يحضرني من

الغناء غير هذه الكلمات!

جلست هناك طويلاً. وتخيّلت كم من النيران أوقد الناس في البريّة منذ بدء الخليقة، وكيف خمدت جميعها منذ زمن بعيد. إلاّ أن ناري تشتعل الآن في هذه اللحظة وفي هذا المكان!

بدأ الظلام يشتد من حولي. وما لبثت الجبال أن اكتست بحلّة سوداء قاتمة. آه ما أشدّ تلك الظلمة وما أسرع ما لفّت المكان. وهنا بدأت أشعر بشيء من القلق، وداهمني خوف من أن شخصاً ما قد يفاجئني من الخلف في عتمة الليل الحالكة. ولكنّ وقت النوم قد حان على كل حال. وهكذا أضفت إلى موقد النار مزيداً من الحطب، وتدثّرت بالغطاء متمدداً في أقرب موضع ممكن من الموقد. ثم تمنيت أن أغرق في النوم فوراً قبل أن أبدأ في إخافة نفسي.

نعم، كان في وسعي أن أخيف نفسي بسرعة كبيرة. بل إني لا أعرف أحداً يستطيع إخافة نفسه بسرعتي. فقد بدأت الخواطر والهواجس المخيفة تدور في رأسي - هناك بالتأكيد شخص ما يكمن في الظلام، ولا بدّ أن جنود تنغل وجواسيسه يجوسون في كل مكان من الجبال، ولا بدّ أن جوناثان قد لقي حتفه منذ وقت طويل ؛ هذه هي أنواع الهواجس التي أخذت تجول في خاطري. ولذا لم أتمكن من النوم.

عندئذٍ برز القمر من وراء قمة الجبل. لعلّه ليس نفس القمر القديم الذي عرفته في الأرض، ولكنه يشبهه على أية حال. ومع ذلك فإني لم أشاهد من قبل مثل هذا الضوء القمريّ الساحر. وفي الحقيقة فإن هذه هي المرّة الأولى التي أرى بها القمر فوق الجبال الشاهقة.

بدا كل شيء غريباً ؛ فقد وجدت نفسي في وسط عالم غامض يتشكل من أطياف فضيّة وسوداء معاً، ولا شيء آخر. كان المشهد جميلاً مع شيء من الوحشة مما يبعث في النفس إحساساً لطيفاً مشوباً بالخوف في الوقت نفسه. فعلى الرغم من وجود الضوء حيث يلمع القمر، فإن أشباح العتمة يمكن أن تخبّيء ما شئت من المخاطر.

سحبت الغطاء فوق رأسي كيلا أرى شيئاً. ولكني هنا سمعت شيئاً! نعم سمعت شيئاً. إنه عواء يأتي من مكان بعيد في الجبال، ثم تبعته سلسلة من العواء الذي شعرت بأنه صارَ أقرب قليلاً. صهل فيالار خوفاً، وعندئذٍ أدركت حقيقة الأمر. إنها ذئاب تعوي.



كان يمكن أن يقتل ذلك الخوف شخصاً ضعيفاً مثلي، ولكن، حين لاحظت مدى خوف فيالار، حاولت أن أتظاهر بالشجاعة، وقلت:

«الذئاب تخاف النار يا فيالار، ألا تعرف هذا؟»

قلت هذا وأنا غير مقتنع به. كذلك يبدو أن الذئاب نفسها لم تقتنع به، إذ ما لبثت أن شاهدتها تقترب من مكاني بأشكالها الرماديّة المرعبة وهي تعوي عواء الجائع الباحث عن فريسة.

عندئذ أطلقت أنا نفسي صيحة هائلة شقّت عنان السماء. ولعلّ هذا قد أخاف الذئاب قليلاً. أو هكذا ظننت. إذ لم تبتعد لحظة إلاّ لتعود ثانية إلى مسافة أقرب منّي. وقد أثار عواؤها جنون فيالار، وكذلك جنوني. وأيقنت أننا هالكان لا محالة. لقد مررت بتجربة الموت من قبل، ومن ثمّ يفترض أنني اعتدت ذلك. ولكني في تلك التجربة القديمة كنت راغباً في الموت، وكنت أتطلع بشوق اليه. أما الآن فأنا لا أريد الموت. بل أريد الحياة والبقاء مع جوناثان - آه يا جوناثان! ليتك تأتي الآن وتساعدني.

كانت الذئاب قد صارت قريبة مني الآن. وكان أحدها أضخم من البقيّة وأكثر شراسة في مظهره. ربما كان هو قائد القطيع. وقدّرت أنه هو الذي سيسبق إلى افتراسي. وأخذ يدور حولي ويطلق عواءه المرعب حتى شعرت الدم يتجمّد في عروقي. قذفت غصناً مشتعلاً عليه وصرخت عالياً، ولكن هذا زاده شراسةً وغضباً. شاهدت فكيّه المفتوحين وأنيابه المخيفة التي كانت تتأهب للانغراس في عنقي. الآن - النجدة ياجوناثان! الآن، ها هو ينقضّ عليّ!

ولكن، عند ئذ..! ما الذي حدث عندئذٍ؟ حينما كان الذئب في وسط

قفزته منقضاً عليّ أطلق حشرجةً غريبة وسقط عند قدميّ بلا حراك. سقط ميتاً بلا حراك. ورأيت سهماً قد اخترق رأسه!

من أين جاء ذلك السهم؟ من الذي أنقذ حياتي؟ وهنا برز شخص ما من وراء العتمة ومن وراء إحدى الصخور. من غير هربرت؟ كان يقف هناك أمامي وقد اكتسى وجهه كالعادة بتلك المسحة الهازئة. ومع ذلك فقد هممت بأن أركض نحوه وأطوقه بذراعيّ. فقد سعدت كثيراً برؤيته في أول الأمر، ولكن هذه السعادة لم تطل أبداً.

قال: «يبدو أنني جئت في الوقت المناسب!»

قلت: «نعم، بالتأكيد.»

قال: «وما الذي جاء بك إلى هذا المكان من مزرعة الفرسان؟»

هنا قلت في نفسي: «ماذا عنك أنت؟» فقد تذكرت الآن حقيقة هذا الرجل. ترى ماهي المكيدة التي كانت تدبّر في الجبال هذه الليلة؟ آه، لماذا كان يجب أن تكون نجاتي على يد خائن؟ لماذا يجب أن أكون ممتناً لهربرت من دون الناس، لأنه أنقذ حياتي فضلاً عن أنه قدّم لي لحماً قبل ذلك؟

سألته بنبرة واثقة: «ما الذي تفعله وحدك هنا في غور الليل؟»

أجاب: «أصطاد الذئاب كما ترى. والواقع أنّي رأيتك تغادر بيتك هذا الصباح، فخطر لي أن ألحق بك لأطمئنّ عليك خشية أن يصيبك مكروه.»

قلت في نفسي «هيا، اكذب كما تشاء. سوف ينكشف أمرك في النهاية أمام صوفيا، لتلقى عقابك العادل، وعندئذٍ سأشعر بالأسف من أجلك.»

قال هربرت: «أين جوناثان؟ ألم تقل إنه خرج لاصطياد الذئاب؟ إذا كان كذلك فلماذا لا أراه حيث توجد الذئاب؟»

تلفّتُ حولي فوجدت أن الذئاب قد اختفت ولم يبق واحد منها. ربّما أصابها الخوف حين رأت قائدها يهوي ميتاً. وربما كانت الآن تتحسّر عليه أيضاً، لأنني سمعت بعض العواء المجروح الحزين يأتي من مكان بعيد في الجبال.

وعاد هربرت ليسأل بإلحاح: «أين جوناثان إذن؟». عندئذ كان عليّ أن أكذب، فقلت:

«إنه قادم قريباً. لقد ذهب في إثر قطيع من الذئاب هناك.» وأشرت إلى الجبال الممتدة أمام بصري.

قال هربرت: «أليس من المناسب أن تعود معي إلى وادي الكرز على كل حال؟»

قلت: «لا، يجب أن أنتظر جوناثان. سيكون هنا في أية لحظة منذ الآن.»

قال هربرت: «آه، نعم!» وأرسل إليّ نظرة غريبة. عندئذٍ - عندئذٍ سحب سكيناً من حزامه، فأطلقت صرخة صغيرة. ماذا يريد أن يفعل؟ إن منظره وهو يمسك السكين في ضوء القمر قد أخافني أكثر مما يمكن أن تخيفني ذئاب الجبال مجتمعةً.

حدثت نفسي أنه يريد قتلي لا ريب، وأنه يعرف أنني اكتشفت حقيقة خيانته، ولذلك لحق بي هنا ليقتلني.

بدأ جسمي كلّه يرتجف. فصرخت: «لا، لا تفعل ذلك! لا تفعل ذلك!»

قال هربرت: «ماذا تعني؟»

قلت: «لا تقتلني!»

عندئذٍ اكتسى وجهه بغضب جامح وتقدّم نحوي مسرعاً حتى كدت أقع على ظهري من شدّة الخوف، وقال:

«أيها التافه، ما الذي تقوله؟»

شدّني من شعري وهزّني قائلاً:

«أيها المغفل! لو كنت أريد موتك لتركت هذا للذئب.»

شهر السكين تحت أنفي، وكان باستطاعتي أن أتبيّن أنها سكين حاده، وقال:

«إنني استعمل هذه لسلخ جلود الذئاب، لا لقتل الأولاد المغفّلين.»

ركلني بقدمة من الخلف فوقعت على وجهي، ثم طفق يسلخ جلد الذئب وهو يتابع الشتم والسباب.

نهضت بسرعة وركضت لأمتطي فيالار. فقد أردت أن أبتعد بسرعة عن ذلك المكان. آه، كم كنت راغباً في ذلك.

صاح هربرت: «إلى أين؟»

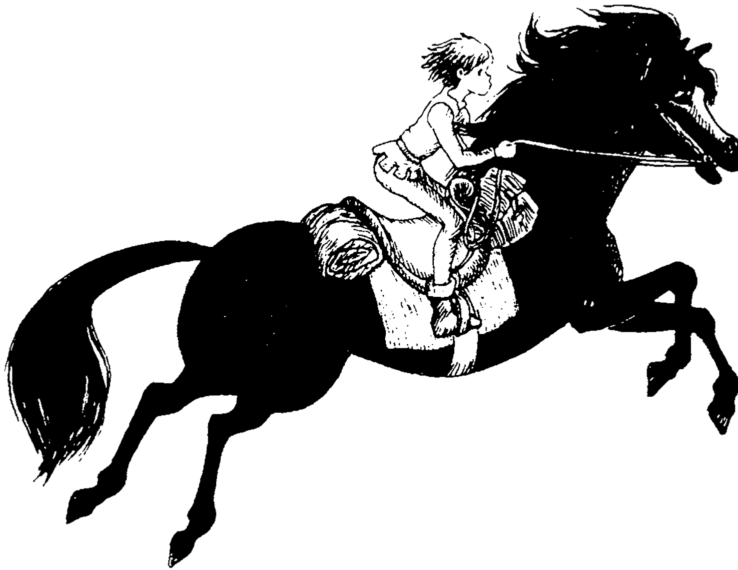
قلت: «أريد أن أمضي لملاقاة جوناثان.» كان صوتي ضعيفاً ومرتجفاً من شدّة الخوف.

قال هربرت: «هيا اذهب إذا شئت أيها الغبي. عرّض نفسك للقتل. لن أوقفك بعد الآن.»

ما إن قال ذلك حتى كنت منطلقاً بأقصى سرعة ممكنة على صهوة حصاني غير آبهٍ بهربرت.

كان الطريق أمامي ينعطف بحدّة صاعداً عبر الجبال. كان ضوء القمر لطيفاً أشبه ما يكون بضوء النهار مما جعلني قادراً على رؤية كل شيء. وكان ذلك من حسن حظيّ. فلولا ضوء القمر لما تبيّنت طريقي ولضعت هناك في معارج الجبل.

شعرت كأنني أركب حصاني في حقل من الأحلام. فقد كان هناك الكثير من الشقوق الجبليّة الحادّة التي جعلت رأسي يدور قليلاً. لقد كان منظرها يجمع بين الجمال والهيبة المخيفة! نعم كان ذلك أشبه بحقل من الأحلام. إذ إنك لا تجد مثل هذا المشهد القمريّ المهيب إلاّ في حلم جميل ومهيب وغامض. وقلت لفيالار:



«من هو صاحب هذا الحلم في رأيك؟ لست أنا الذي يحلم. لا بدّ أن هناك شخصاً آخر استطاع أن يحلم بشيء كهذا جميل ومهيب إلى حدّ يتجاوز التصوّر.»

غير أني كنت قد بلغت حداً من الاعياء والنعاس لم يعد معهما في وسعي أن أتابع الركوب. يجب أن أنزل وأرتاح في مكان ما أمضي فيه بقيّة الليلة.

قلت لفيالار: «يُفضَّل أن يكون ذلك مكاناً لا توجد فيه ذئاب.» وأظنّ أن فيالار وافقني على ذلك.

ترى من هذا الذي سلك هذه الطرق الجبليّة التي تصل بين قرى نانجيالا منذ البدء؟ من الذي حدّد هذه الطرق نحو وادي الوردة البريّة؟ هل كان يجب أن تكون بمثل هذه الوعورة والقسوة والتعرّج والإلتواء على حافة الجُرُف والشقوق الجبليّة؟ كنت أدرك أنه إذا أخطأ فيالار مرّة واحدة فوضع ساقه خارج الحافة، فسوف نسقط في الهوّة السحيقة معاً. وعندئذٍ فسوف يختفي أثرنا إلى الأبد، ولن يعرف أحدٌ مصير كارل ليونهارت وحصانه.

كانت الطريق تزداد خطورة كلما تقدمنا. وأخيراً لم أعد أجرؤ على فتح عينيّ. فإذا كنا سنسقط في القاع السحيق، فإنني لا أريد أن أرى ذلك.

ولكن فيالار لم يرتكب ذلك الخطأ القاتل. لقد نجح في تلافي الأخطار. وعندما جرؤت على فتح عينيّ في نهاية الأمر وجدتني أمام فسحة خضراء صغيرة تحيط بها الجبال الشاهقة من جانب، وجرف جبلي سحيق من جانب آخر.

قلت:« هذا هو المكان المناسب يا فيالار. ها نحن في مأمن من الذئاب. »

نعم، لقد كان كذلك حقاً. فليس في استطاعة الذئاب أن تنحدر إليه من قمم الجبال الشاهقة التي تحاذيه من جانب، ولا أن تصعد إليه من الهوّة السحيقة التي تحاذيه من الجانب الآخر. ولو أراد أحد الذئاب أن يصل الينا، فإن عليه أن يعبر من نفس المعابر الضيّقة الملتوية الخطرة المحاطة بالشقوق والجروف والهوى السحيقة التي مررنا بها. ولا أظنّ أنه يملك القدرة والذكاء للقيام بمثل هذه المهمّة الشاقّة.

ثم رأيت شيئاً مناسباً حقاً. كانت هناك فجوة في جانب الجبل قريباً منا. بلْ يمكن أن تدعى كهفاً، إذ كان ثمّة كتل صخريّة ضخمة تشكل سقفاً. في ذلك الكهف يمكن لنا أن ننام بأمان تحت ذلك السقف الطبيعيّ.

ثم وجدت بقايا رمادٍ في تلك الفسحة التي كنا فيها، فاستنتجت أن ثمّة من مرّ قبلنا في هذا المكان ونزل فيه وأوقد ناراً. وخطر لي أن أوقد ناراً. ولكني كنت شديد الإعياء ولم يبق عندي طاقة لعمل شيء. كل ما أريده الآن هو أن أستلقي وأنام. وهكذا جذبت فيالار وقدته إلى الكهف. كان كهفاً عميقاً، وقلت لفيالار:

« يوجد هنا مساحة تكفي لخمسة عشر حصاناً مثلك. »

صهل قليلاً. ولعلّه كان يشعر بالحنين إلى إسطبله في مزرعة الفرسان. وطلبت منه أن يسامحني على ما سببته له من إرهاق وجهد في هذه الرحلة القاسية. قدمت له بعض الشعير، ثم ألقيت عليه تحيّة النوم. وتمددت على أرض الكهف متلفّعاً بغطائي في أقصى ركن من الكهف وأشدّه

ظلمةً، وما هي إلاّ لحظات حتى استغرقت في نوم عميق كأنني جذع شجرة يابس، قبل أن تخطر لي فكرة واحدة مخيفة.

لا أدري كم قضيت من الوقت نائماً، ولكني نهضت جالساً فجأةً. فقد سمعت أصواتاً وصهيل خيول خارج الكهف.

كان هذا كافياً ليعود الرعب فيسيطر على كياني كلّه. من يدري؟ لعلّ هؤلاء الناس الذين يتحادثون في الخارج أشدّ خطراً من الذئاب!

سمعت صوتاً يقول: «ادفع الخيول إلى داخل الكهف حتى يتسع المكان لنا.»

وعندئذٍ رأيت حصانين يدخلان الكهف. صهلا حين رأيا فيالار، فردّ عليهما فيالار بالصهيل. ثم صمت الثلاثة مرّة واحدة. ويبدو أنهم صاروا أصدقاء بسرعة في تلك الظلمة المحدّقة. ويبدو أيضاً أن الأشخاص الذين كانوا في الخارج لم يتنبهوا إلى صوت فيالار، فقد تابعوا حديثهم بهدوء.

من أين جاؤوا؟ ومن يكونون؟ وماذا عساهم يفعلون في الجبال في هذه الليلة؟ يجب أن أعرف هذا. كنت شديد الخوف حتى أن أسناني أخذت تصطكّ بشدّة، وتمنيت لو كنت على بعد آلاف الأميال. ولكني كنت هناك. وعلى قرب مني يوجد أناس ربمّا كانوا أصدقاء مسالمين، وربمّا كانوا خصوماً وأعداء. وعليّ أن أعرف حقيقتهم مهما كانت درجة خوفي.

وهكذا انبطحت على بطني وبدأت بالزحف نحو مصدر الأصوات. كان ضوء القمر يسقط مباشرة على مدخل الكهف، وكان خيط من النور يتسلل إلى داخله. ولكني حرصت على تجنب مكان الضوء وبقيت في الجانب المعتم

بينما تابعت الزحف رويداً رويداً مقترباً من مصدر الأصوات.

كان هناك رجلان يجلسان في ضوء القمر ويوقدان ناراً. كان كل منهما يرتدي خوذة سوداء على رأسه ويبدو مكفهرّ الوجه قاسي الملامح. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى بها بعض جنود تنغل، ولم يخامرني شك في حقيقة هذين الرجلين. كنت أدرك أنني أنظر إلى اثنين من أولئك الرجال القساة الذين انضمّوا إلى تنغل لتدمير وديان نانجيالا الخضراء. ولذا كان من المهمّ ألاّ أقع في أيديهما. فالذئب أرحم من هؤلاء القوم.

كانا يتحدثان بأصوات خفيضة. ولكني كنت قد صرت قريباً منهما في العتمة مما يمكّنني من سماع ما يقولان. وبدا لي أنهما غاضبان من شخص ما، فقد قال أحدهما:

«سوف أنتزع أذنيه إن لم يأت في الوقت المحدّد هذه المرّة أيضاً.»

عندئذٍ قال الرجل الآخر:

«نعم، عليه أن يتعلّم الكثير. هل يجب علينا أن ننتظره هنا عبثاً ليلةً وراء ليلة؟ ما الفائدة منه على كل حال؟ إن إسقاط بعض الحمائم التي تحمل الرسائل أمر لا بأس به، ولكنّ تنغل يريد أكثر من هذا. إنه يريد أن يرى صوفيا في كهف كاتلا. وإذا لم يستطع هذا الرجل تدبير الأمر فسوف يلقى مصيره.»

عندئذٍ أدركت أن الرجل الذي يتحدثان عنه وينتظرانه هو هربرت وليس أحداً غيره.

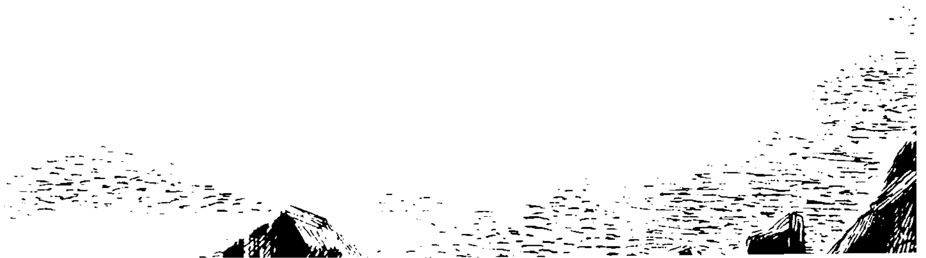
قلت في نفسي: «اصبرا قليلاً. انتظرا حتى يفرغ من سلخ جلد الذئب وسوف يأتي. صدّقاني! الرجل الذي سيعينكم في القبض على صوفيا

ما يلبث أن يظهر قادماً من ذلك الطريق.»

وشعرت بنار الخزيّ والعار تشتعل في بدني: العار من وجود خائن بيننا في وادي الكرز. ومع ذلك فقد كنت راغباً في رؤيته لكي أحصل أخيراً على الدليل العمليّ على خيانته. فالشكّ وحده لا يكفي. أما الآن فسوف أحصل على الدليل القطعي الذي يمكنّني من أن أقول لصوفيا:

«تخلّصي من ذلك الخائن هربرت! وإلاّ كانت نهايتك ونهاية وادي الكرز بأسره قريباً.»

ما أصعب الانتظار حين يكون انتظاراً لأمر قبيح. ولا شكّ أن الخيانة شيء قبيح. وداهمني شعور غامر بالاشمئزاز تغلّب على شعوري بالخوف من الرجلين الجالسين أمام موقد النار. إذ لم يعد الآن هناك ما يسيطر على





حـواسّي إلاّ ترقب بـروز الخائن قـادماً على صهوة جواده من وراء المنعطف الحادّ المحـاذي للجـرف الجبلي. وتابعت التـحـديق نحـو المكان الذي أتوقع ظهوره منه، حتى أنني شعرت بحرقة في عينيّ.

كان الرجلان الجالسـان أمام النار يحدّقان في الاتجاه نفسـه. فقد كـانا يعرفـان كذلك أنه سيـظهر من تلك الجهـة. ولكن أحداً منا لم يكن يعرف متى يظهر.

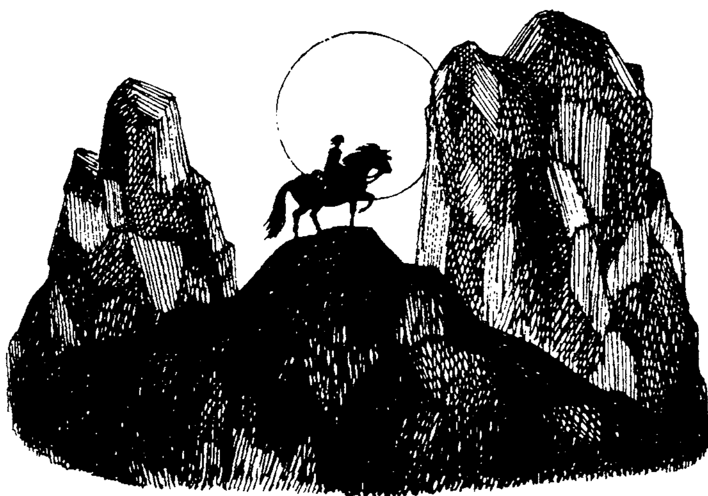
وهكذا مـضـينا جميـعـاً في الانتظار. الرجـلان ينتظران بالقرب من موقد النار، وأنـا أنتظر منبطحاً عـلى بطني في داخل الكهف. تحـرّك ضوء القـمـر مبـتعداً عن مدخل الكهف، ولكن الوقت بدا متجـمّداً. لم يحدث شيء لوقت طويل. وتابعنا الانتظـار ساعـة وراء سـاعـة حتى هممت أن أقـفز صارخاً لكي أنهي ذلك الموقف الثـقـيل. بدا كـأن كل شيء كـان في حـالة انتظار: القمر وسلاسل الجبال. بدا كأن تلك الليلة المقمرة المخيفة تحبس أنفاسها في انتظار الخائن.

وأخيـراً جاء. فقد ظهر شبحه على صهوة حصانه مقبلاً من أقصى الطريـق تحت ضـوء القـمـر. نعم، لقـد جاء مـن حـيـث توقـعـت قـدومـه. وارتجف جسمي حين شاهدت شبحه مقبلاً. آه يا هربرت، كيف يمكن أن تفعل هذا ؟

كـان التـحـديق الطويـل قـد أرهق عـينيّ إرهاقـاً شـديداً مما اضطرني إلى إغـماضـهـما. بل لعلّي قد أغـمضـتـهـما كـيلا أرى. لقد انتظرت طويلاً قدوم هـذا الوغد الخائن. أما الآن وقد جاء فعـلاً فقد بدا كـأنني لا أحـتمل النظر اليـه. وهكـذا أغـمضت عينيّ، وأخذت أصغي إلى صوت حوافر حصانه وهي تقترب.

أخيـراً وصل. وعندئذٍ فـتـحت عـينيّ، إذ لا بدّ لي أن أرى كـيف يبـدو الخائـن الذي يتنكّر لشـعبـه وأبناء جلدتـه. نعم، كـان لا بـدّ أن أرى هربرت إذ جاء ليخون وادي الكرز وكل من يعيش فيه.

ولكنه لم يكن هربرت! لقد كان جوسـي! الديـك الذهبـي الصغـير!



الفصل الثامن

جوسي، لا أحد غيره!

مرّت عليّ برهة من الذهول قبل أن أستوعب الحقيقة. جوسي، الشخص الطيب البشوش ذو الخدين الأحمرين الذي قدّم لي االكعك وواساني حين كنت حزيناً - ذاك هو الخائن.

كان يجلس هناك إلى جانب النار على بعد مسافة قصيرة مني، مع رَجُلَيْ تنغل اللذين كان يدعوهما ڤيدر وكادر، وكان يشرح لهما سبب تأخره:

«هربرت يصيد الذئاب في الجبال، وكان عليّ أن أبقى مختفياً عن الأنظار.»

بدا التجهم والعبوس على وَجْهَيْ ڤيدر وكادر، بينما تابع جوسي قائلاً:

«يجب ألاّ تنسيا هربرت أبداً. يجب أن يُحْجز هو أيضاً في كهف كاتلا، فهو يكره تنغل كذلك.»

أجاب ڤيدر:



«إذن عليك أن تفعل شيئاً إزاء ذلك.»

وتابع كادر:

«فأنت رجلنا في وادي الكرز، أليس كذلك؟»

أجاب جوسي: «طبعاً، طبعاً.»

قال هذا وهو يبدي لهما تملّقاً وتذلّلاً، ألاّ أنه كان من الواضح عندي أنهما لا يحبّانه. أعتقد أنه ليس هناك من يحب خائناً، حتى أولئك الذين يستخدمونه.

على كل حال، لقد سُمح له بالمحافظة على أذنيه فلم يقطعاهما، إلاّ أنهما فعلا شيئاً آخر. لقد وضعا على جسمه علامة كاتلا.

قال ڤيدر:

«على كل رجال تنغل أن يحملوا علامة كاتلا، حتى الخائن من أمثالك. فإن قدم إلى وادي الكرز أيّ من جواسيسنا الذين لا يعرفونك، كان باستطاعتك أن تريهم العلامة كي يعرفوا حقيقتك.»

قال جوسي:

«طبعاً، طبعاً.»

ثم أمروه بأن يكشف عن صدره، وعندئذٍ وسموه بعلامة كاتلا مستخدمين أداة حديديّة خاصّة حفرت عليها العلامة، بعد أن أحموها طويلاً على النار.

صرخ جوسي متألماً عندما لمست الأداة الحديديّة المتوهّجة صدره، وقال كادر:

«فلتشعر بهذا! الآن تدرك أنك قد صرت واحداً منا إلى الأبد إذ رضيت بأن تكون خائناً إلى جانبنا.»

كانت تلك الليلة أطول ليلة وأقسى ليلة مرّت عليّ منذ مجيئي إلى نانجيالا. وكان أشدّ ما فيها أنه كان عليّ أن أستلقي هناك وأستمع إلى جوسي يتفاخر بمخططاته لتدمير وادي الكرز. وقد ذكر في أثناء ذلك أنه قريباً سيوقع بكل من صوفيا وهربرت. ثم علّق على ذلك قائلاً:

«ولكن يجب أن يحدث ذلك دون أن ينكشف أمري؛ وإلاّ فلن يكون بإمكاني أن أتابع عملي السرّي في خدمتكم في وادي الكرز.»

حدثت نفسي قائلاً: «لن يبقى أمرك سراً إلى أمد طويل. فلسوف أفضحك أمام الناس حتى ينقلب وجهك الأحمر شاحباً من الخزي والعار.»

ولكنه ما لبث أن قال شيئاً آخر جعل قلبي يضطرب:

«هل قبضتم على جوناثان ليونهارت؟ أم هو ما يزال طليقاً في وادي الوردة البريّة؟»

كان في وسعي أن أرى أن السؤال لم يعجب ڤيدر وكادر. وقال ڤيدر:

«إننا نتقصّى أثره. هناك مائة رجل يبحثون عنه طوال الليل والنهار.»

وقال كادر:

«لابدّ أن نجده حتى لو اقتضى الأمر أن نفتش كل بيت من بيوت وادي الوردة البريّة.»

قال جوسي:

«أدرك هذا. إذ إن الفتى ليونهارت أخطر من الجميع كما قلت لكم. فهو أسدٌ حقاً.»

وشعرت بالفخر لتشبيه جوناثان بالأسد. ولكم شعرت بالارتياح إذ تأكد لديّ أن جوناثان لا يزال حياً. ولكني بكيت حين تبيّن لي فظاعة ما فعله جوسي. لقد خذل جوناثان وخانه. إنه الشخص الذي علم برحلة جوناثان السريّة إلى وادي الوردة البريّة وأرسل إلى تنغل رسالة يعلمه فيها بالخبر. ولولا جريمته تلك لما كان هناك الآن مائة رجل يبحثون عن شقيقي ليلاً ونهاراً ليسلّموه إلى تنغل.

ولكنه مع ذلك ما يزال حياً. نعم، مايزال حيّاً! وهو كذلك ما يزال طليقاً.

فلماذا إذن رأيته ينادي في منامي؟ ترى هل سيقدّر لي أن أعرف الجواب يوماً؟ كنت أتساءل بهذا بينما كنت أستلقي في مكاني هناك.

ولكني اطلعت على أمور أخرى كثيرة من خلال استماعي إلى جوسي في ذلك المكان.

قال جوسي:

«هربرت ذاك! إنه يحسد صوفيا لأننا اخترناها قائدةً لنا في وادي الكرز. فهو يعتقد أنه الأفضل في كل شيء.»

آه، هكذا الأمر إذن! تذكرت نبرة الغضب الواضحة في كلام هربرت حين قال مرّة متسائلاً: «ما هو الشيء الخاص المميّز في صوفيا؟» إذن، كان ذلك بسبب حسده لها، لا لأي سبب آخر. يمكن أن تغار من غيرك وتبقى إنساناً طيباً في الوقت نفسه. ولكن، كان قد ترسّخ في ذهني منذ البداية أن هربرت هو خائن وادي الكرز، وبناء على ذلك الوهم فسّرت كل ما كان يقول وكل ما كان يعمل تفسيراً يناسب اعتقادي بخيانته. إن من السهل أن يُكَوِّن الإنسان انطباعات مخطئة عن الناس. يا لهربرت المسكين! لقد قام بحراستي وأنقذ حياتي وقدّم لي لحماً مدخّناً، وكل ما كافأته به أنني صرخت به: «لا تقتلني!» لا عجب أنه غضب غضباً شديداً. قلت في نفسي: «سامحني يا هربرت. سامحني.» سوف أقول له هذا إذا قدّر لي أن أراه.

بدا جوسي أكثر ثقةً واطمئناناً في هذه اللحظة. كما ظهرت عليه إمارات السرور بينما كان يجلس هناك. ولكني أعتقد أن رسم كاتلا كان يلسعه في بعض الأحيان، لأنه كان يتأوّه تأوّهاً خفيفاً بين الفينة

والأخرى. وكان كادر يقول:

«نعم، فلتشعر بالألم. فلتشعر به!»

تمنيت لو كان في وسعي أن أرى رسم كاتلا وشكله. ولكنني أرجّح أن منظره مزعج وفظيع. ولذا ربّما كان من الأفضل ألاّ أراه.

وتابع جوسي تفاخره بكل ما فعل وما سوف يفعل، وفجأةً قال:

«لجوناثان ليونهارت شقيق صغير، وهو يحبه حباً جمّاً.»

هنا بكيت بصمت، وشعرت بشوق غامر لأخي جوناثان.

وتابع جوسي كلامه قائلاً:

«يمكننا استخدام ذلك الشيطان الصغير طعماً لاصطياد صوفيا.»

وهنا قال كادر مُحتدّاً:

«أيها المغفل! لماذا لم تقل لنا هذا من قبل؟ إذا أمسكنا بشقيق جوناثان ذاك فيمكننا عندئذٍ استخدامه لدفع جوناثان ليونهارت للخروج من مخبئه. فأنّى كان مكان اختفائه فلابدّ أن يصل إليه الخبر بأنا قبضنا على أخيه.»

وأكمل ڤيدر قائلاً:

«وهذا سوف يدفع جوناثان للخروج من مخبئه. ولا بّد أن يعرض علينا تسليم نفسه في مقابل إطلاق سراح أخيه، إذا كان بالفعل يحرص على سلامة أخيه ويرغب في حمايته من أي سوء.»

هنا شعرت بخوف كبير حتى أنني لم أعد قادراً على البكاء. ولكنّ جوسي نفخ نفسه وقال باعتداد:

«سوف أدبّر هذا الأمر فور عودتي. في وسعي أن أستدرج الصغير كارل ليونهارت إلى كمين. لن يكون هذا صعباً. أستطيع أن أفعل هذا بقليل من

الكعك. وعندئذٍ نستطيع أن نخدع صوفيا لكي تحاول إنقاده.»

قال كادر:

«أليست صوفيا أذكى من أن تخدعها؟ هل تعتقد أن بإمكانك أن تخدعها حقاً؟»

أجاب جوسي:

«نعم، نعم بالتأكيد. بل إنها لن تعرف من دبّر ذلك. إنها تثق بي.»

هنا كان جوسي قد بلغ حداً كبيراً من الإعجاب بنفسه جعله يطلق ضحكة خفيفة ويقول:

«عندئذٍ ستحصلون على صوفيا وليونهارت الصغير معاً. كم جواداً سوف يعطيني تنغل في مقابل هذه الخدمة، حينما يزحف داخلاً وادي الكرز؟»

قلت في نفسي: «سنرى يا جوسي. هكذا إذن! عندما تعود ستعمل على استدراج كارل ليونهارت إلى كمين! ولكن إن لم تجده في وادي الكرز، فماذا عساك تفعل؟»

في غمرة هذا الموقف الصعب، وجدت شيئاً ما يفرحني. ذلك هو خيبة الأمل التي ستصيب جوسي عندما يكتشف أنني اختفيت من وادي الكرز.

ثم قال جوسي:

«إن الصغير كارل ليونهارت فتى لطيف، ولكنه بالتأكيد ليس أسداً. ليس هناك ما هو أسهل من إخافته. ربّما كان الأنسب أن يوصف بالأرنب.».

نعم، كنت أعرف نفسي، وأعرف أنني لا يمكن أن أكون شجاعاً في يوم ما مثل جوناثان، ومع ذلك فقد أغاظني كثيراً أن أسمع جوسي يقول ذلك. وشعرت بالخجل من نفسي بينما كنت أستلقي في مكاني هناك، وطفقت أردّد على نفسي أنني يجب، يجب أن أكون أكثر شجاعةً، ولكن ليس الآن في الوقت الذي أشعر فيه بخوف شديد.

وأخيراً توقف جوسي، إذ لم يعد عنده ما يتفاخر به، ولذا انتصب واقفاً وقال:

«يجب أن أعود إلى بيتي قبل انبلاج الصبح.»

إلا أن ڤيدر وكادر ظلاً يحرّضانه حتى آخر لحظة، فقال ڤيدر: «إياك أن تخفق في تدبير أمر صوفيا وذلك الأخ الصغير!»

أجاب جوسي:

«اعتمد عليّ. ولكن يجب ألاّ تؤذوا الصبّي، فأنا أهتم به بعض الشيء.»

قلت في نفسي: «شكراً، لقد لاحظت ذلك!»

وقال كادر: «وإياك أن تنسى كلمة السرّ إذا جئت إلى وادي الوردة البرّية مع بعض الأخبار. هذا إذا كنت حريصاً على حياتك!»

قال جوسي وهو يعتلي ظهر حصانه استعداداً للانطلاق:

«المجد والنصر لمحررنا تنغل. لا تخش شيئاً، إنني أذكر هذا ليلاً ونهاراً. وأرجو ألاّ ينسى تنغل وعده لي بأن يجعلني زعيم وادي الكرز. لقد وعدني تنغل بهذا. لن ينسى وعده لي، أليس كذلك؟»

أجاب كادر:

« تنغل لا ينسى شيئاً. »

ثم انطلق جوسي مبتعداً ليختفي بالطريقة التي جاء بها، بينما جلس ڤيدر وكادر هناك يراقبانه وهو يبتعد ثم يختفي.

قال ڤيدر:

« يا للرجل المغفل! سنرسل به إلى كاتلا بعد أن نفرغ من أمر وادي الكرز. »

قال ذلك بأسلوب يعبرّ عن المصير الذي ينتهي إليه كل من يقع تحت تأثير تنغل وسلطته. لم أكن قد عرفت إلاّ القليل عن كاتلا، ولكن مجرد التفكير في الموضوع جعلني أرتعش حتى كدت أشعر بشيء من الأسف تجاه جوسي، على الرغم من خيانته.

بدأت النار تخبو رويداً في تلك الفسحة، وتمنيت أن يرحل ڤيدر وكادر قريباً ويختفيا من المكان. وكالفأر في المصيدة تشوّقت إلى الحرّية. وتمنيت لو كان في استطاعتي أن أُخْرِجَ حصانيهما من الكهف قبل أن يدخل أحد لإخراجهما، وبذلك يمكن أن يمتطيا الحصانين وينطلقا من غير أن يدركا كم كان من السهل عليهما القبض على الشقيق الصغير لجوناثان ليونهارت.

ولكن، سمعت كادر يقول:

« دعنا ندخل الكهف لننام برهة من الوقت. »

قلت في نفسي: « إذن فقد حلّت نهايتي. ومع ذلك فليكن، فلم يعد باستطاعتي الاحتمال أكثر من هذا. فليأتيا إذن وليضعا نهاية لهذا العذاب. »

ولكن ڤيدر أجاب قائلاً:

«ولماذا النوم؟ قريباً ينبلج الصبح، وقد مللت هذه الجبال. أريد العودة فوراً الى وادي الوردة البريّة.»

واضطر كادر للموافقة وقال:

«كما تحبّ. أخرج الحصانين.»

أحياناً، عندما يجد الإنسان نفسه في خطر ماحق، فإنه يتصرّف فيما يبدو بسرعة خاطفة لإنقاذ نفسه دون تفكير مطوّل. قذفت نفسي إلى أبعد مكان إلى الخلف وتكوّمت في الزاوية الأشدّ ظلمة من الكهف، كما يمكن أن يفعل حيوان صغير خائف. رأيت فيدر يدخل الكهف، ولكنه ما لبث أن صار في بقعة شديدة الظلمة، ولم يعد بإمكاني رؤيته، وإنما أستطيع سماعه فقط. وفي هذا ما يكفي من السوء.

كذلك لم يكن باستطاعته أن يراني. ولكنْ، خيّل إليّ أنه يستطيع أن يسمع خفقات قلبي من شدّة الرعب، في انتظار أن يكتشف وجود ثلاثة جياد بدلاً من اثنين.

صهلت الخيول قليلاً لدى دخول ڤيدر. صهلت ثلاثتها ومن بينها حصاني فيالار.

في وسعي أن أميّز صهيل فيالار من بين ألف جواد آخر، ولكن المغفل ڤيدر لم يلحظ أي فرق، بل إنه لم يلحظ وجود ثلاثة جياد في الكهف. سحب أقرب اثنين من مدخل الكهف، ولحسن الحظ كان هذان جواديهما، وخرج بهما.

وفي اللحظة التي صرت فيها وحدي مع فيالار، أسرعت إليه ووضعت يدي على أنفه: حافظ على الهدوء يا عزيزي فيالار، لا تصدر

صـــوتاً.

دعوت من أعماق قلبي ألاّ يصهل، ذلك أنه لو فعل لسمعاه في الخارج واكتشفا الأمر. ولكن فيالار كان من الذكاء بحيث فهم كل شيء. وصهل الحصانان الآخران وكأنهما يريدان أن يقولا «وداعاً»، إلاّ أن فيالار لم يردّ وبقي صامتاً وهادئاً.

رأيت ڤيدر وكادر يعتليان الجوادين. ولا أستطيع أن أصف مدى سعادتي بذلك في تلك الحظة. أخيراً سأكون حراً وسأخرج من مصيدة الفئران هذه. على أن ڤيدر عاد ليقول:

«لقد نسيت علبة أدوات قدح النار.»

وهكذا قفز نازلاً عن جواده، وبدأ في البحث حول النار، ثم قال:

«ليست هنا. لعلّي قد أسقطتها في داخل الكهف.»

هكذا عادت مصيدة الفئران لتطبق عليّ من جديد إطباقاً محكماً لا فرار منه.

وبهذا قُبض عليّ. دخل ڤيدر الكهف ليبحث عن علبة أدوات القدح فوجد نفسه أمام حصاني فيالار.

أعرف أنه لا ينبغي للإنسان أن يكذب، ولكنْ إذا كانت المسألة مسألة حياة أو موت، فلربما كان ذلك ضرورة لا مناصَ منها.

كان ڤيدر يتمتع بساعدين قويتيّن، فقد رفعني وضغط عليّ بشدّة لم أعرف مثلها من قبل. وقد تألمت وانتابني غضب شديد تفوّق على خوفي. وكان هذا غريباً حقاً. ولعلّي لذلك أتقنت الكذبة.

هدر ڤيدر وهو يسحبني خارج الكهف وقال:

«منذ متى وأنت مستلق هناك تتجسس علينا؟»

أجبت:

«منذ الليلة الماضية. ولكني كنت نائماً فقط.»

قلت ذلك وأنا أطرف بعينيَّ بين الفتح والإغماض في ضوء الصباح كمن استيقظ للتّو من نومه.

قال ڤيدر:

«كنت نائماً طوال الوقت؟ هل تريد القول إنك لم تسمعنا نغنّي ونرفع أصواتنا هنا بجانب النار؟ إياك أن تكذب الآن!»

وظنّ بذلك أنه يستطيع خداعي بمكره، فالحقيقة أنهما لم يغنّيا إطلاقاً، ولكني كنت أكثر دهاءً منه. فأجبت:

«ربّما.. أعني.. ربما سمعت قليلاً من غنائكما.»

قلت ذلك متلعثماً لأوحي له أنني أكذب قليلاً لأحوز رضاه.

عندئذ تبادل ڤيدر وكادر نظرة متمعّنة، فلقد تأكّد لهما الآن أنني بالفعل كنت نائماً طوال الوقت ولم أسمع شيئاً.

ولكنّ هذا لم يعفني كثيراً، إذ عاد ڤيدر ليقول:

«ألا تعلم أن عقوبة الإعدام تنتظر من يعبر هذا الطريق؟»

حاولت الظهور بمظهر الجاهل الذي لا يعرف شيئاً عن أي شيء، لا عن عقوبة الإعدام ولا عن أي شيء آخر. فغمغمت قائلاً:

«كنت أرغب في مشاهدة ضوء القمر في الليلة الماضية. هذا كل ما في الأمر.»

قال ڤيدر:

«وتخاطر بحياتك من أجل هذا أيها الثعلب؟ أين تعيش؟ في وادي الكرز أم في وادي الوردة البريّة؟»

أجبت:

«في وادي الوردة البريّة.»

كان لا بد أن أختار هذه الإجابة، لأن كارل ليونهارت يعيش في وادي الكرز، وكنت أفضل الموت على أن أخبرهما بحقيقة شخصي.

وسأل ڤيدر:

«ومن أبواك؟»

قلت: «إنني أعيش مع... مع جدّي.»

قال ڤيدر:

«ومن جدّك؟»

حاولت أن أبدو أكثر غباءً فقلت:

«أنا أناديه جدّي فقط.»

وعاد ڤيدر يسأل:

«وأين يعيش في وادي الوردة البريّة؟»

قلت: «في... في بيت صغير أبيض.»

قلت هذا لأنني قدّرت أن البيوت في وادي الوردة البريّة جميعها بيضاء، كما هي حال البيوت في وادي الكرز.

قال ڤيدر:

«سترينا جدّك ذاك وبيته الأبيض. هيا اركب حصانك معنا.»

وهكذا مضينا معاً. وفي هذه اللحظة بزغت الشمس من وراء جبال

نانجيالا، وبدت السماء مضرّجة بحمرة الشفق وكأنها تشتعل بنار عظيمة براقة. وكانت قمم الجبال تتوهج في ضوء الشمس. وكان المنظر رائعاً لم أرَ في حياتي في مثل جماله وروعته. ولولا رؤيتي لكادر ومؤخرة حصانه الأسود أمامي لشعرت بالنشوة والابتهاج. ولكن، لم يكن ذلك ممكناً في مثل هذا الظرف، لا لم يكن ذلك ممكناً.

ومضينا في طريق مليء بالالتواءات والانعطافات، ولكنه ما لبث أن استقام منحدراً على التلّة. وهنا أدركت أننا نقترب من وادي الوردة البريّة. ومع ذلك أصابتني دهشة عارمة حين أبصرته أسفل منا. فلقد كان في مثل جمال وادي الكرز. وكان يتمدّد هناك في ضوء الصباح بدوره الصغيرة ومزارعه ومنحدراته الخضراء ومروجه المزهرة بالورود البريّة. كانت هناك مسطحات شاسعة من الورود البريّة. وبدت هذه غريبة المنظر من مكاننا المرتفع، فقد كانت أشبه ما تكون بزبد زهري تحمله أمواج خضراء. نعم، لقد كان اسم وادي الوردة البريّة هو الاسم المناسب لمثل هذا الوادي.

ولكن، ما كان بإمكاني وحدي دخول ذلك الوادي من غير أن يتقدّمني ڤيدر وكادر. فقد كان هناك سور عالٍ فرض تنغل على الناس بناءَه. ذلك أنه أرادهم بمثابة رقيق مسجونين داخل السور إلى الأبد. لقد أخبرني جوناثان بهذا من قبل.

ومن الواضح أن ڤيدر وكادر قد نسيا أن يسألاني كيف استطعت الخروج من الوادي المغلق. وقد دعوت اللّه تعالى ألاّ يذكرا هذا أبداً. فماذا عساني أجيب لو سألاني؟ كيف يمكن لأحد أن يتخطّى ذلك السور مع حصانٍ

أيضاً؟

كان باستطاعتي أن أرى رجال تنغل فوق السور يقومون بالحراسة وهم يرتدون الخوذ السود ومعهم السيوف والرماح. وكان هناك حراس آخرون عند بوابة السور الكبيرة التي تقع في النقطة التي ينتهي إليها الطريق الممتد من وادي الكرز.

على مدى قرون طويلة، كان الناس أحراراً في التنقل بين الوديان. أما الآن فليس ثمّة إلاّ بوابة مغلقة لا يستطيع أحد الدخول منها إلا إذا كان من رجال تنغل.

طرق ڤيدر بسيفه على البوابة، فما لبثت أن انفتحت طاقة صغيرة أطلّ منها رأس رجل أشبه بالعمالقة، وصاح:

«كلمة السر!»

همس ڤيدر وكادر كلمة السر في أذنه همساً لكي لا أسمعها بالتأكيد، ولكن هذا لم يكن ضرورياً حقاً، لأنني أعرفها: «المجد والنصر لمحررنا تنغل.»

نظر الرجل المطلّ من طاقة البوّابة نحوي وقال:

«وهذا؟ من يكون؟»

أجاب كادر:

«إنه ولد أبله وجدناه في الجبال، ومع ذلك لا يمكن أن يكون غبياً إلى حدٍ كبير، فقد استطاع أن يعبر من بوابتك الليلة الماضية. فما ردّك على هذا يا كبير الحّراس؟ أعتقد أن عليك أن تسائل رجالك حول طريقتهم في الحراسة في الأمسيات.»

ظهر الغضب على وجه الرجل، وفتح البّوابة، إلا أنه أخد يسبّ ويشتم، وتردّد في السماح لي بالدخول، وقال:

«ضعاه في كهف كاتلا، هناك مكانه الصحيح.»

ولكن ڤيدر وكادر أظهرا عناداً، وأصرا على دخولي معهما لكي أثبت لهما أنني لم أكذب عليهما. وذكرا أن هذا جزء من واجبهما تجاه تنغل.

وهكذا دخلت على حصاني بمرافقة ڤيدر وكادر.

عندئذٍ خطر لي أنني إذا رأيت جوناثان من جديد، فسوف أقص عليه كيف ساعد ڤيدر وكادر في دخولي إلى وادي الوردة البريّة. وقدّرت أن ذلك سيكون مثار ضحكه لوقت طويل.

ولكني لم أكن أضحك في تلك الساعة، إذ كنت أدرك فداحة الخطب الذي أنا فيه. فقد كان عليّ أن أدلهم على البيت الأبيض الذي ادعيت أنني أعيش فيه، وعلى الجد الذي زعمت أنني أقيم معه هناك. وبخلاف ذلك لا بّد أن أنتهي في كهف كاتلا المخيف.

قال فيدر:

«هيا تقدمنا وأرنا الطريق إلى بيت جدّك، إذ سيكون لنا معه حديث طويل.»

كان هناك الكثير من البيوت البيضاء على نحو ما هو موجود في وادي الكرز. ولكني لم أرَ واحداً أستطيع الإشارة إليه، لأنني لم أكن أعرف من يعيش في تلك البيوت. لم أجرؤ على القول: «هناك يعيش جدي». فماذا لو دخل ڤيدر وكادر إلى البيت الذي أشير إليه ثم لم يجدا عجوزاً واحداً - عجوزاً يرضى أن يقول إنه جدّي.

هنا صرت في حالة يرثى لها حقاً، وتصببت عرقاً بينما تابعت التقدّم. لقد كان من السهل عليّ أن أخترع حكاية الجدّ هذه. ولكنها لم تعد تبدو لي الآن فكرة جيّدة.

رأيت أناساً يعملون أمام بيوتهم، ولكني لم أرَ واحداً منهم يشبه أن يكون جداً. وهكذا بدأت أزداد تأزماً وخوفاً. كذلك هالني أن أرى مظاهر البؤس على وجوه الناس في وادي الوردة البريّة. فقد كانت مظاهر الشحوب والجوع والتعاسة بادية على وجوههم. لقد كانوا على الطرف النقيض من سكان وادي الكرز. والسبب واضح طبعاً. فلا يوجد في وادي الكرز طاغية مثل تنغل يستعبد الناس ويسلبهم كل ما يعتاشون به.

تابعت المسير بحصاني حتى بدأ ينفد صبر ڤيدر وكادر، ولكني مع ذلك تابعت المسير وكأنني أمضي في طريقي إلى نهاية العالم.

قال ڤيدر: «أما يزال المكان بعيداً؟

قلت: «لا، ليس بعيداً» ولكني لم أدرك ماذا أقول وماذا أفعل. في هذه اللحظة، كان قد بلغ مني الخوف مبلغاً عظيماً، وشعرت بأن إرسالي إلى كهف كاتلا قد صار أمراً وشيكاً.

ثم حدثت المعجزة! صدقوا أو لا تصدّقوا، لقد وقع بصري على عجوز يجلس على مقعد خشبي ملاصق لجدار بيته الأبيض، وكان ينثر الحبّ لحماماته. ربّما لم أكن لأجد الجرأة على فعل ما سأفعله لولا أنني رأيت حمامة واحدة ناصعة البياض كالثلج بين الحمامات الأخرى التي كانت جميعها رماديّة اللون - حمامة واحدة فقط.

فاضت عيناي بالدموع، إذ لم أرَ مثل هذه الحمامة البيضاء إلاّ عند





صوفيا، إضافة إلى تلك الحمامة التي حطت على نافذتي منذ زمن طويل، في عالم آخر.

عندئذٍ فعلت شيئاً لم يسمع به أحد من قبل. قفزت عن صهوة حصاني فيالار إلى الأرض، وفي قفزتين أخريين كنت عند الرجل العجوز. ألقيت نفسي على صدره وطوقت عنقه بذراعيّ وهمست بأذنه مدفوعاً بموقفي اليائس:

«ساعدني! أنقذني! قل إنّك جدّي!»

كنت خائفاً، ولم يكن عندي شك أنه سيدفعني بعيداً عنه عندما يرى ڤيدر وكادر ورائي يضعان خوذتيهما السوداوين. لماذا يكذب من أجلي ويخاطر بنفسه مما قد ينتهي به في كهف كاتلا الرهيب؟

ولكنه لم يدفعني بعيداً. بل ضمنّي بقوّة، وشعرت بذراعيه حولي تَشعّان طيبة وكأنهما حِرزٌ يقيني الشرور كلها.

قال بصوت عالٍ لِيُسْمِعَ ڤيدر وكادر:

«أيها الصبي الصغير، أين كنت كل هذا الوقت؟ وماذا فعلت أيها الطفل التعس لتعود بصحبة هذين الجنديين؟»

ياالجدّي الجديد المسكين! لقد كان عليه أن يتلقى توبيخاً قاسياً من ڤيدر وكادر. لم يدّخرا جهداً في توبيخه وقالا له ان عليه أن يراقب أحفاده ويضبط تصرّفاتهم. أما إذا تركهم يهيمون في جبال نانجيالا فسوف ينتهي بلا أحفاد إطلاقاً، وسيلقى ما لا ينساه أبداً. وأخيراً قالا إنهما سيغضان الطرف هذه المرّة - آه، أخيراً قالا ذلك، ثم انطلقا بجواديهما وأخذا بالابتعاد حتى بدت خوذتاهما مثل نقطتين سوداوين على سفح

التلّة أسفل منا.

عندئذ بدأت بالبكاء. كنت ما أزال في حضن جدّي وأنا أبكي وأبكي بلا انقطاع. فقد كانت تلك الليلة طويلة وقاسية، ولكنها انتهت الآن. وتركني جدّي أنفس عن صدري بالبكاء، إلا أنه كان يهدهدني ويهزنّي بعطف. وتمنيت لو كان جدّي حقاً.. آه لكم تمنيت ذلك. وقد حاولت أن أقول له هذا على الرغم من بكائي المتواصل.

قال: «حسناً، ربّما كان بالإمكان أن أكون جدّك، إلا أن اسمي هو ماثياس، فما اسمك أنت؟»

بدأت بالقول: «كارل ليو-» وهنا توقفت ولم أكمل العبارة. فكيف يمكن أن أكون مغفلاً حتى أبوح باسمي هنا في وادي الوردة البريّة؟

استدركت وقلت: «جدّي العزيز! اسمي سرّ لا أستطيع البوح به. ادعني رسكي.»

قال ماثياس وهو يضحك ضحكة خفيفة: «آه، رسكي إذن! ادخل إلى المطبخ يا رسكي وانتظرني هناك. سآخذ جوادك إلى الأسطبل أولاً.»

وهكذا دخلت المطبخ. كان مطبخاً صغيراً فقيراً. ولم يكن فيه إلا أريكة خشبيّة وبضع كراسٍ وموقد. كذلك كانت هناك خزانة ملاصقة لأحد الجدران.

ما لبث ماثياس أن جاء فقلت:

«لدينا خزانة حائط كهذه في مطبخ بيتنا في وادي الكر-» وتوقفت هنا فوراً.

هز ماثياس رأسه وقال: «في وادي الكرز». نظرت إليه بقلق -

هـا أنـذا مـرّة أخرى أقـول مـالا ينبغـي قـولـه.

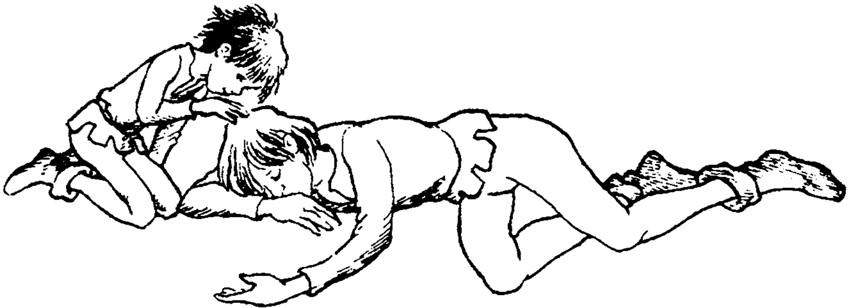
ولكن ماثياس لم يقل شيئاً آخر. ذهب إلى النافذة ونظر منها إلى الخـارج وبقي على ذلك وقتـاً طـويلاً كأنـه يريد أن يتـأكد من أنـه لا يوجد أحد حـول المكان.

ثم استدار إليّ وقال بصوتٍ خفيف:

«ولكنْ، هناك شيء خاصّ يتعلّق بخزانة الحائط تلك، انتظر قليلاً وسوف ترى.»

دفع بكتفه الخزانة جانباً، فظهر باب في الحائط. فتحه وإذا هناك غرفة صغيرة جداً في الداخل. كان هناك شخص ما يستلقي نائماً على الأرض.

لقد كان هذا جوناثان.



الفصل التاسع

لا أذكر أنه قد مرّت عليّ مناسبات سابقة كثيرة شعرت فيها بهذا القدر من السعادة، حتى أنني لم اعرف ماذا أفعل بنفسي. أذكر مثلاً سعادتي الغامرة حين كنت صغيراً وأهداني جوناثان زلاّجة بمناسبة العيد، كان قد وفرّ ثمنها على مدى وقت طويل. وأذكر كذلك الوقت الذي وصلت به إلى نانجيالا ووجدت فيه جوناثان عند الجدول، ثم الأمسية الأولى المدهشة التي قضيناها معاً في مزرعة الفرسان، فقد بلغت سعادتي في تلك المناسبة حداً لم أستطع معه السيطرة على نفسي. ومع ذلك كلّه، فلا شيء، لا شيء إطلاقاً يمكن أن يُقارَن بشعوري حين وجدت جوناثان مستلقياً على الأرض في ذلك المكان عند ماثياس. أي شعور طاغٍ بالسعادة ذاك! شعرت كأنني أضحك عالياً من أعماق روحي.

لم ألمس جوناثان ولم أوقظه. لم أطلق صيحة الفرح الغامر ولم أخرج عن طوري، كل ما فعلت هو أنني استلقيت بجانبه وذهبت في النوم.

كم قضيت من الوقت نائماً؟ لا أدري - ربما طول النهار. ولكن عندما استيقظت - نعم عندما استيقظت وجدت جوناثان جالساً على الأرض بجواري. كان يجلس هناك مبتسماً. لا أحد يبدو في مثل طيبته حينما يبتسم.

كنت أحسب أن مجيئي لن يسّره، حتى أنه يمكن أن ينسى أنه طلب المساعدة، ولكن أستطيع الآن أن أرى أنه سعيد بوجودي مثل سعادتي بلقياه. ولذا فقد ابتسمت له أيضاً. ومكثنا برهة جالسَيْن نتبادل النظر من

غير أن نقول شيئاً.

أخيراً قلت: «لقد دعوتني لمساعدتك.»

هنا توقف جوناثان عن الابتسام.

قلت: «لماذا دعوتني؟»

كان من الواضح أنه لا يستطيع التفكير في الموضوع من غير أن يشعر بالضيق. ثم جاء ردّه هادئاً وكأنه يتحمّل على نفسه كي يجيب، قال:

«لقد رأيت كاتلا، رأيت ما فعلته كاتلا.»

ولم أجد من المناسب أن أعذبه بمزيد من الأسئلة عن كاتلا. ولكن كان لا بد أن أخبره قبل أي شيء عن جوسي.

كانت الصدمة عنيفة. وبدا كأنه لا يريد أن يصدق الحقيقة عن جوسي. فقد شحب وجهه شحوباً شديداً وصار على وشك البكاء. ثم قال والدموع تملأ عينيه:

«جوسي! لا، لا، لا، ليس جوسي.»

ثم انتصب واقفاً بسرعة: «يجب إخبار صوفيا فوراً.»

قلت: «كيف يمكن أن تفعل ذلك؟»

قال: «توجد إحدى حمائمها هنا: بيانكا. يمكن أن تطير اليها الليلة.»

نعم، كما توقعت، كانت تلك الحمامة بيانكا! أخبرته أن تلك الحمامة البيضاء هي السبب في أنني الآن معه بدلاً من كهف كاتلا.

قلت: «لقد كانت معجزة حقاً، فمن بين جميع البيوت في وادي الوردة البريّة قادتني قدماي مباشرةً إلى البيت الذي أنت فيه. ولكن لولا وجود

بيانكا في الخارج لما توقفت عند هذا البيت.»

قال جوناثان:«بيانكا، بيانكا، شكراً لوجودك هناك.»

ولكن لم يكن لدى جوناثان وقت آخر يقضيه في الاستماع إليّ، فالسرعة صارت الآن أمراً لازماً.

مرّ بأظفاره على مصراع الباب السريّ محدثاً صوتاً خفيفاً. ولم يمضِ وقت حتى انفتح الباب ودخل ماثياس، وبدأ يقول:

«يا للصغير رسكي! لقد نام نوماً طويلاً كأنه...»

ولكن جوناثان قاطعه قائلاً:

«أحضر بيانكا من فضلك. يجب أن تغادر قبل ظهور الغسق وحلول المساء.»

وشرح السبب مخبراً ماثياس عن حقيقة جوسي، فهز ماثياس رأسه بالطريقة التي يعبر فيها كبار السن عادة عن حزنهم وأسفهم، وقال:

«جوسي! لقد قدّرت أن الخائن لا بّد أن يكون من وادي الكرز نفسه. وهذا هو السبب في أن أورفار يقبع في كهف كاتلا الآن. يا إلهي! ما نوع البشر الذين يوجدون في العالم!»

ثم اختفى لإحضار بيانكا مغلقاً الباب علينا وراءه.

كان المكان مخبأ جيداً - حجرة سريّة ليس لها نافذة ولا باب خارجي غير المدخل السّري الذي يختفي وراء خزانة الحائط. ولم يكن في الحجيرة أثاث، إلاّ فرشة محشوة بالريش تستخدم للنوم وسراج قديم مصنوع من قرن الثور يبدد الظلام قليلاً.

في ضوء ذلك السراج، كتب جوناثان رسالة إلى صوفيا تقول:«إن الخائن

الذي ستقع عليه اللعنة إلى الأبد هو جوسي، الديك الذهبي الصغير. اقبضوا عليه فوراً، أخي الآن هنا معي.»

ثم قال جوناثان: «لقد وصلت بيانكا البارحة إلينا لتخبرنا أنك اختفيت وخرجت لتبحث عنيّ.»

قلت: «هذا يعني أن صوفيا قد فهمت اللغز الذي كتبته لها على حائط المطبخ حين جاءت بالحساء.»

سأل جوناثان: «ما هو اللغز؟»

قلت: «لقد كتبت: ذهبتُ للعثور عليه بعيداً بعيداً وراء الجبال.»

ثم قلت: «فعلت ذلك لكي لا تقلق صوفيا.»

ضحك جوناثان وقال: «لكي لا تقلق!! هذا ما تظنّ، وأنا؟ هل تعتقد أنني جلست مرتاحاً بعد أن علمت أنك هناك في مكان ما من جبال نانجيالا؟»

لابدّ أن الخجل بدا على وجهي، إذ أسرع جوناثان إلى تطييب خاطري قائلاً: «إنك شجاع حقاً يا رسكي، وإنه لمن الرائع أن تذهب إلى الجبال وحدك، وأروع من ذلك أنك هنا الآن.»

كانت هذه المرّة الأولى التي يصفني فيها أحدهم بالشجاعة. ووقع في نفسي أنني إذا مضيت في هذه السبيل، فلربما صار باستطاعتي أن أسمي نفسي ليونهارت على الرغم من جوسي.

ولكني عدت فتذكرت بقية ما كتبت على الحائط بشأن شخص ذي لحية حمراء يريد جياداً بيضاء. ولذا طلبت من جوناثان أن يضيف سطراً إلى الرسالة يقول:

«كارل يقول إن كل ما يتعلق باللحية الحمراء ليس صحيحاً.»

أخبرت جوناثان كذلك كيف أنقذني هربرت من الذئاب. فعلق على ذلك بأنه لن ينسى له ذلك الجميل ما عاش أبداً.

كان المساء قد بدأ يحلُّ على وادي الوردة البريّة حينما خرجنا لإطلاق بيانكا. وبدأت البيوت والمزارع جميعها تشعل الأنوار في المنحدر أسفل منا. وبدت هذه هادئة رائعة في مظهرها الخارجي، حتى لتكاد توحي للناظر أن الناس فيها ينعمون الآن بالجلوس إلى مائدة العشاء أو بتبادل الحديث واللعب مع أطفالهم أو الغناء لهم ونحو ذلك من متع الحياة. ولكننا نعلم أن الحقيقة خلاف ذلك. فالحقيقة التي نعرفها أنهم لا يجدون ما يأكلون وانهم أبعد ما يكونون عن السعادة وراحة البال. وإذا نسي أحدنا هذه الحقائق فإن رجال تنغل الذين يحرسون في أعلى السور يذكرونه بذلك.

لم يكن ثمّة ضوء ينبعث من نوافذ بيت ماثياس. كان المنزل مظلماً يسوده الهدوء، وكأنه لا يوجد فيه ساكن. ولكننا كنا هناك خارج المنزل لا داخله. وكان ماثياس يراقب ويحرس في زاوية المنزل، بينما كنت وجوناثان نزحف بين الورود البريّة ومعنا بيانكا.



كان هناك خمائل من الورد في كل مكان حول منزل ماثياس. وأنا أحب الورود البريّة، إذ إن لها رائحة لطيفة. ليست رائحة قويّة نفّاذة، ولكنها لطيفة. وخطر في بالي أنه لن يكون بإمكاني بعد الآن أن أشم عبير الورود البريّة من غير أن يخفق قلبي بعنف، ومن غير أن أتذكر كيف زحفت وجوناثان بين الشجيرات الملتفّة الكثيفة قريباً جداً من السور، حيث يقف رجال تنغل ينصتون ويراقبون. ولعلّ جلّ اهتمامهم في ذلك الوقت كان منصرفاً إلى شخص يحمل اسم ليونهارت! كان جوناثان قد أخفى وجهه بطلاء أسود وأنزل على عينيه غطاءً للرأس. ويجب أن أقر بأنه لم يعد يشبه نفسه.

ومع ذلك فقد كان الخطر كبيراً. وكان جوناثان يخاطر بحياته كلما غادر تلك الحجيرة السرّية التي تمثل مخبأه. وكان هناك مائة رجل يبحثون عنه أثناء الليل والنهار. وقد أخبرته بذلك فلم يزد عن القول:

«نعم، في وسعهم أن يتابعوا عمل ذلك كما أعتقد.»

لقد أصرّ على أن يطلق بيانكا بنفسه لأنه أراد أن يطمئن أنها طارت من غير أن يلحظها أحد.

كان الحراس قد توزّعوا على أجزاء السور ليحرس كل منهم جزءاً خاصّاً به. وكان هناك حارس سمين يحرس الجزء الذي يقع خلف بيت ماثياس، ولذا كان علينا أن نتنبه له بصورة خاصّة.

ولكنّ ماثياس كان يقف في زاوية منزله وهو يحمل الفانوس المصنوع من القرن، وكان قد اتفق معنا على نظام الاشارات قائلاً:

«عندما أنزل الفانوس إلى الأسفل فيجب أن تمسكا أنفاسكما وتسكنا

تماماً، إذ معنى ذلك أن الحارس السمين دوديك قريب جداً. أما إذا رفعت الفانوس إلى الأعلى، فَمَعنى ذلك أنه قد ابتعد وصار في المكان الذي ينعطف فيه السور. وهو في العادة يتحدّث مع الحارس الآخر الذي يوجد هناك. في هذه اللحظة يجب أن تطلقا بيانكا» وهذا ما فعلناه.

قال جوناثان: «طيري، طيري، طيري يا بيانكا فوق جبال نانجيالا إلى وادي الكرز، واحذري من سهام جوسي.»

لا أدري إذا كانت حمائم صوفيا تفهم اللغة البشريّة حقاً، ولكنني أعتقد أن بيانكا ربّما كانت تفهم ذلك، لأني رأيتها تضع منقارها على خد جوناثان وكأنها تريد أن تطمئنه، ثم طارت بعيداً. التمع بياضها في ضوء الغسق الشاحب، وكان بإمكان دوديك أن يلحظها بسهولة وهي تعلو في الجو وتتخطّى السور. ولكنه لم يرها. ولعلّه كان منشغلاً بالكلام هناك، فلم يسمع ولم يشاهد شيئاً.

كان ماثياس يتابع المراقبة، ولم نره ينزل الفانوس إلى الأسفل.

شاهدنا بيانكا وهي تختفي، وجذبت جوناثان لأني كنت أريده أن يعود إلى مكان اختفائه في أسرع وقت ممكن. ولكن جوناثان لم يرغب في ذلك. لقد كانت أمسية جميلة حقاً، وكان الهواء عليلاً منعشاً. فلم يكن راغباً في أن يزحف عائداً إلى تلك الحجيرة الصغيرة الخانقة. لا أحد يستطيع أن يتفهّم ذلك خيراً منّي أنا الذي قضيت زمناً طويلاً متمدداً ومنعزلاً في مطبخ بيتنا في ذلك العالم البعيد.

جلس جوناثان هناك على العشب وقد لفّ ذراعيه حول ركبتيه، وأخذ ينظر بهدوء متأملاً الوادي أسفل منا. ويكاد يوحي بأنه يفكر في قضاء

الأمسية كلها جالساً هنا بصرف النظر عن العدد الكبير من حراس تنغل الذين كانوا يحرسون السور خلفنا.

قلت: «لماذا أنت جالسٌ هناك.»

أجاب: «لأنني أحب ذلك، لأني أحب هذا الوادي ساعة المساء، وفي وقت الغسق. كذلك أحب أن أحسّ الهواء المنعش على وجهي، وأحب تلك الورود الزهريّة البرّية التي تشيع منها رائحة الصيف.»

قلت: «وأنا كذلك.»

وتابع قائلاً: «وأحب الزهور والعشب والشجر والحقول والغابات والبحيرات الصغيرة الجميلة، وأحب منظر الشمس وهي تبزغ، ومنظرها وهي تغيب، وأحب منظر السماء حين يبرز القمر وتلتمع النجوم، وأحب أشياء أخرى لا أستطيع أن أتذكرها في هذه اللحظة.»

قلت «وأنا كذلك أحب هذه الأشياء جميعاً.»

قال جوناثان: «الناس جميعاً يحبون هذه الأشياء. وإذا كانت هذه هي كلّ ما يطلب الناس، فهل تستطيع أن تخبرني لماذا لا يستطيعون أن ينعموا بالهدوء والسلام من غير أن يأتيهم طاغية مثل تنغل يفسد عليهم كل شيء؟»

لم يكن باستطاعتي أن أجيبه. ثم قال جوناثان:

«هيا، يحسن بنا أن نعود.»

ولكن لم يكن بإمكاننا أن نجري عائدين بلا حساب، إذ كان علينا أولاً أن نتبين واقع الحال عند ماثياس ووضع الحارس السمين.

كان الظلام قد صار شاملاً، ولم يعد في وسعنا أن نرى ماثياس نفسه،

ولكننا نستطيع رؤية الفانوس.

قال جوناثان: «إنه يمسك بالفانوس عالياً، دوديك ليس قريباً منا، هيا.»

ولكن ما إن بدأنا في العدو حتى رأينا نور الفانوس يغطس بسرعة البرق، فكان علينا أن نتوقف فوراً. وسمعنا خيولاً تقترب عَدْواً ثم تخفف السرعة، ثم سمعنا شخصاً يكلم ماثياس.

نقر جوناثان على ظهري نقرة خفيفة وهمس قائلاً:

«هيا، تابع! اذهب إلى ماثياس.»

ثم رمى بنفسه في دغل من شجيرات الورد البريّة، أما أنا فمشيت مرتعداً وخائفاً نحو ضوء الفانوس. وسمعت ماثياس يقول:

«أردت أن أتنفس بعض الهواء المنعش. الطقس جميل جداً هذا المساء.»

وأجابه صوت غليظ فظ قائلاً: «طقس جميل! هه! ألا تعرف أن الخروج بعد المساء يؤدي إلى عقوبة الاعدام؟»

وقال صوت آخر: «جدّ عاصٍ، هذا هو أنت، أين الصبي على أية حال؟»

أجاب ماثياس: «إنه قادم.»

في هذه اللحظة كنت قد صرت قريباً منه، واستطعت أن أميز الرجلين اللذين يمتطيان جواديهما. إنهما ڤيدر وكادر.

قال ڤيدر وقد رآني:

«هل تريد الخروج إلى الجبال الليلة لترى ضوء القمر؟ ذكرني باسمك أيها

الوغد. لم أحفظه.»

قلت:«اسمي رسكي.» جرؤت على ذكر هذا الاسم لأن أحداً لا يعرفه، لا جوسي ولا غيره، باستثنائي واستثناء جوناثان وماثياس.

قال كادر:«رسكي! هه! اسمع الآن يا رسكي، لماذا في رأيك جئنا هنا؟»

شعرت بساقَيّ تضعفان وتخذلانني، وقلت في نفسي:«لقد جاءا ليأخذاني إلى كهف كاتلا. لا بّد انهما ندما على إطلاقي بالتأكيد، والآن جاءا لأخذي، ماذا سيكون غير ذلك؟»

قال كادر:«ألا ترى؟ إننا نتجول في أنحاء الوادي في كل مساء لنتأكد من أن الناس يمتثلون لأوامر تنغل. ولكن يبدو أن جدّك هذا لا يعي الأمور جيداً. ربما كان باستطاعتك أن تشرح له العواقب الوخيمة التي تنتظركما إذا لم تلزما البيت بعد المساء.»

وقال ڤيدر:«ولا تنسَ أيضاً انك لن تفلت منا مرّة أخرى إذا وجدناك حيث يجب ألا تكون، اذكر هذا جيداً يا رسكي. لا فرق عندنا أن يعيش جدّك أو يموت، فهو كبير السنّ، أما أنت فما زلت صغيراً. ولا شك أنك ترغب في أن تكبر وتصبح أحد رجال تنغل، أليس كذلك؟»

قلت في نفسي:«أنا أصير من رجال تنغل؟ أفضل الموت على ذلك.»

ولكني بالطبع لم أفصح عن هذا على مسمعهما. كنت شديد القلق على جوناثان، ولم يكن من المعقول أن أثير غضبهما. ولذلك قلت بصوت ضعيف:

«بلى، أرغب في ذلك.»

قال ڤيدر: «جيد، إذن يمكنك أن تذهب غداً صباحاً إلى المرسى الكبير حيث سيكون بإمكانك أن ترى تنغل محرر وادي الوردة البريّة. فهو يعتزم أن يقطع غداً نهر الأنهار العظيمة بمركبه الشراعي الذهبّي، إلى المرسى الكبير.»

ثم تأهبا للمغادرة، إلا أن كادر كبح جماح حصانه في آخر لحظة وتوقف ليصيح بماثياس الذي كان قد قطع نصف الطريق إلى المنزل:

«أنصت أيها العجوز! هل رأيت شاباً وسيماً أشقر الشعر يدعى ليونهارت في أي مكان؟»

كنت أمسك بيد ماثياس في هذه اللحظة فشعرت بيده ترتجف، ولكنه قال محافظاً على هدوئه:

«لا اعرف أحداً باسم ليونهارت.»

قال كادر: «لا تعرف! على أي حال، إذا اتفق أن قابلته فأنت تعرف ماذا ينتظر كل من يؤويه أو يتستر عليه! عقوبة الاعدام.»

ثم اغلق ماثياس باب المنزل وراءنا. وعلق قائلاً بعد أن صرنا وحدنا داخل البيت:

«الإعدام هنا، والإعدام هناك. هذا كل ما يفكر به هؤلاء الناس.»

وما كاد وقع حوافر الجوادين يختفي من مسامعنا، حتى خرج ماثياس من جديد وبيده الفانوس. وما لبث جوناثان أن ظهر عائداً وقد امتلأ وجهه ويداه بالخدوش التي أحدثتها أشواك الورد، الا انه كان سعيداً لأن

الأمور وقفت عند هذا الحدّ، ولأن بيانكا تطير الآن بأقصى عزمها فوق الجبال.

بعد ذلك تناولنا العشاء في مطبخ ماثياس، وتركنا مدخل المخبأ مفتوحاً كي يكون بإمكان جوناثان أن يختفي فيه بسرعة إذا اقتضى الأمر.

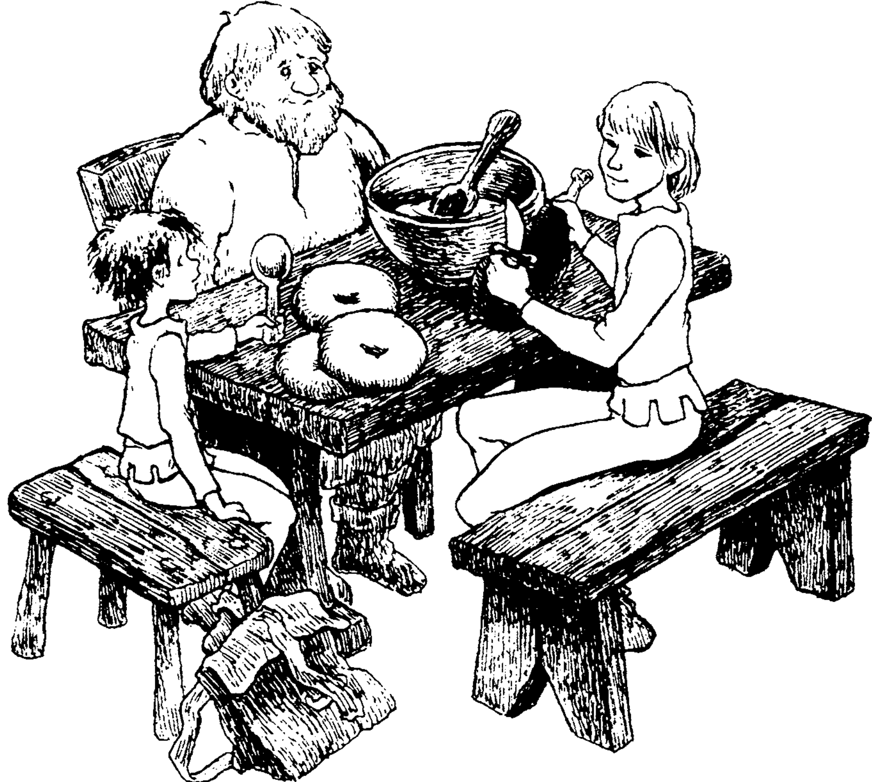
ولكنا ذهبنا الى الأسطبل قبل ذلك وقمنا بعلف جوادينا. كان رائعاً أن نراهما من جديد واقفين وقد تلامس رأساهما. أظنّ أنهما كانا يتبادلان الحديث عن كل ما جرى. قدّمت لكل منهما شعيراً. في بادئ الأمر حاول جوناثان أن يمنعني من ذلك، إلا أنه عاد فقال:

«لا بأس هذه المرّة فقط. ولكن لم يعد من الجائز إطعام الخيول شعيراً في وادي الوردة البريّة.»

عندما عدنا إلى المطبخ، وجدنا ماثياس قد وضع إناء الحساء على الطاولة، وقال: «ليس عندنا غيره، ومعظمه ماء. ولكنه ساخن على الأقلّ.»

عندئذ قمت أبحث عن كيسي متذكراً ما فيه. وعندما استخرجت كل ما فيه من أرغفة الخبز واللحم المدّخن شهق جوناثان وماثياس وبدأت عيونهما تلتمع من جمال المفاجأة. وغمرني شعور رائع لأن بإمكاني أن أقدم لهما ما يعتبر بمثابة مائدة حافلة. قطعت اللحم في شرائح غليظة، وأكلنا الخبز واللحم مع الحساء. أكلنا وأكلنا من غير أن يتحدث أحدنا لوقت طويل. ثم قال جوناثان أخيراً:

«آه، ما أروع أن يكون لدينا طعام كافٍ! لقد كدت أنسى كيف يكون الشبع.»



ازددت سروراً أنني جئت إلى وادي الوردة البريّة. ونما شعوري بأن القرار كان صائباً. ووجدت نفسي مندفعاً إلى أن أقصّ عليهما كل ما حدث معي منذ اللحظة التي امتطيت فيها جوادي إلى أن دخلت وادي الوردة البرّية بمساعدة ڤيدر وكادر. كنت قد أخبرتهما قبل الآن بمعظم القصة، ولكن جوناثان أبدى رغبةً في أن أعيدها على سمعه مرات ومرات، ولا سيّما الجزء الذي يتعلق بـ ڤيدر وكادر. كان يضحك كلما أعدتها على سمعه كما كنت أتوقّع. كذلك فعل ماثياس.

وعلّق ماثياس قائلاً: «رجال تنغل ليسوا على ذلك القدر الكبير من الذكاء، وإن كانوا يعتقدون أنهم كذلك.»

قلت: «بالفعل ليسوا كذلك. حتى أنا كان باستطاعتي أن أخدع ڤيدر وكادر. تصوّرا فقط لو أنهما عرفا أن الأخ الصغير الذي كانا يريدان

أكثر من أي شيء آخر أن يقبضا عليه هو نفس الصبّي الذي ساعداه في دخول وادي الوردة البريّة ثم تركاه هكذا. »

عندما قلت هذا بدأت أفكّر. لم يخطر هذا في بالي من قبل، ولكني الآن سألت:

« كيف تمكنت من دخول وادي الوردة البريّة يا جوناثان؟ »

ضحك جوناثان وقال: « لقد قفزت وحسب. »

قلت متعجباً: « ماذا تعني بأنك قفزت؟.. بالتأكيد لم تفعل ذلك بحصانك غريم؟ »

أجاب: « بل هو كذلك. ليس عندي حصان غيره. »

كنت أعرف قدرة جوناثان على القفز بجواده غريم، فقد رأيته قبل ذلك يقفز به قفزات عظيمة رائعة، ولكن أن يقفز به من فوق سور وادي الوردة البريّة، فهذا أعظم من كل تصورّ.

على أن جوناثان قال مفسراً: « لم يكن السور قد اكتمل رفعه إلى علوه الحالي في كل المناطق، ومع ذلك فقد كان عالياً بما فيه الكفاية بالتأكيد. »

قلت: « ولكن ماذا عن الحرّاس! ألم يرك أيّ منهم؟ »

قضم جوناثان من الخبز وضحك من جديد، وقال:

« بلى رأوني، ولاحقتني ثلةٌ كاملة منهم، وأصاب سهم مؤخّرة حصاني غريم. ولكنّي استطعت الإفلات، وتلقاني أحد الفلاّحين وأخفاني مع الحصان في حظيرته. وفي الليل أحضرني هنا عند ماثياس.الآن قد عرفْتَ كل شيء. »

اعترض ماثياس قائلاً: «لا، إنك لا تعرف كلّ شيء. أنت لا تعرف مثلاً أن الناس هنا قد صاروا ينشدون أغاني يمجدون بها جوناثان وقفزاته البطولية. إن وصوله إلى هنا هو الشيء الوحيد الحسن الذي حدث في وادي الوردة البريّة منذ أن غزانا تنغل واستعبدنا. إن الناس يغنون «جوناثان هو مخلصّنا، لأنه هو الذي سيحرّر وادي الوردة البريّة. صدّقني، أنا أعتقد هذا أيضاً. الآن أنت تعرف كل شيء.»

قال جوناثان: «إنك لا تعرف كل شيء أبداً، أنت لا تعرف أن ماثياس هو الذي يقود المقاومة السريّة في وادي الوردة البريّة بعد أن صار أورفار في كهف كاتلا. ينبغي على الناس هنا أن يدعوا ماثياس مخلصهم بدلاً مني.»

قال ماثياس: «لا، لقد بتّ كبير السن. لقد كان ڤيدر مصيباً حين قال إن حياتي وموتي سيّان.»

قلت: «يجب الاّ تقول هذا، لأنك جدّي.»

قال: «لابأس إذن، هذا ما سوف أتابع العيش من أجله، ولكني أكبر سناً من أن استمرّ في قيادة الكفاح. يجب أن تكون شاباً فتياً لكي تقوم بهذه المهمّة.»

ثم تنهّد وقال: «ليت أورفار كان هنا، ولكنه في كهف كاتلا إلى حين تقديمه إلى كاتلا.»

رأيت وجه جوناثان ينقلب شاحباً وغمغم قائلاً:

«سنرى، سنرى من الذي ستحصل عليه كاتلا في النهاية.»

ثم قال:

«علينـا الآن أن نبـدأ العمل، أنت لا تعرف كذلك يا رسكي أننا هنا في هذا الكوخ ننام في النهار ونعمل في الليل، هيّا، سأريك.»

تقدّمني زاحفاً عبـر مدخل الحجيرة السريّة، وهناك أراني شيئاً. فقد رمى فرشة الريش التي نمنا عليها جانباً، ونزع لوحين عريضين غير ثابتين من أرض الغرفة تحتها.

هناك، رأيت حفرة سوداء تنزل مباشرة في الأرض.

قال جوناثان: «هنا يبدأ طريقي السريّ تحت الأرض.»

سألت: «وأين ينتهي؟» وكنت أتوقع الجواب.

قال: «ينتهي في الأرض الواقعة خلف السور. سيصل النفق إلى هناك بعد اكتمال العمل في شقّه. أعتقد أنه سينتهي بعد يومين آخرين من العمل فيه.»

زحف نازلاً في الحفرة وهو يقول: «يجب أن أحفر مسافة أخرى، إذ لا أريد أن أخرج في نهاية النفق إلى سطح الأرض لأجد نفسي تحت الحارس السمين دوديك.»

ثم اختفى. وجلست هناك أنتظر وقتاً طويلاً. عندما عاد آخر الأمر، كان يدفع أمامه «قفة» مليئة بالتراب. رفعها إلي، فتناولتُها منه وسحبتها عبر مدخل الغرفة السريّة إلى ماثياس.

علّق ماثياس قائلاً: «مزيد من التراب لحقلي، ليته كان بإمكاني أن ازرع هناك بعض البازيلاء والفاصوليا، إذن لكان ذلك نهاية جوعنا الطويل.»

قال جوناثان: «هل تعتقد هذا حقاً؟ إن تنغل يصادر تُسْع ما يمكن إن ينتج

حقلك من الفاصولياء، هل نسيت ذلك؟»

قال ماثياس: «أنت مصيب. فطالما بقي تنغل حياً سيبقى الجوع والحاجة في وادي الوردة البريةّ.»

كان على ماثياس أن يتسلل خارجاً بعد لحظات ليفرغ القفة في حقله. وطلب مني ان أبقى بجانب الباب أراقب لدى خروجه. فإذا لحظتُ أي شيء يمكن أن يمثل خطراً، فإن عليّ أن أصفر نغمة معينّة كما طلب مني جوناثان. كان جوناثان قد علمّني تلك الصفرة المميّزة قبل زمن طويل حين كنا نعيش في الأرض. فلطالما كنا نصفر هناك معاً في الأمسيات حين نذهب إلى فراشنا. ولذلك كنت أجيد الصفير.

نزل جوناثان في حفرته من جديد ليتابع الحفر، وقام ماثياس بإغلاق مدخل الغرفة السّرية وأخفاه بخزانة الحائط. ثم قال لي:

«ضع هذا في عقلك يا رسكي، إياك ثم إياك أن تترك جوناثان هناك في الغرفة من غير أن يكون المدخل مغلقاً ومخفياً بخزانة الحائط. تذكر دائماً أنك في بلد يعيش فيه ويحكمه تنغل.»

قلت: «لن أنسى ذلك.»

كان الضوء خافتاً في المطبخ حيث لا يوجد غير شمعة واحدة صغيرة تشتعل على الطاولة، ومع ذلك قام ماثياس بإطفائها، وقال:

«يجب أن يكون الليل مطبق الظلام في وادي الوردة البريّة. فهناك عيون كثيرة تريد أن ترى ما لا يجب أن ترى.»

ثم أخذ القفة وخرج بها، وبقيت أنا عند الباب المفتوح للمراقبة. كان الظلام مطبقاً كما يريد ماثياس. كانت البيوت مظلمةً، وكانت السماء فوق

وادي الوردة البريّة مظلمةً كذلك. فلم يكنّ ثمة نجوم تلمع هناك ولا قمر يزين السماء. لم يكن في وسعي أن أرى شيئاً. وحدّثت نفسي أنه إذا كنت أنا لا أرى شيئاً في هذه الظلمة الدامسة، فإن عيون رجال تنغل التي تراقب في الليل لا ترى شيئاً كذلك. وكانت هذه الفكرة مبعث راحة لي.

ومع ذلك شعرت بالتعاسة والوحدة في وقفتي هناك منتظراً. وكان الموقف يبعث على الخوف أيضاً. تأخر ماثياس كثيراً. وبدأ قلقي يزداد وينمو مع كل دقيقة تمرُّ دون ان يعود. لماذا لم يعد؟ حدّقت في الظلام. ولكني أحسست أن الظلام قد خف قليلاً. فجأة رأيت بأن العتمة لم تعد شديدة كما كانت. أم تراني قد اعتدت النظر في الظلام؟.

ثم تبيّنت السبب الحقيقي. كان القمر يبرز من خلال الغيم. وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث في تلك الظروف. ودعوت اللّه من أعماق قلبي أن يعود ماثياس في الوقت المناسب بينما العتمة مازالت كافية لإخفائه. ولكن الوقت كان متأخراً، إذ ما لبث القمر أن انكشف تماماً وغمر نوره الوادي كأنه نهر من الضياء.

رأيت ماثياس في ذلك الضوء من بعيد عابراً من بين حقول الورد البريَ وهو يحمل القفّة. ونظرت بقلق في كل اتجاه، فقد كان عليّ أن أحسن المراقبة. وعندئذ رأيت شيئاً آخر دوديك، دوديك السمين، رأيته ينزل السور مستخدماً سلماً من الحبال ووجهه إلى الحائط.

من الصعب أن يصفر الإنسان وهو خائف، ولذا لم تخرج صفرتي بدقّة. ومع ذلك فقد تمكنت بطريقة أو بأخرى من أن أصدر النغمة المطلوبة،

وبسرعة البرق تمكّن ماثياس من الاختفاء وراء أقرب دغل من أدغال الورد البريّ.

في اللحظة نفسها كان دوديك قد صار أمامي. صاح قائلاً:

«لماذا تصفر؟»

أجبت متلعثماً: «لأنني تعلمتّ الصفير اليوم. لم أكن أعرف كيف أصفر قبل ذلك. ولكن تخيّل! فجأة صرت أستطيع أن أصفر اليوم. هل تريدني أن أسمعك؟»

وبدأت أصفر من جديد، ولكن دوديك أسرع فأوقفني:

«لا، إخرس الآن! لا أعرف إذا كان الصفير ممنوعاً، ولكني أتوقع ذلك. لا أعتقد أن تنغل يحب الصفير، وعلى أي حال كان يجب أن تُبْقي بابك مغلقاً كما تعلم.»

قلت: «ألا يحب تنغل ان تُبْقي بابك مفتوحاً؟»

أجاب: «لا تدّس أنفك فيما لا يخصّك. افعل كما تؤمر، ولكن هات لي وعاء من الماء. اكاد أموت من العطش هناك على السور.»

وفكرت بسرعة؛ إذا لحق بي إلى داخل المطبخ واكتشف أن ماثياس غير موجود، فماذا عساه سيفعل؟ مسكين ماثياس! عقوبة الإعدام لمن يوجد خارج بيته في الليل؛ لقد سمعت ما يكفي عن ذلك.

قلت بسرعة: «سآتيك بالماء، ابق هنا وأنا سأحضر لك الماء.»

ركضت داخلاً وتلمست طريقي في الظلام إلى برميل الماء. كنت أعرف الركن الذي يوجد فيه. ثم شعرت بشخص ما يقف ورائي؛ نعم كان يقف هناك في العتمة خلف ظهري مباشرةً، واعتراني رعب شديد.

قال دوديك: «أوقد الشمعة. أريد أن أرى كيف يبدو جحر الفأر هذا.»

ارتعشت يداي، بل ارتعش جسدي كلّه، ومع ذلك تمكّنتُ من إشعال الشمعة.

أخذ دوديك وعاء الماء وأخذ يشرب. شرب وشرب، كأنه بئر لا قعر له. ثم أسقط الوعاء على الأرض، وأجال نظره في المكان بعينيه الصغيرتين المخيفتين، وكانت نظرته تدلّ على الارتياب. ثم سأل السؤال الذي كنت أتوقعه وأخشاه:

«ذلك العجوز ماثياس، ألا يعيش هنا، أين هو؟»

لم أجب. لم أعرف بماذا أجيب. فعاد ليقول: «ألم تسمع ما قلت؟ أين ماثياس؟»

كان عليّ أن أجد ما أقوله فأجبت: «انه نائم.»

قال: «أين؟»

كانت هناك غرفة صغيرة الى جوار المطبخ يضع فيها ماثياس سريره. كنت أعرف هذا، ولكني أعرف كذلك أن ماثياس لا ينام هناك الآن.

أشرت نحو الباب وقلت: «هناك في الداخل.»

قلت ذلك بصوت متحشرج لا يكاد يسمع. كان صوتي ضعيفاً حتى أن دوديك ضحك ساخراً مني وقال:

«أنت لا تجيد الكذب، انتظر بينما أنظر بنفسي.»

كان يبدو مسروراً لاقتناعه بأنني كذبت عليه، واظنّ أنه كان راغباً في إيقاع حكم الاعدام على ماثياس ليحصل بذلك على رضا تنغل وثنائه.

قال: «أعطني الشمعة.» فأعطيته إياها. كنت أرغب في أن أركض عابراً من الباب الخارجي حيث يوجد ماثياس فأطلب منه ان يفرّ مسرعاً قبل فوات الأوان، ولكني لم أستطع التحرك من مكاني، بل بقيت متسمّراً هناك وأنا أشعر بالغثيان لشدّة الرعب.

لحظ دوديك هذا وبدا مستمتعاً بالمنظر. لم يكن مستعجلاً ؛ لا أبداً. بلّ كشّر عن أنيابه وهو يضحك ليزيد من خوفي. ولكن، عندما توقف عن الضحك قال:

«تعال أيها الولد، أرني أين ينام العجوز ماثياس.»

ركل باب الغرفة بقدمه ليفتحه ودفعني أمامه بشدّة حتى أنني تعثرت على العتبة المرتفعة. فدفعني بشدّة من جديد ووقف أمامي وهو يحمل الشمعة بيده.

رفع الشمعة ليضئ الغرفة وهو يقول: «أيها الكذاّب! أرني الآن!»

لم أجرؤ على التحرك أو النظر ؛ وتمنيت لو أنني أذوب وأختفي تماماً، فقد كنت في وضع يائس.

عندئذٍ سمعت في غمرة خوفي وتعاستي صوت ماثياس الغاضب يقول:

«ماالذي يجري هنا ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يحظى بشيء من النوم الهادىء في الليل؟»

رفعت رأسي ونظرت لأرى ماثياس ؛ نعم كان يجلس هناك في سريره في أحلك بقعة مظلمة في الغرفة، وينظر نحو مصدر الضوء. كان يلبس قميصاً فقط، وكان شعره مشعثاً وكأنه كان نائماً منذ وقت طويل، ورأيت القفة إلى جانب الحائط قريباً من النافذة.

لابد أن جدّي هذا كان سريعاً مثل السحليّة.

كدت أشعر بالإشفاق على دوديك، إذ اكتسى وجهه بمظهر البلاهة على نحو لم أر له مثيلاً من قبل، بينما كان يقف هناك ينظر إلى ماثياس مشدوهاً.

ثم قال بتردد: «جئت فقط من أجل شربة ماء.»

قال ماثياس بشقة: «ماء، آه نعم، ماء! عذر جيد! ألا تعلم أن تنغل حرّم عليكم شرب الماء منّا خشية أن نسمّمكم؟ وإذا عدت مرّة أخرى لتوقظني من نومي فسوف أفعل ذلك حقاً.»

تعجبّت كيف يتحدث جدي مع دوديك بتلك اللهجة الصارمة. ولكن، ربّما كان هذا هو الأسلوب المناسب للحديث مع رجال تنغل، إذ إن دوديك قد اكتفى بأن همهم واختفى خارجاً نحو سوره.

الفصل العاشر

لم أكن قد رأيت رجلاً فظّاً قاسياً حقاً حتى رأيت تنغل، حاكم كارمانياكا.

أقبل في مركبه الشراعي الذهبي عبر النهر، بينما كنت أقف هناك مع ماثياس.

كان مجيئي لرؤية تنغل بناء على رغبة جوناثان، فقد قال: «أريدك أن تراه. لأنك بذلك تصبح أكثر تفهماً لواقع الناس هنا، وتستطيع أن تُقدّرَ لماذا يكدح الناس ويجوعون ويموتون دون أن يفارقهم حلم واحد - أن يروا واديهم محرراً من جديد.»

كان تنغل يعيش في قلعة تقع في جبال الجبال القديمة. ولكنه كان بين الفينة والأخرى يقطع النهر إلى وادي الوردة البريّة ليوقع الرعب في قلوب الناس، حتى لا ينسى أيٌّ منهم حقيقته وحتى لا يجرؤ أحدهم على أن يحلم بالحرية. هكذا قال لي جوناثان.

في البدء وجدت صعوبة كبيرة في مشاهدة أي شيء، فقد كان يقف أمامي عدد كبير من جنود تنغل في صفوف لحمايته في أثناء وجوده في وادي الوردة البريّة، وقدّرت أنه يخاف ان يأتيه سهمٌ من مكان خفيّ بينما هو يتجوّل في الوادي. الطغاة كلهم يكونون في حالة خوف دائماً، كما قال لي جوناثان، وتنغل هو أسوأ نوع من الطغاة.

لا، لم نرَ شيئاً في بادئ الأمر، لا أنا ولا ماثياس. ثم فكرت بطريقة. كان الجنود يقفون متلاصقين وقد باعد كل منهم بين

ساقيه. وقدّرت أنني إذا انبطحت على بطني خلف الجنديّ الذي يباعد بين ساقيه بمسافة أكبر، فسيكون بإمكاني أن أرى خلالهما.

ولكني لم أستطع إقناع ماثياس أن يفعل مثلي. إلا أنه قال:

«المهم اليوم أن ترى أنت، وألا تنسى أبداً ما تشاهده اليوم.»

وقد رأيت فعلاً. رأيت قارباً جميلاً مطليّاً بالذهب يعبر النهر نحونا. ورأيت رجالاً يرتدون السواد يجذّفون. كانت المجاذيف أكثر من أن أعدّها، وكانت صفحاتها تلتمع في ضوء الشمس كلمّا ارتفعت عن الماء. كان على المجذّفين أن يبذلوا جهدا كبيراً، فقد كانت هناك تيارات قويّة تجذب القارب. ربما كان ذلك بسبب انحدار الماء بقوّة نحو شلال يصل إليه النهر بعد مسافة من ذلك المكان، إذ كان بإمكاني أن أسمع هدير مياه ساقطة يأتي من بعد.

سألت ماثياس فأجاب قائلاً: «ذلك هدير شلالات كارما. نسميه هنا أغنية شلالات كارما، إنها أغنية المهد هنا في وادي الوردة البريّة - الأغنية التي يستلقي الأطفال وينصتون إليها قبيل نومهم.»

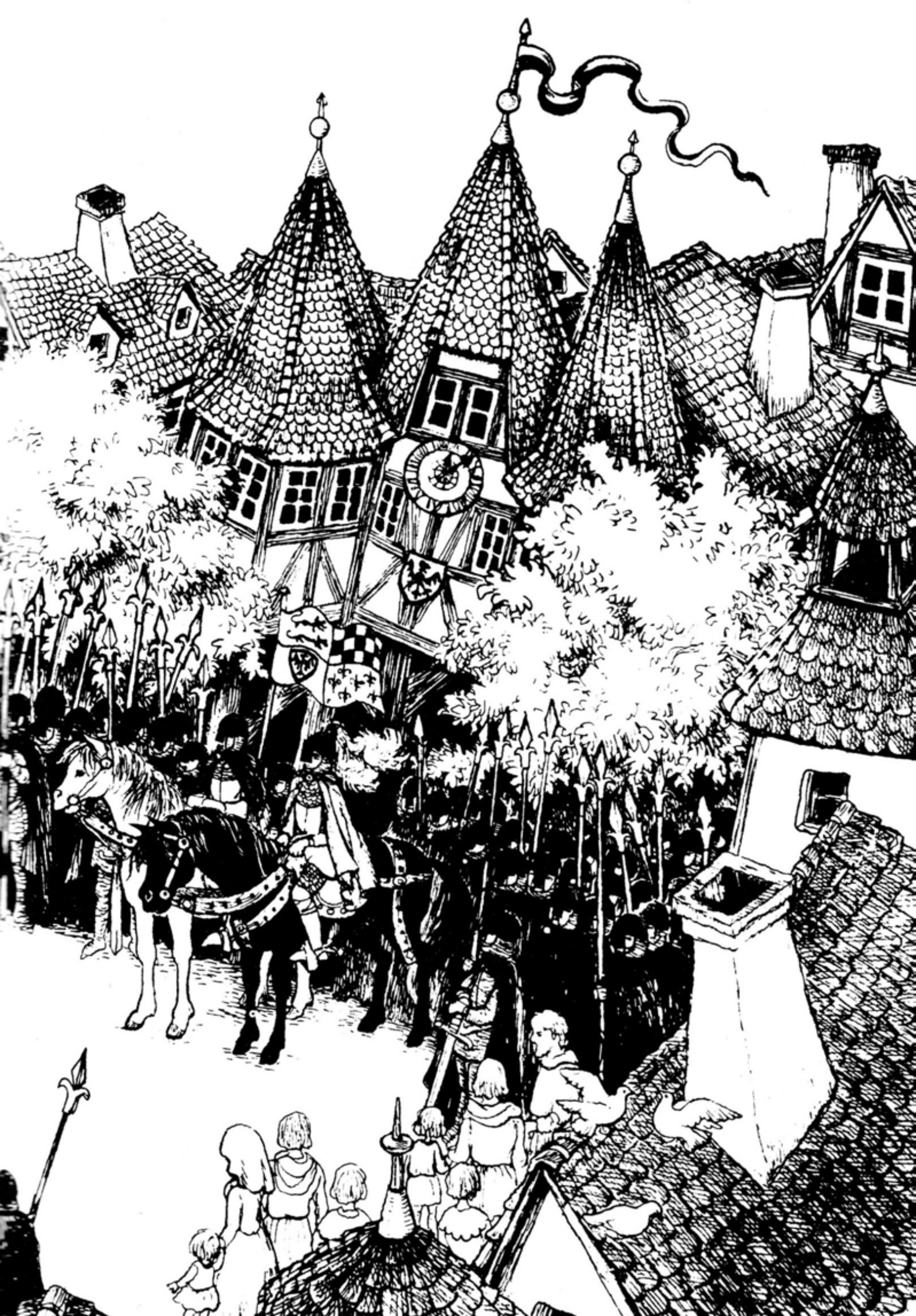
هنا بدأت أفكر بأطفال وادي الوردة البريّة. لابدّ أنهم في يوم ما كانوا قادرين على الخروج والركض واللعب والتراشق بالماء والاستمتاع بالوقت هنا على ضفة النهر. الآن لا يستطيعون عمل ذلك كلّه بسبب السور - السور المخيف الذي يطوّق كل شيء. لم يكن للسور على طول امتداده غير بوابتين: البوابة التي دخلت منها، وتدعى البوابة الرئيسة، وبوابة أخرى تقع بمحاذاة النهر حيث يوجد مرسى خشبيّ خارجها، وهو المرسى الذي وصل إليه الآن قارب تنغل. فُتحَت البوابة من أجل تنغل، ومن خلال الفرجة بين ساقي

الجندي الذي يقف أمامي، ومن خلال المدخل الذي يقوم عليه قوس، رأيت المرسى الخشبي، ورأيت حصان تنغل الأسود ينتظر هناك. كان حصاناً جميلاً حُلّي بسرج ولجام يلتمعان بالذهب. ورأيت تنغل نفسه يخطو ويعتلي الحصان ثم يتقدّم به عبر البوابة. فجأة صار قريباً مني واستطعت أن أرى وجهه القاسي وعينيه القاسيتين. كان قاسياً مثل ثعبان مخيف ضخم كما وصفه جوناثان، وقد كان يبدو كذلك بالفعل. كان كل ما فيه يدل على القسوة وعلى التعطش للدماء. أما الزّي الذي كان يلبسه فقد كان أحمر بلون الدم. كذلك كان الريش الذي يزيّن خوذته أحمر كأنه نقع بالدم. كان يحدّق في الفراغ أمامه في نظرة مستعلية تتجاوز الناس، فلم يكن ينظر إلى الناس، وكأنه لا يرى في الكون غير ذاته - غير تنغل حاكم كارمانياكا، نعم لقد كان رهيباً.

أمِرَ جميعُ سكان الوردة البريّة بالتجمع في ساحة القرية حيث سيخاطبهم تنغل. وهكذا ذهبت مع ماثياس إلى هناك.

كانت ساحة صغيرة وجميلة تحيط بها بيوت قديمة جميلة. وكان الناس جميعاً قد تجمعوا هناك كما أمر تنغل. كانوا يقفون صامتين ساكنين في انتظار ما سيحدث. ولكن، آه، لم يكن من الصعب أن يلحظ الإنسان مدى ما يحسّون من المرارة والبؤس، لابدّ أنهم كانوا قد أمضوا في السابق أوقاتاً ممتعة هنا في الساحة يرقصون ويلهون ويغنون في أمسيات الصيف، أو ربّما جلسوا على المقاعد الخشبية خارج الحانة وتبادلوا الحديث تحت أشجار الليمون.

كان ثمة شجرتا ليمون قديمتان هناك. وقد اختار تنغل أن يقف بحصانه





بينهما. بقي على صهوة حصانه ينظر أمامه فوق الساحة وفوق رؤوس الناس. وأنا على يقين من أنه لم يرَ فرداً واحداً منهم. وكان إلى جانبه رئيس مستشاريه المدعوّ بيوك، وهو رجل مُعْتَد بنفسه كما أخبرني ماثياس. وكان بيوك يمتطي جواداً أبيض يكاد يكون في مثل جمال الجواد الذي يمتطيه تنغل. وقد بقيا على جواديهما في ذلك الوضع وقتاً طويلاً لا يفعلان شيئاً إلاّ أن يحَدقا أمامهما. وكان الجنود يحيطون بهما متأهبين وهم يرتدون الخوذ والمعاطف السود وسيوفهم مسحوبة من أغمادها. كانوا ينضحون عرقاً لشّدة الحرّ، فقد كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وكان اليوم حاراً.

سألت ماثياس: «ماذا تتوقع أن يقول تنغل؟»

أجاب قائلاً: «إنه ليس راضياً عنّا. إنه لا يقول شيئاً آخر أبداً.» ولم يتحدث تنغل بنفسه، فهو يرى نفسه أعلى من أن يحدث الرقيق مباشرةً. ولكنه حدّث بيوك، ثم قام بيوك بتوجيه الكلام إلى الناس معلناً مدى استياء تنغل من سكان وادي الوردة البريّة. فهم لا يبذلون جهداً كافياً في العمل، كما أنهم يحمون خصومه.

قال بيوك: «لم يتّم القبض بعد على ليونهارت، إن زعيمنا الأعظم ليس راضياً إطلاقاً بسبب هذا.»

سمعت شخصاً يهمس إلى جانبي: «نعم، أستطيع أن أرى هذا، أستطيع أن أرى هذا.» كان هناك رجل فقير يقف بجانبي ويرتدي ثياباً رثّة. كان عجوزاً ضئيلاً ذا شعراً أشعث ولحية رماديّة شعثاء. وأكمل بيوك قائلاً: «إن صبر زعيمنا الأعظم بدأ ينفد، وسوف يعاقب وادي الوردة البريّة

بقسوة وبلا رحمة.»

وعاد الرجل العجوز الواقف إلى جانبي يهمس:«نعم، إنه محقٌ في هذا، إنه محق في هذا.» وقدّرت أن هذا الرجل لابّد أن يكون مخبولاً وأن عقله ليس سليماً.

وتابع بيوك:«ولكن زعيمنا الأعظم، انطلاقاً من كرمه وجود نفسه، قرّر أن ينتظر وقتاً قبل أن يصدر الأمر بإنزال العقوبة، بل إنه يعلن أنه سيمنح جائزة تتكوّن من عشرين حصاناً أبيض لمن يقبض على ليونهارت ويسلّمه.»

دقّ العجوز الذي يقف إلى جانبي على خاصرتي وقال:

«إذن فسوف أجد ذلك الثعلب الصغير وأقبض عليه. سأحصل على عشرين حصاناً أبيض من زعيمنا الأعظم؛ آه، تلك جائزة كبيرة لقاء القبض على ذلك الثعلب الصغير.»

شعرت بغضب جارف وبرغبة في ضربه، حتى وإن كان رجلاً معتوهاً.

همست له:«أليس لك عقل؟» عندئذ ضحك وقال:«لا، ليس كثيراً.» ثم نظر إليّ مباشرة ورأيت عينيه؛ لا أحد غير جوناثان له مثل هاتين العينين اللامعتين.

حقاً لقد كان هو. هل فقد عقله حتى يغامر بالمجيء هنا تحت أنظار تنغل؟ ولكن لم يكن في وسع أحد أن يميزّه. حتى ماثياس لم يكن في استطاعته أن يتعرّف عليه حتى ضرب على ظهره وقال:

«أيها العجوز، ألم نتقابل قبل الآن؟»

كان جوناثان يحب التنكّر. فلطالما كان يتنكّر مغيّراً هيئته أمامي في مطبخنا في كثير من الأمسيات، عندما كنا مانزال نعيش على الأرض. كان في استطاعته أن يتخذ أشكالاً مختلفة غريبة طريفة تبعث على الضحك، حتى أنني كنت أحياناً أضحك حتى توجعني بطني.

ولكنّ وقوفه متنكراً هنا أمام تنغل قد تجاوز حدود الجرأة المعقولة.

همس في أذني قائلاً: «يجب أن أرى أنا أيضاً ما يحدث.» قال ذلك ولم يكن يضحك الآن. إذ لم يعد هناك ما يبعث على الضحك.

لقد فرض تنغل على رجال وادي الوردة البريّة أن يصطفوا أمامه، ثم صار يشير بإصبعه إلى عدد منهم لينتقلوا عبر النهر إلى كارمانياكا. وكنت أدرك ما يعنيه ذلك. فقد كان جوناثان قد أخبرني بحقيقة الأمر. لن يعود إيّ من هؤلاء الذين أشار إليهم إلى دورهم أحياء أبداً. إذ سيفرض عليهم أن يكدحوا في كارمانياكا وأن يحملوا الصخور والحجارة إلى القلعة التي أمر تنغل ببنائها على أعلى قمّة في الجبال المسماه بالجبال القديمة.

لقد أرادها قلعة لا يمكن اقتحامها، لكي يتسنى له أن يقيم هناك مطمئناً مرتاحاً عاماً بعد عام من غير أن يخشى على نفسه. وقد سيق عدد هائل من الرقيق المستعبدين للإسهام في بنائها. وكان عليهم أن يكدحوا في ذلك حتى يسقطوا أرضاً من الإنهاك، ومن ثم يساقوا إلى كاتلا كما أخبرني جوناثان. وحين تذكرت هذا كلّه في تلك الساعة ارتجفت أوصالي على الرغم من حرارة الشمس. فقد كان اسم كاتلا وحده كافياً ليبعث في نفسي الرعب.

بينما كان تنغل يشير إلى الرجال الذين يقع عليهم اختياره، كان الصمت يسود الساحة، إلا من طائر صغير يغني ويصدح بعذوبة على قمة شجرة

ترتفع عالياً. كان الطائر يرسل صداحه العذب دون أن يعي بشاعة ما يفعله تنغل هناك أسفل منه تحت شجرتي الليمون.

ثم ارتفع صوت البكاء والعويل، لقد كان من المحزن فعلاً أن نسمع بكاء النساء اللواتي سيفقدن أزواجهن، وبكاء الأطفال الذين لن يروا آباءَهم بعد الآن. الكلّ بكى، وبكيت أنا أيضاً.

أصمّ تنغل سمعه عن عويل الباكين والباكيات، وبقي على صهوة حصانه يشير ويشير بسبابته، بينما كان الخاتم الماسيّ الذي يحيط بسبابته يلتمع مع كل إشارة تحكم بالموت على أحد الرجال. لقد كان شيئاً مروّعاً حقاً أن يحكم على رجل بالموت بإشارة من سبابته فقط.

ولكنّ رجلاً من الذين أشار إليهم فقد أعصابه حين سمع أبناءه يبكون، فخرج من الصف فجأة، وقبل أن يتمكن الجنود من إيقافه كان قد اندفع نحو تنغل صائحاً:

«طاغية! ستموت أنت أيضاً في يوم ما، هل فكرت بهذا ؟»

ثم بصق على تنغل.

لم يحرّك تنغل ساكناً. كل ما فعله هو أنه أشار بيده، فشهر الجندي الأقرب من الرجل سيفه. رأيت السيف يبرق في ضوء الشمس، ولكن جوناثان أسرع فأمسك بعنقي من الخلف وجذبني إلى صدره محوّلاً وجهي عن المنظر كيلا أرى، إلاّ أنني مع ذلك أحسست أو سمعت شهقات البكاء المكتومة في صدر جوناثان. وفي طريق عودتنا كان يبكي، وهو ما لا يفعله في العادة أبداً.

عمّ الأسى جميع الناس في وادي الوردة البريّة ذلك اليوم، جميع الناس

باستثناء جنود تنغل. بل على العكس من ذلك، كان هؤلاء يبتهجون ويحتفلون كلما جاء تنغل إلى وادي الوردة البريّة. فقد كان يولم لهم وليمة كبرى كلما جاء. لم تكن دماء الرجل المسكين الذي قتل قد جفت في الساحة عندما بدأ احتفال جنود تنغل هناك. فجيء لهم ببراميل الشراب، وأخذوا يشوون اللحم على النار، حتى ارتفع الدخان الكثيف فوق وادي الوردة البريّة كلّه. أكلوا وشربوا وصخبوا ما شاؤوا، وارتفعت أصواتهم بالثناء على تنغل الذي قدّم لهم كل تلك الخيرات.

علّق ماثياس قائلاً: «ولكن هؤلاء اللصوص يأكلون لحوم مواشينا ويشربون شرابنا نحن سكان وادي الوردة البريّة.»

لم يشارك تنغل نفسه في الوليمة. فما إن انتهى من التأشير واختيار الضحايا حتى اختفى عائداً عبر النهر.

في طريق عودتنا قال جوناثان: «لعلّه يجلس الآن في حصنه راضياً بالرعب الذي أحدثه في وادي الوردة البريّة. لعلّه اعتقد أنه لم يبق هنا غير عبيد خاضعين بتأثير الرعب.»

وعقّب ماثياس قائلاً: «ولكنه مخطئ في ذاك. فالذي لا يدركه تنغل ذاك أنه لا يستطيع أن يقهر شعباً يكافح من أجل حريّته ويحافظ على وحدته وتضامنه مثلنا.»

مررنا ببيت صغير تحيط به أشجار التفاح من كل جانب، فقال ماثياس: «هذا بيت الرجل الذي قتلوه اليوم.»

كانت هناك امرأة تجلس على عتبة البيت الخارجيّة. ميزّت وجهها الذي رأيته في الساحة، وتذكرت كيف صَرَخَتْ عندما أشار تنغل إلى زوجها. أما

الآن فهي تجلس وبيدها مقصّ تقص به شعرها الأشقر الطويل.

سألها ماثياس: «ما الذي تفعلينه يا أنتونيا؟ ماذا تريدين أن تصنعي بشعرك؟»

أجابت قائلةً: «أريد أن أصنع به أوتاراً لقوس النشّاب.»

لم تقل شيئاً آخر، ولكني لن أنسى ماحييت تلك النظرة في عينيها وهي تقول ذلك.

هناك أسباب كثيرة تؤدي إلى حكم الإعدام في وادي الوردة البريّة، كما أخبرني جوناثان. ولكن أخطر التهم اقتناء السلاح، فقد كان هذا أكبر المحظورات. وقد اعتاد جنود تنغل على التفتيش في كل مكان في البيوت والساحات بحثاً عن الأقواس والسهام والسيوف والرماح المخفيّة. ولكنهم لم يفلحوا في العثور على شيء منها. ومع ذلك فلم يخل بيت أو ساحة من سلاح مخبّأ ومعدٍّ للمعركة التي لا بدّ أن تأتي في آخر الأمر. هكذا اخبرني جوناثان.

لقد كان تنغل قد وعد بجوائز ضخمة من الخيول البيضاء لكل من يكشف عن مخبأ للسلاح.

قال ماثياس: «ما أشدّ غباءه. هل يعتقد حقاً أنه يوجد خائن واحد هنا في وادي الوردة البريّة؟»

علّق جوناثان بنبرة حزن: «لا، ولكن يوجد واحد في وادي الكرز فقط.»

نعم، كنت أدرك أن الذي يمشي إلى جانبي هو جوناثان، ومع ذلك كدت أغفل عن ذلك لتغيّر شكله مع تلك اللحية المزيّفة والثياب الرثّة.

وقال ماثياس مُعَقّباً: «إن جوسي لم يرَ ما رأينا من القسوة والقمع والاضطهاد. فلو أنه رأى ذلك لما فعل ما يفعل.»

قال جوناثان: «تُرى ما الذي تفعله صوفيا؟ ليتني أعرف ما إذا كانت بيانكا قد وصلت هناك بسلام.»

قال ماثيوس: «دعنا نأمل بأنها وصلت، وأن صوفيا قد وضعت حداً لجوسي.»

حين وصلنا إلى منزل ماثياس رأينا دوديك السمين يستلقي على العشب يلعب النرد مع ثلاثة آخرين من جند تنغل. قدّرت أنهم كانوا خارج وقت الدوام الرسميّ، لأنهم مكثوا طوال فترة ما بعد الظهر مستلقين هناك بين أدغال الورد البريّ. كان باستطاعتنا أن نشاهدهم من نافذة المطبخ. لعبوا النرد ما شاؤوا وأكلوا اللحم وشربوا مما أحضروا معهم من الساحة. كان معهم مقادير ضخمة من الشراب. وبالتدريج توقفوا عن الأكل واقتصروا على تناول الشراب. ثم توقفوا نهائياً عن فعل أي شيء غير التمرّغ بأجسادهم الثقيلة كأنهم الخنافس في ذلك المكان. واخيراً استسلم الأربعة لنوم ثقيل، وقد تركوا خوذاتهم وأرديتهم على العشب تخففاً بسبب الحرّ الشديد.

قال جوناثان: «لو عرف تنغل هذا لجلدهم عليه.»

ثم اختفى خارجاً من الباب، وقبل أن أدرك خطورة ما يريد فعله، كان قد عاد ومعه خوذة ورداء مما وضعوا جانباً.

سأل ماثياس: «ما الذي تريده من هذه الأشياء المرعبة؟»

أجاب جوناثان: «لا أعرف بعد. ولكن، قد يأتي الوقت الذي أحتاج فيه

إليـها.»

قال ماثياس:«وقد يأتي الوقت الذي يُقْبَض فيه عليك أيضاً.»

ولكن جوناثان عمد إلى لحيته وثياب التنكرّية فانتزعها، وارتدى الخوذة والرداء فبدا كأي واحد من جنود تنغل، كان المنظر مرعباً. انتفض ماثياس واستحلفه باللّه أن يخفي هذه الأشياء في مخبئه السّري.

وهكذا فعل جوناثان.

ثم استلقينا ونمنا بقية النهار، فلم أعرف ماذا حدث حين أفاق دوديك السمين ورفاقه واكتشفوا فقدان خوذة ورداء وطفقوا يحددون أيهم صاحب الغرضين المفقودين.

كان ماثياس نائماً أيضاً، ولكنه أفاق لفترة - كما أخبرنا لاحقاً - على صياح وشتائم تأتي من مكان الرجال الأربعة.

في تلك الليلة تابعنا العمل في حفر النفق السّري.

قال جوناثان:«نحتاج إلى ثلاث ليالٍ أخرى، لا أكثر.»

سألت:«وماذا بعد ذلك؟»

أجاب:«عندئذ يحدث ما جئت من أجله. ربما لا تنجح المحاولة، ولكنّ عليّ أن أحاول على كل حال إنقاذ أورفار.»

قلت:«لن تفعل هذا بدوني، لا يمكن أن تخلّفني وراءك من جديد. فأينما ذهبتَ أنت ذهبتُ معك.»

أرسل إليّ نظرةً طويلة، ثم ابتسم وقال:

«لا بأس، إذا كان هذا ما تريد، فهو ما أريد.»



الفصل الحادي عشر

نشط جنود تنغل بعد كل الذي أكلوه وشربوه. ولابدّ أن كلاً منهم كان حريصاً على الفوز بالجياد البيض العشرين التي وعد بها تنغل من يأتيه بجوناثان. ولذا طفقوا يبحثون ويفتشون عنه بشكل محموم في كل مكان. كانوا يقضون النهار كلّه من الصباح حتى المساء في البحث والتفتيش. لم يتركوا منزلاً ولا زاوية. فكان على جوناثان أن يمكث في مخبئه حتى كاد يختنق.

أما ڤيدر وكادر فكانا يتجولان راكبين في كل مكان يقرآن على الناس البيان المتعلق بأخي. وقد تسنّى لي أنا أيضاً أن أسمعهما يعلنان عن «عدو تنغل، جوناثان ليونهارت الذي تخطّى السور بصورة غير قانونية وما يزال مكان وجوده في وادي الوردة البريّة مجهولاً.» وقد تضّمن البيان أوصافه كذلك: «شاب وسيم بصورة ملحوظة، وله شعر أشقر وعينان زرقاوان زرقة عميقة وقوام ممشوق.» ولا شك عندي أن جوسي هو الذي قدّم لهما أوصافه تلك. وسمعتهما كذلك يرددان الكلام عن عقوبة الإعدام التي ستنزل بكل من يخفي ليونهارت ويتستّر عليه، إلى جانب التذكير بالجائزة التي سينالها الشخص الذي يدلّ عليه.

وبينما كان ڤيدر وكادر يتجّولان لهذه المهمّة، كان الناس يتوافدون سرّ إلى منزل ماثياس ليودّعوا جوناثان ويشكروه على كل ما فعل لهم وهو م يبدو أكثر مما كنت أعرف. كانوا يودعونه والدموع في عيونهم ويقولون: «لن ننساك أبداً.» وأتوه بخبز على ندرة ما بين أيديهم منه.

وقالوا:

«سوف تحتاج إلى هذا، فالرحلة التي تُقْدِم عليها صعبة وخطيرة.» ثم خرجوا مسرعين لينصتوا من جديد إلى ما يقوله ڤيدر وكادر، وذلك من قبيل السّخرية والتفكّه والتندّر فقط.

جاء الجنود إلى منزل ماثياس أيضاً. كنت أجلس خائفاً على مقعد في المطبخ من غير أن اجرؤ على الحركة. أما ماثياس فقد قابلهم بأعصاب قويّة، وقال: «ما الذي تبحثون عنه؟ أنا لا أعتقد أنه يوجد شاب اسمه ليونهارت أصلاً. بل أعتقد أنكم اخترعتم هذه القصة حتى يكون بإمكانكم اقتحام بيوت الناس والعبث فيها.»

حقاً لقد عبثوا بمنزل ماثياس عبثاً كبيراً، فقد بدأوا بغرفة النوم الصغيرة حيث كومّوا ملاءات الفراش على الأرض. ثم عبثوا بمحتويات الخزانة هناك وقذفوا بها جميعاً الى الارض. وقد كان هذا تصرفاً سخيفاً. فهل يعتقدون حقاً أن جوناثان يختبئ في الخزانة؟

وسأل ماثياس: «ألا تريدون البحث في خزانة الأواني كذلك؟» ولم يزدهم ذلك إلاّ غضباً.

ثم دخلوا المطبخ وبدأوا يعبثون بخزانة الحائط. ومكثت جالساً على مقعدي وأنا أشعر بالغضب يتصاعد في داخلي. كان قد تقرّر ان نغادر الوادي في ذلك المساء؛ جوناثان وأنا، وتصورت أنهم إذا قبضوا عليه الآن فلن أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف. لا أحسب أن هناك ما هو أقسى من أن يقبضوا عليه في الساعات الأخيرة المتبقية له في الوادي.

كان ماثياس قد ملأ خزانة الحائط بالثياب القديمة وبصوف الخراف

وبأشياء أخرى كثيرة ليعزل أي صوت من المخبأ السّري. ولكن الجنود أخرجوا كل هذه الأشياء وقذفوا بها على أرض المطبخ.

عندئذ! عندئذ شعرت بأنني أريد أن اصرخ صرخة جبّارة ينهار لها المنزل ؛ نعم، ذلك لأن واحداً منهم وضع كتفه على خزانة الحائط ليزيحها إلى أحد الجانبين. ولكن، لم يخرج مني صوت واحد، فقد تابعت الجلوس وتسمّرت على المقعد كأنني قد شللت. ولم أملك إلاّ الشعور بالحقد على ذلك الجندي؛ على كل شيء فيه: يديه الخشنتين، ورقبته الغليظة، وذلك الثؤلول البارز في جبهته. لقد شعرت بحقد عميق عليه لأنني أدركت أنه على وشك أن يرى مدخل المخبأ السرّي الذي يختفي خلف خزانة الحائط، وعندئذ ستكون نهاية جوناثان.

ولكن صيحة مفاجئة انطلقت من ماثياس:

«أنظروا! حريق! هل أمركم تنغل بأحراق منازلنا أيضاً؟»

لا أدري كيف حدث ذلك، ولكنه حصل فعلاً. فقد كان صوف الخراف يشتعل بسرعة على الأرض، وكان على الجنود أن يسرعوا لإطفائه. قفزوا وداسوا على الصوف وخبطوا بأقدامهم ولعنوا وشتموا، وأخيراً أهرقوا برميل ماء على الصوف المشتعل، فانطفأت النار بالسرعة التي اشتعلت بها، ولكن ماثياس لم يتوان عن إبداء السخط والغضب، فصاح فيهم قائلاً:

«أليس لكم عقول إطلاقاً؟ كيف ترمون الصوف بهذه الطريقة الى جانب الموقد حيث اللهب والشرر؟»

وثار الغضب الشديد بالجندي ذي الثؤلول، فصرخ بماثياس:

«اخرس أيها العجوز! وإلاّ أخرست فمك هذا بطرق كثيرة مختلفة.»

ولكنّ ماثياس لم يبد خوفاً وتابع:

«أتوقع منكم أن تنظفوا اثاركم. انظروا ما فعلتم! لقد صار المكان أشبه بزريبة الخنازير.»

كانت هذه هي الطريقة الصحيحة لجعلهم يغادرون.

قال الرجل ذو الثؤلول: «نظف زريبتك بنفسك أيها العجوز.»

قال هذا وسبق رفاقه خارجاً، فلحقه الآخرون تاركين الباب مفتوحاً على مصراعيه وراءَهم.

قال ماثياس: «ليس لديهم عقول ابداً.»

قلت: «ولكن، ياله من حظ حسن أن اشتعلت النار، ياله من حظ حسن لجوناثان!»

نفخ ماثياس على أصابعه، وقال: «نعم، إن الحرائق الصغيرة يمكن أن تكون نافعة أحياناً. مع أن الإنسان لابدّ أن يحرق أصابعه عندما يقذف قطعة فحم ملتهبة خارج الموقد!»

ولكن، لم تكن هذه آخر مشكلاتنا، فقد قاموا بتفتيش الأسطبل، ثم عاد الجندي ذو الثؤلول إلى ماثياس وقال له:

«لديك حصانان أيها العجوز! وانت تعرف أنه لا يسمح لأحد في وادي الوردة البريّة بأن يقتني غير حصان واحد. ولذا سنرسل الليلة رجلاً من الجانب الآخر ليأخذ الحصان ذا الغرّة البيضاء، إذ عليك ان تعطيه لتنغل.»

قال ماثياس: «ولكنه حصان الصبّي.»

قال الجندي: «صحيح؟ ولكنه صار لتنغل الآن.»

وبدأت أبكي. فقد كان علينا - جوناثان وأنا - أن نغادر وادي الوردة البريّة في تلك الليلة، بعد أن فرغنا من حفر النفق السّري تحت الأرض. ولم يخطر لي حتى تلك اللحظة أن أتساءل كيف يمكننا أن نصحب غريم وفيالار معنا. فمن المستحيل أن يزحفا عبر النفق الضيق المحفور تحت الأرض.

ما كان أغباني، إذ لم يخطر لي الأمر من قبل: أن علينا أن نترك حصانينا مع ماثياس. وإذا كان هذا في ذاته أمر سيء بما فيه الكفاية، فإن الأسوأ منه هو أن يأخذ تنغل حصاني فيالار. لا أعرف كيف لم ينفطر قلبي حين سمعت هذا.

استخرج الجندي ذو الثؤلول قطعة خشبية صغيرة من جيبه وضغط بها على ما دون أنف ماثياس وقال:

«خذ هذه وسجّل عليها علامة بيتك.»

قال ماثياس: «ولماذا عليّ أن أفعل هذا؟»

قال الجندي: «لأن هذا يعني أنك تقدّم الحصان لتنغل عن طيب خاطر.»

قال ماثياس: «ولكني لا أشعر بطيب الخاطر.»

هنا شهر الجندي سيفه قائلاً: «بل أنت سعيد بذلك مؤكداً. أنت في غاية السرور والسعادة. وهنا سوف تسجّل علامة بيتك. وحين يجيء الرجل من كارمانياكا لأخذ الحصان سوف تعطيه قطعة الخشب هذه، لأن تنغل يريد إثباتاً بأنك قدمتَ الحصان طواعية دون إكراه، هل تفهم هذا أيها العجوز؟»

قال هذا كلّه وهو يدفع ماثياس حتى يكاد يوقعه.

لم يكن في وسع ماثياس أن يفعل شيئاً آخر غير الاستجابة للطلب. وهكذا سجّل علامة منزله، وخرج الجنود ليبحثوا عن جوناثان في أماكن أخرى.

كانت تلك هي الليلة الأخيرة التي نقضيها مع ماثياس. ولآخر مرّة جلسنا إلى طاولته، ولآخر مرّة قدّم لنا الحساء. كنا جميعاً نشعر بالحزن، وكنت أكثرهم حزناً. بكيت لفراق فيالار ولفراق ماثياس، فقد كان لي بمثابة الجدّ، ولكنّ عليّ الآن أن أتركه. وبكيت أيضاً لأنني كنت صغيراً وخائفاً. وكان عليّ أن أرى أولئك الجنود يقتحمون البيت ويدفعون جدّي يميناً وشمالاً دون أن أقوى على فعل شيء.

كان جوناثان يجلس صامتاً يفكّر، وفجأة غمغم قائلاً:

«ليتني كنت أعرف كلمة السّر!»

سألت: «أي كلمة سّر؟»

أجاب: «على كل من يعبر داخلاً أو خارجاً من البوابة الكبرى الرئيسية أن ينطق بكلمة سرّ ليسمح له بالعبور. ألا تعرف هذا؟»

قلت: «نعم أعرف هذا. وأعرف كذلك كلمة السر نفسها: "المجد والنصر لمحررنا تنغل." لقد سمعت جوسي يقولها. ألم أخبركم بهذا من قبل؟»

حدّق جوناثان وأطال التحديق وقتاً ثم بدأ يضحك، وقال:

«رسكي! إنني أحبك حقاً. هل تعرف هذا؟»

لم أفهم سبب سروره الكبير بمعرفة كلمة السرّ، فهو لن يخرج عبر البوابة الرئيسية على كل حال. ومع ذلك فقد شعرت ببعض السرور في غمرة

أحزاني لأنني استطعت أن أسعده بذلك الأمر الصغير.

كان ماثياس قد ذهب إلى غرفة النوم لينظفها ويعيد ترتيبها، واندفع جوناثان مسرعاً إليه. تحادثا بأصوات خفيضة هناك. ولم أتبين كثيراً مما قالا إلاّ حين قال جوناثان:

«إذا أخفقت، فسوف تعتني بأخي، أليس كذلك؟»

ثم رجع إليّ وقال:

«اسمع الآن يا رسكي، سوف آخذ الكيس وأمضي قدماً، وعليك أن تنتظر هنا مع ماثياس حتى يأتيك خبر مني. سوف يستغرق هذا وقتاً، لأن عليّ أن أُرَتّب بعض الأمور أولاً.»

آه، كم أزعجني هذا الكلام! لقد كان دائماً من الصعب عليّ أن احتمل غياب جوناثان وانتظاري له، وبخاصة حين أكون خائفاً. وقد كنت خائفاً في ذلك الوقت. فمن يدري ماذا يمكن أن يحدث لجوناثان في الجانب الآخر من السور! وما الذي يفكّر في عمله ويخشى أن يُخْفِقَ فيه؟

قال جوناثان: «يجب ألاّ تخاف. أنت كارل ليونهارت هذه الأيام. لا تنسَ ذلك.»

ثم ألقى علينا تحية وداع سريعة وزحف داخلاً المخبأ، وشاهدته يختفي داخل النفق الأرضي بعد ان لوّح لنا بيده. وكان آخر ما شاهدته فيه يد: تلوّح لنا.

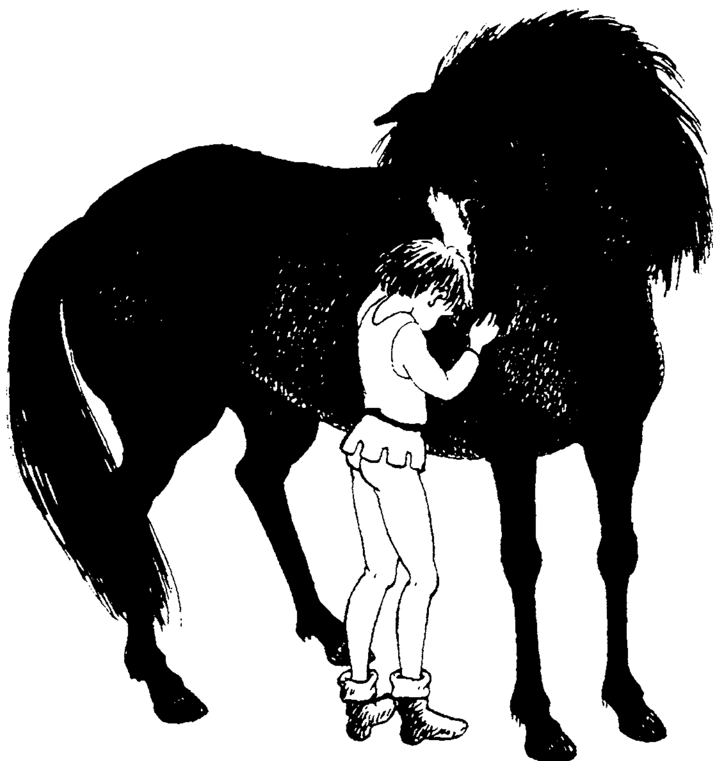
عندئذ وجدت نفسي وحيداً مع ماثياس.

بعد برهة من الوقت قال ماثياس: «إن دوديك السمين لا يدري أيّ خُلد يزحف الآن تحت سوره!»

قلت: «ولكن، افرض أنه رأى ذلك الخلد يطل برأسه عبر الأرض، ألا يرميه عندئذ بأحد سهامه؟»

كنت حزيناً. وجررت نفسي إلى الإسطبل حيث يوجد فيالار، لعلّي أجد عنده بعض العزاء قبل أن يفارقني. ولكنه لم يكن قادراً على التخفيف عني، لأنني كنت أعلم أنني لن أراه بعد هذا المساء.

كان الضوء في الإسطبل خافتاً، إذ لم تكن نافذته الصغيرة تسمح إلا بعبور قدر محدود من الضوء. ومع ذلك كان في استطاعتي أن أرى تلهّف فيالار وهو يلتفت نحوي حين دخلت الباب. اتجهت إليه فوراً وطوقّت عنقه بذراعي. كنت أريده أن يتفهّم أن ما سيحدث له لم يكن نتيجة خطأ مني.



ولكني استدركت وقلت: «لعلّها غلطتي فعلاً، فلو أني مكثت في وادي الكرز لما أخذك تنغل مني. سامحني يا فيالار، سامحني! ولكن لم يكن باستطاعتي عمل شيء آخر.» قلت هذا وأنا أبكي. أظنّ أنه أدرك حزني، فقد مسح أذني بأنفه الطريّ وكأنه يطلب مني أن أتوقف عن البكاء.

ولكنني تابعت البكاء. وبقيت واقفاً عنده أبكي حتى لم تبق دموع في عينيّ، ثم مسحت على جسمه وقدمت له ما تبقى من العلف. وبالطبع، تقاسمه مع غريم.

بينما كنت أمسح على جسمه، خطرت في بالي أفكار رهيبة. تمنيت لو أن الرجل الذي سيأتي لأخذه يموت في الطريق. لو أنه يموت قبل أن يعبر النهر. تاللّه ما أقسى أن يتمنّى الإنسان أموراً من هذا النوع. وعلى أي حال فإن ذلك لم يكن مجدياً. لا، فالأرجح أن الرجل قد صار الآن على ظهر المركب في طريقه إلى الوادي - إنه المركب الذي يحمّلون عليه كل البضائع المسروقة. بل لعلّه قد رسى الآن. بل ربّما كان الآن يعبر البوابة وهو على وشك الوصول إلى هنا في أية لحظة. آه يا فيالار! ليتنا نستطيع أن نفرّ معاً: أنت وأنا!

حينما بلغت هذه النقطة من التفكير، فتح أحدهم الباب، فصرخت من شدّة الخوف. ولكنه كان ماثياس فقط. وحمدت اللّه أن الضوء كان خافتاً في المكان حتى لا يرى أنني كنت أبكي. ولكن، يبدو أنه لاحظ ذلك على كل حال، فقد قال:

«أيها الفتى الصغير! ليتني أستطيع أن افعل شيئاً. ولكن لا جَدّ يمكنه

أن يفعل شيئاً في مثل هذا الظرف، ولـذا نفّس عن نفسك بالبكاء.» ثم رأيت عبر النافذة خلفه إنساناً يتحرك هنا نحو منزل ماثياس. إنه أحد رجال تنغل! الرجل الذي أُرْسِلَ لأخذ فيالار!

صرخت: «إنه قادم! ماثياس، إنه قادم!»

صهل فيالار مضطرباً حين صرخت ذلك الصراخ اليائس. وفي اللحظة التالية فتح باب الإسطبل بقوّة، ورأيت الرجل القادم يقف هناك بخوذته السوداء وردائه الأسود.

وصرخت ثانيةً: «لا! لا، لا!»

وفي لحظة واحدة كان القادم قد وصل عندي و... طوّقني بذراعيه!

نعم. طوّقني، فقد كان جوناثان نفسه!

وقال جوناثان بينما كنت أحاول الابتعاد عنه: «ألا تميز أخاك؟»

وسحبني نحو النافذة لكي أراه بوضوح، ومع ذلك فقد كان من الصعب على أن أصدق أن هذا هو جوناثان حقاً. فقد كان من غير الممكن تمييز ملامحه، لأنه كان يبدو قبيحاً، حتى أنه كان يبدو أقبح مني. ومن المؤكد أنه لم يكن في تلك اللحظة ذلك الشاب الوسيم بصورة ملحوظة. كان شعره يتدلى في خصل مبلولة. لم يكن يلمع كالذهب. وكان قد وضع حشوة ما تحت شفته العليا فبرزت شفته إلى الأمام. لم أرَ أحداً من قبل يستطيع أن يجعل نفسه قبيحاً إلى هذا الحد باستخدام أشياء بسيطة جداً. كان يبدو غريباً، وكان يمكن أن أضحك لو كان معنا فسحة من الوقت. ولكن كان من الواضح أن جوناثان لا يملك وقتاً لأي شيء، فقد قال:

«أسرع، أسرع! يجب أن أغادر الآن فالرجل الذي تتوقع مجيئه من

كارمانياكا سيكون هنا في أي دقيقة الآن.»

ثم مّد يده نحو ماثياس وقال:«أعطني قطعة الخشب الصغيرة التي دونت عليها علامة منزلك، فأنا متأكد أنك ستقدم حصانيك كليهما إلى تنغل بكل سرور، أليس كذلك؟»

قال ماثياس وهو يضع قطعة الخشب في يد جوناثان:«نعم وما أدراك!» ووضع جوناثان قطعة الخشب في جيبه وهو يقول:«يجب أن أبرزها عند البوابة لكي يتأكد رئيس الحرس أنني لا أكذب.»

حدث كل شيء بسرعة هائلة، فقد أسرجنا الحصانين بأسرع من أي وقت سابق بينما كان جوناثان يحدثنا عن كيفية دخوله من البوابة الرئيسة رداً على سؤال ماثياس.

قال جوناثان: «كان الأمر سهلاً، فقد استخدمت كلمة السّر التي علمني إياها رسكي - المجد والنصر لمحررنا تنغل - وعندئذ قال رئيس الحرس: «من أين جئت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ وما هي مهمتك؟» فقلت: «أنا قادمٌ من كارمانياكا إلى مزرعة ماثياس لأخذ حصانين هدية لتنغل.» عندئذ قال:«إذن ادخل.» قلت:«شكراً.»

وهكذا صرت هنا الآن. ولكن يجب أن أعود لأخرج من البوابة قبل أن يجيء رجل تنغل الحقيقي ويطلب الإذن بالدخول، فإذا حدث هذا قبل خروجي فسوف تتعقد الأمور كثيراً.»

أخرجنا الحصانين من الإسطبل بسرعة لا توصف، وقفز جوناثان إلى صهوة الحصان غريم بينما كان ممسكاً بزمام فيالار إلى جانبه.

وقال موجهاً كلامه لماثياس: «إعتنِ بنفسك يا ماثياس، إلى اللقاء.» ثم



بدأ يبتعد بالحصانين دون أن يلتفت إليّ.

عندئذ صحت: «وماذا عني؟ ماذا عليّ أن افعل؟»

لوحَ جوناثان لي قائلاً: «ماثياس سيخبرك.»

وهكذا وقفت هناك أتابعه بنظراتي وهو يبتعد وأنا أشعر بحيرة تامة. ولكنّ ماثياس شرح الأمر قائلاً: «يجب أن تفهم أنه ليس في استطاعتك أن تعبر من البوابة. فعليك أن تزحف عبر النفق الأرضي فور سقوط الظلام. عندئذ سيكون جوناثان في انتظارك في الجانب الآخر.»

قلت: «هل أنت متأكد؟ قد يحدث له شيء في آخر لحظة.»

تنهد ماثياس، وقال: «لا شيء مؤكد في عالمٍ يعيش فيه تنغل. ولكن إذا اختلّت الأمور ولم تسر على ما يرام فإن عليك أن تعود لتمكث معي.»

حاولت أن أرسم في ذهني صورةً لما يمكن أن يحدث. تصورت نفسي أزحف عبر النفق وحدي، وهذا وحده كان أمراً مخيفاً، ثم أخرج من النفق لأجد نفسي في الغابة في الجانب الآخر من السور، ثم أنتظر وأنتظر إلى أن أتبين في النهاية أن الأمور كلها لم تسر كما ينبغي. وعليه، أعود لأزحف من جديد عبر النفق عائداً إلى منزل ماثياس لأعيش بدون جوناثان!

كنا نقف أمام الإسطبل الذي أصبح الآن فارغاً حينما خطر لي أمر آخر، فقلت لماثياس:

«ما الذي سيحدث لك ياماثياس عندما يجيء ذلك الرجل من كارمانياك فلا يجد حصاناً في الإسطبل!»

أجاب ماثياس: «بل سيكون هناك حصان، لانني سأخرج الآن لأحضر

حصاني. كنت أحتفظ به في المزرعة المجاورة عندما كان غريم في الإسطبل.»

قلت:«ولكن معنى ذلك أن الرجل سيأخذ حصانك أنت.»

قال ماثياس:«دعه يحاول!»

أحضر ماثياس حصانه في الوقت المناسب، إذ ما لبث أن وصل الرجل الذي أُرْسِلَ لأخذ فيالار. في بادئ الأمر أخذ يصرخ ويشتم ويعنّف مثل رجال تنغل جميعهم! وذلك لأنه لم يجد إلاّ حصاناً واحداً في الإسطبل ولأن ماثياس رفض أن يعطيه إياه.

قال له ماثياس:«لا تحاول هذه اللعبة معي، فمن حقنا الاحتفاظ بحصان واحد كما تعلم. وقد أخذتم الحصان الآخر قبل قليل مع علامة منزلي إثباتاً لذلك. فما ذنبي أنا إذا كنتم لا تحسنون تدبير الأمور حتى ان الواحد منكم لا يعرف ماذا يفعل.»

بعض رجال تنغل يغضبون عندما يواجههم ماثياس بهذا الأسلوب القوي، ولكن بعضهم يتخاذل أمامه ويصمت. وهكذا فإن الرجل الذي جاء لأخذ فيالار خضع فوراً، وقال:

«لابّد أنه قد وقع خطأ ما.» ثم مشى خارجاً لا يلوي على شيء.

سألت ماثياس:«ألا تشعر بالخوف أبداً يا ماثياس؟»

أجاب:«بلى أخاف.» ثم أخذ يدي ووضعها على صدره، وتابع قائلاً: «هل تحّس خفقات قلبي؟ كلنا يخاف. ولكن يجب عليك في بعض الأحيان أن تخفي خوفك.»

جاء المساء. وهبط الظلام، وحان الوقت لأغادر وادي الوردة البريّة وأودع

ماثياس.

قال ماثياس: «وداعاً أيها الفتى الصغير، لا تنسَ جدّك.»

قلت: «لن انســاك أبداً.»

وماهي حتى وجدت نفسي وحيداً في النفق، وأخذت أزحف في النفق المظلم الطويل وأحدث نفســي طوال الوقت لأبدّد الخوف وأحافظ على هدوئــي.

«لا، لا سبب يدعو إلى الخوف إطلاقاً من الظلمة الشديدة... لا لن تختنق مؤكداً... نعم، هناك بعض التراب يتساقط، ولكن هذا لا يعني أن النفق كلّه سينهار عليك أيها الأبله! لا. لا، إن دوديك لا يستطيع أن يراك حينما تخرج إلى سطح الأرض، إنــه ليس قطة ليرى في الظلام، أليس كذلك؟ بالطبع سيكون جوناثان في انتظارك، إنه هناك، هل تسمع ماأقوله؟ إنه هناك، إنه هناك!»

وقد كان بالفعل هناك، كان يجلس على صخرة في الظلام ؛ وعلى مقربة منه كان غريم وفيالار يقفان تحت إحدى الأشجار.

قال جوناثان: «مرحباً يا كارل ليونهارت! ها أنت هنا أخيراً.»



الفصل الثاني عشر

نمنا تلك الليلة تحت إحدى الأشجار، وأفقنا مع الفجر. كان الجو شديد البرودة، حتى شعرت بأنني أوشك على التجمّد. كان الضباب يتمدّد بين الأشجار، فلم يكن من السهل رؤية غريم وفيالار بوضوح. كانا يبدوان مثل حصانين شبحين بلون الرماد في غمرة الضوء الرماديّ والصمت الذي يعمّ المكان. كان الصمت مطبقاً حقاً ويثير الوحشة في النفس. لا أدري لماذا بدا كل شيء قاتماً وموحشاً وباعثاً على القلق في ذلك الصباح. واشتقت إلى العودة إلى مزرعة ماثياس ومطبخه الدافىء. وسيطر عليّ التوتر إزاء ما ينتظرنا من أمور لا أعرف عنها شيئاً.

حاولت أن أخفي مشاعري عن جوناثان. خشيت إن عرف أن يقترح عليّ العودة، وقد كنت مصمّماً على البقاء ومواجهة المخاطر معه مهما عظمت.

نظر جوناثان اليّ وابتسم بصمت، ثم قال:

«لا تكن هكذا يا رسكي، نحن لم نرَ شيئاً بعد، فالمخاطر الكبرى ما زالت في انتظارنا.»

أي راحة يمكن أن يبعثها هذا الكلام! هه! ولكن، لم تلبث الشمس أن أرسلت نورها الساطع، وانقشع الضباب، وبدأت طيور الغابة في الغناء. عندئذ اختفى كل ما كان يبدو قاتماً وموحشاً. وبدت المخاطر المتوقّعة أقل خطراً وأقلّ إثارة للخوف.

وبدا غريم وفيالار أيضاً في حالة أحسن، فقد تخلّصا من ذلك الإسطبل المظلم، وصار في وسعهما الآن أن يرعيا العشب الكثيف في البريّة. أنا

متأكد أنهما كانا سعيدين بالوضع الجديد.

صفر جوناثان لهما صفرة خفيفة قصيرة، ولكنهما سمعاها فأقبلا إلينا. كان يريد الانطلاق والابتعاد فوراً دون تأخير، لأننا لسنا بعيدين عن السور، فهو يقع خلف الدغل المكوّن من شجر البندق، كما قال جوناثان. وليس لديه رغبة في أن يرى من جديد بياض عيني دوديك السمين.

كان النفق الأرضي الذي عبرت منه ينتهي بين مجموعتين من شجر البندق. ولكن لم يعد بإمكان أحد أن يرى فتحة النفق، لأن جوناثان غطاها بأغصان الشجر. ولكنه علّم المكان بِعَصَيَيْن لكي نتمكن من تمييزه من جديد إذا احتاج الأمر.

قال جوناثان: «لا تنسَ منظر المكان وعلاماته. تذكر تلك الصخرة الكبيرة وهذه الشجرة التي نمت تحتها ودغل شجر البندق، لأننا قد نعود إلى هذا المكان في يوم ما، إذا...»

ولم يكمل، إلاّ أننا امتطينا جوادينا ومضينا نبتعد بهدوء تام.

ثم ظهرت في الجوّ حمامة طائرة فوق قمم الأشجار. كانت واحدة من حمائم صوفيا البيضاء.

قال جوناثان: «إنها بالوما.» ولم أدرِ كيف استطاع تمييزها وهي ما تزال بعيدةٌ عنا بعداً شديداً.

لقد انتظرنا طويلاً أن تأتينا أخبار من صوفيا. وها هي الآن تأتي إحدى حمائمها أخيراً بعد أن صرنا خارج السور. ومضت الحمامة طائرة في اتجاه منزل ماثياس، ولا بدّ أنها ستحط قريباً في برج الحمام الموجود خارج الإسطبل. ولكن، لن يكون هناك غير ماثياس ليقرأ الرسالة.

اغتاظ جوناثان كثيراً، وقال:

«لو أنها جاءت البارحة، لكان باستطاعتي أن أعرف ما أريد معرفته.» ولكن، كان علينا أن نمضي الآن بعيداً بعيداً عن وادي الوردة البريّة وعن السور وعن رجال تنغل الباحثين عن جوناثان.

كانت الخطة كما شرحها جوناثان تقتضي أن نتجه إلى النهر عبر تحويلة تخترق الغابة، ثم نتابع المسير بمحاذاة ضفة النهر حتى نصل إلى شلالات كارما.

«وعندها يا كارل الصغير، سترى شلالاً لم تتصوّر مثله حتى في أحلامك.»

في الواقع، أنا لم أرَ إلاّ القليل قبل مجيئي إلى نانجيالا. ومن المؤكّد أنني لم أرَ مثل هذه الغابة التي نخترقها الآن. لقد كانت حقاً واحدة من تلك الغابات الشبيهة بغابات الأساطير: كثيفة ومعتمه، وليس فيها طرقات ممهّدة مطروقة. كنا نسير بين الأشجار الكثيفة فتصفع أغصانها الرطبة وجوهنا. ومع ذلك فقد أحببت ذلك كله: شعاع الشمس الذى يتسرّب متراقصاً بين جذوع الشجر، غناء الطيور، رائحة الأشجار والعشب الرطب والجوادين. وأكثر ما أحببت ركوبي إلى جانب جوناثان.

كان الهواء منعشاً وبارداً في الغابة أول الأمر، ولكن الحرارة بدأت بالارتفاع مع مضي الوقت. وتوقعنا نهاراً حاراً.

لم يمضِ وقت طويل حتى كنا قد ابتعدنا مسافة طويلة عن وادي الوردة البريّة، وتوغلنا في قلب الغابة. ثم صادفنا في فسحة تحيط بها الأشجار العالية كوخاً رمادياً في وسط الغابة المظلمة. كيف يمكن لأي إنسان أن



يعيش في هذا المكان المعزول! ومع ذلك كان المكان مأهولاً حقاً، فقد كان الدخان يتصاعد من مدخنة الكوخ، ورأينا عنزتين ترعيان أمامه.

قال جوناثان: «هنا تعيش الفريدا. وهي مستعدة لأن تمنحنا بعض حليب الماعز إذا سألناها ذلك.»

حصلنا على قدر كبير من حليب الماعز، وسعدنا بذلك. فقد كنا قد قطعن مسافة طويلة دون أن نأكل شيئاً. جلسنا على درجات عتبة كوخ الفريد وشربنا الحليب، وأكلنا خبزاً مما كان معنا مع جبن قدّمته لنا الفريدا، إضافة إلى كميّة من التوت البريّ الذي كنت قد التقطته من الغابة. كان ذلك كلّه لذيذاً وشعرنا بالاكتفاء.

كانت الفريدا امرأة عجوز ممتلئة وطيّبة، وكانت تعيش وحدها هناك مع ماعزها ومع قطة رماديّة تتسلّى بها.



قالت الفريدا: «أحمد اللّه أنني لا أعيش وراء أي سور.»

كانت تعرف كثيراً من الناس في وادي الوردة البريّة، وكانت ترغب في سماع أخبارهم، ولذا كان على جوناثان أن يخبرها عنهم. بدا عليه الحزن وهو يحدّثها، فقد كانت معظم الأخبار من النوع الذي يثير الحزن والآسى في نفس امرأة عجوز طيبة مثل الفريدا.

قالت: «لا بدّ أن الناس تعساء كثيراً في وادي الوردة البريّة. اللعنة على تنغل! واللعنة على كاتلا! لو لم يأخذ كاتلا لبقي كل شيء على ما يرام.»

غطت وجهها بمنديلها، وأعتقد أنها كانت تبكي.

لم أحتمل مراقبة الموقف، فمشيت لأبحث عن بعض التوت البريّ: ما هي كاتلا، وأين هي؟ متى يخبرني أحدهم؟

أخيراً وصلنا إلى النهر في وقت الظهيرة اللاهبة. كانت الشمس تتوسط السماء مثل كرة ناريّة ملتهبه، وكان الماء يتلألأ ويبرق بالضوء مثل آلاف من الشموس الصغيرة. وقفنا على حافة الضفاف المشرفة العالية، وشاهدنا النهر أسفل منا. أي منظر رائع! كان نهر الأنهار القديمة يتدفق نحو شلالات كارما، ولذا كان الزبد يطفو في دوامات سريعة. وأحببت أن أصل إلى تلك المياه العارمة المتدفقه، وكان في وسعنا أن نسمع هدير الشلالات من بعد.

رغبنا في النزول إلى الماء لنبترد به، وقد تركنا غريم وفيالار يسرحان بحريّة في الغابة ليجدا جدولاً يشربان منه، ولكنا كنا نريد الاستحمام في النهر. ولذا اندفعنا نازلين على المنحدر الشديد ونحن نتعجل خلع ملابسنا حتى كدنا نمزقها.

كان هناك عدد من أشجار الصفصاف على ضفة النهر، وكانت إحداها قد نمت على حافة الماء حتى أن أغصانها كانت تتدلى في الماء. تسلقنا تلك الشجرة، وعلّمني جوناثان كيف أتمسّك بأحد الأغصان وأدلّي نفسي في الماء المتدفق السريع الجريان. وقال:

«ولكن إياك أن تفلت الغصن، وإلاّ سيجرفك الماء نحو شلالات كارما.»

تمسّكت بالغصن بقوّة حتى ابيضّت مفاصل يديّ وأصابعي. وتركت جسمي يتدلى في الماء المتدفّق. لم أستمتع في حياتي بمثل هذا الحمام الرائع والخطير في الوقت نفسه. وشعرت بقوّة اندفاع الماء نحو الشلالات تجذب جسدي كلّه.

ثم عدت وتسلّقت جذع الشجرة بمساعدة جوناثان، وجلسنا معاً على الفروع العليا وكأننا في منزل أخضر يتمايل فوق الماء. كان النهر أسفل منا يتدفق بصخب والماء يعلو ويهبط في موجات عارمة تغرينا بمعاودة الكرّة، وتكاد توهمنا أن الأمر ليس بتلك الخطورة. ولكن، كان يكفي أن أغمس أصابع قدمي في الماء لأحس بقوّة الجذب الهائلة التي تريد أن تحملني معها في التيار المتدفق.

وبينما كنت أجلس هناك، لاحت مني نظرة إلى المنحدر، وهنا حلّ الخوف بي. فقد كان هناك فرسان من رجال تنغل يحملون الرماح الطويلة. كانوايقبلون عدواً بالخيول، ولكننا لم نسمع وقع الحوافر بسبب هدير الماء.

أبصرهم جوناثان كذلك، ولكنه لم يبد أي علامة من علامات الخوف. ومكثنا جالسين هناك بصمت، في انتظار أن يتجاوزونا. ولكنهم لم

يتجاوزوا مكاننا، بل توقفوا وقفزوا عن خيولهم فيما بدا أنهم يريدون أن يرتاحوا أو شيئاً من هذا القبيل.

سألت جوناثان: «هل تعتقد أنهم خارجون بحثاً عنك؟»

أجاب جوناثان: «لا. إنهم قادمون من كارمانياكا، وفي طريقهم إلى وادي الوردة البريّة. هناك جسر معلّق فوق شلالات كارما. ومن عادة تنغل أن يرسل جنوده من تلك الطريق.»

قلت: «ولكنهم لا يحتاجون إلى التوقف هنا تحديداً.»

وافقني جوناثان، وقال:

«لا أريدهم أن يروني حقاً حتى لا أستثير في عقولهم أية أفكار عن ليونهارت المطلوب.»

عددت ستة منهم هناك على المنحدر. كانوا يتحادثون ويتجادلون حول شيء ما وهم يشيرون نحو الماء، على الرغم من أننا لم نتمكّن من سماع شيء مما يقولونه. وفجأة رأينا أحدهم ينزل المنحدر وحده على صهوة فرسه باتجاه النهر. وصل قريباً منا، وحمدت اللّه أننا كنا نختفي في مكاننا المرتفع بين فروع الشجرة.

سمعنا الآخرين يصيحون به:

«لا تفعل ذلك يا بارك! سوف تغرق مع فرسك!»

ولكنه ضحك وردّ عليهم صائحاً:

«سأريكم! إذا لم أصل إلى الصخرة ثم أعود فلكم عليّ أن أشتري لكم شراباً على حسابي، أقسم على ذلك.»

عندئذٍ اتضح لنا ما ينوي عمله.

كانت هناك صخرة بارزة في داخل مجرى النهر، وكانت تيارات الماء تتدفق وتحوم حولها في دوّامات متلاحقة، ولم يكن يظهر منها فوق سطح الماء إلاّ جزء يسير. ولكن، لا بدّ أن بارك قد شاهدها بوضوح من مكانه السابق، فأراد أن يستعرض لأصحابه قدرته وشجاعته.

قال جوناثان: «يا للمغفل. هل يعتقد أن فرسه تستطيع أن تسبح ضد التيار الجارف كل تلك المسافة؟»

كان بارك قد خلع خوذته ورداءه وجزمته، ولم يبق عليه إلاّ قميصه وبنطاله. وبدأ يغالب فرسه للنزول بها إلى الماء. كانت فرساً جميلة سوداء. وأخذ بارك يصيح بها ويشتم ويلحّ، ولكن الفرس لم تطاوعه. كانت خائفة. ثم ضربها. لم يكن معه سوط فضربها بقبضة يده على أمّ رأسها. وسمعت جوناثان يشهق فيما يشبه شهقة البكاء، تماماً كما فعل في الساحة في وقت سابق.

أخيراً استطاع بارك أن يفرض إرادته على الفرس، فصهلت واندفعت مذعورة في مجرى النهر استجابةً لرجل مجنون أرغمها على ذلك.

كان منظرها مثيراً للأسى وهى تغالب التيار القويّ.

قال جوناثان: «سوف تنجرف مع التيار وتمرّ من تحتنا. يستطيع بارك أن يفعل كما يحبّ، ولكنه لن ينجح في الوصول بها إلى تلك الصخرة.»

ولكنها حاولت جهدها حقاً. آه، لكم حاولت وناضلت وبدا عليها الرعب عندما أحسّت أن النهر كان أقوى منها.

حتى بارك أدرك أخيراً أن حياته صارت الآن في خطر. وعندئذٍ أخذ يحاول العودة بها إلى الضفة، ولكنه ما لبث أن أدرك أنها لا تقوى على

ذلك، لأن التيار كان يريد شيئاً آخر - كان يريد أن يجرفه إلى شلالات كارما ليلقى مصيره الذي يستحق. ولكني شعرت بالأسف تجاه الفرس التي فقدت السيطرة ولم يعد لها حول ولا قوّة. وما هي حتّى جرفهما النهر في اتجاهنا، وكان من الواضح أنهما لن يلبثا حتى يعبرا من تحتنا ويغيبا في مجرى التيار الجارف. كان في وسعي أن أرى الرعب في عيني بارك ؛ فمن المؤكد أنه قد أدرك المصير الذي ينتظره.

التفتُّ لأرى جوناثان، ولكني صرخت حين شاهدته. كان يتدلّى بجسمه من الغصن، ورأسه ويداه إلى الأسفل، بينما تلتف ساقاه على الغصن بقوّة. وهكذا صارت يداه قريبتين من ماء النهر، وفي اللحظة التي صار فيها بارك تحتنا مباشرة، أمسك جوناثان بشعره وجذبه إلى الأعلى بحيث صار في وسعه أن يتعلّق بأحد الأغصان.

ثم نادى جوناثان الفرس:

«تعالَيْ أيتها الفرس الصغيره، تعالَيْ!»

كانت قد تجاوزته في مجرى النهر، ولكنها قامت بمحاولة جبارة للعودة اليه. لم تعد الآن تحمل على ظهرها جسم بارك الضخم، ومع ذلك فقد كانت توشك على الغرق. ثم استطاع جوناثان أن يمسك بلجامها على نحو ما، ومن ثم بدأ يجذب اللجام ويشدّه. وتحوّل المشهد إلى صراع متناوب بين الحياة والموت، إذ لم يكن النهر مستعداً لأن يفلتهما، كان يريد الفرس وجوناثان معاً.

وجنّ جنوني فصحت ببارك:

«ساعدهما أيها الثور الكبير! ساعدهما!»

كان قد صعد الشجرة وجلس هناك مطمئناً إلى جانب جوناثان، وكل ما فعله للمساعدة أنه مال بجسمه إلى الأمام وصاح: «دع الفرس تمضي! أفلتها! هناك جوادان في الغابة. أستطيع أخذ أحدهما عوضاً عن هذه الفرس. أفلتها!»

سمعت سابقاً أن الإنسان يزداد قوّة مع الغضب. وبهذا المعنى يمكن القول إن بارك ساعد جوناثان في إنقاذ الفرس.

ولكن جوناثان بعد أن تمكن من إنقاذ الفرس صاح ببارك قائلاً:

«أيها الغبيّ، هل ظننت أنني أنقذ حياتك لكي تسرق حصاني؟ ألا تشعر بالخجل من نفسك؟»

ربّما شعر بارك بالخجل، لا أدري! ولكنه لم يقل شيئاً، بل إنه لم يسأل من نحن أو ماذا نفعل هناك. كل ما فعله هو أنه صعد إلى مكان أصحابه مصطحباً فرسه المسكينة، وما لبثوا جميعاً أن غادروا واختفوا.

نزلنا مكاناً مشرفاً على شلالات كارما في ذلك المساء، وأشعلنا ناراً، وأنا على يقين من أن أحداً لم يشعل ناراً من قبل في مكان مثل ذلك المكان.

كان مكاناً مخيفاً ومهيباً وجميلاً في آن واحد، لا يشبه أي مكان في الأرض أو في الكون فقد كانت الجبال والنهر والشلالات كلها هائلة. ومن جديد شعرت بأنني في حلم، وقلت لجوناثان:

«لا يمكن أن يكون هذا واقعاً. إنه أشبه بشيء يجري في حلم سحيق القدم.»

كنا نقف على الجسر في تلك اللحظة - الجسر الذي بناه تنغل فوق الهّوة

التي تفصل بين البلدين: كارمانياكا ونانجيالا، اللذين يقومان على ضفتي نهر الأنهار القديمة.

كان النهر يتدفق بقوة عارمة في الأعماق السحيقة أسفل الجسر، ثم يقذف نفسه مع هدير هائل من على مسقط شلالات كارما نحو هوّة أكثر عمقاً ومهابة.

سألت جوناثان:

«كيف استطاعوا بناء جسر فوق هوّة سحيقة مرعبة كهذه؟»

أجاب: «أحب أن أعرف أنا أيضاً. تخيّل كم من الأرواح البشرية هدرت في إقامة هذا الجسر. كم من الناس الذين عملوا فيه سقطوا في تلك الأثناء مع صرخات مدوية واختفوا في شلالات كارما!؟ أحب أن أعرف هذا كلّه.»

وارتجفت أوصالي متخيّلاً أنني أسمع صدى تلك الصرخات الفاجعة يَتردد بيَن سفوح الجبال.

كنا في مكان قريب من بلد تنغل. وكان في وسعي أن أرى في الجانب الآخر من الجسر طريقاً يمتد صُعُداً عبر الجبال، جبال كارمانياكا القديمة.

قال جوناثان: «إذا تابعت تلك الطريق فسوف توصلك إلى حصن تنغل.»

وارتجفت من جديد، ولكني قررت أن أترك التفكير بمايخبئه لنا الغد، أما في هذا المساء فسوف أقنع بالجلوس مع جوناثان إلى جانب النار، لأوّل مرّة في حياتي.

كنا قد أشعلنا نارنا على سلسلة من الصخور الناتئة المشرفة على الشلال بالقرب من الجسر. ولكني جلست مديراً ظهري لكل شيء لأني لم أشأ أن

أرى الجسـر المؤدّي إلى بلد تنغل أو أي شيء آخـر. ثم نظَرت إلى وجـه جوناثان الوسيم الطيب في ضوء النار، وإلى الحصانين اللذين كانا يقفان على بعد مسافة قصيرة منا.

قلت: «هذه الجلسة حول النار في البريّة أفضل عندي من المرّة السابقة. لأنني هذه المرّة معك يا جوناثان.»

أينما كنت، أشعر بالأمان والطمأنينة طالما كان جوناثان معي. وقد كنت سعيداً أنني أخيراً تمكنت من الجلوس معه حول نار في البريّة، على طراز نيران المخيّمات في الاساطير والملاحم والحكايات البطولية التي طالما حدّثني جوناثان عنها في الأيام الغابرة.

قلت لجوناثان: «هل تذكر كلامك لي عن الاساطير والملاحم والحكايات ونيران البريّة والمخيّمات؟»

قال: «نعم، أذكر. ولكني في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن هناك قوى شريرة في الملاحم الجارية في نانجيالا.»

سألت: «هل يتوجب أن يكون الأمر هكذا دائماً؟»

جلس صامتاً لبرهة من الوقت يحدّق في النار ثم قال:

«لا. عندما تنتهي المعركة الفاصلة الأخيرة. فسوف تعود نانجيالا بلداً للملاحم الجميلة فقط، وستعود الحياة فيها بسيطة وهنيئة كما كانت من قبل.»

ارتفع لهب النار، وفي ضوئه استطعت أن أرى كم كان جوناثان متعباً وحزيناً. وتابع قائلاً:

«ولكن المعركة الأخيرة يا رسكي لا بدّ أن تكون ملحمة عنيفة تحصد

الأرواح من الطرفين. ولذا يجب أن يقود أورفار تلك المعركة، أما أنا فلا أصلح لتلك المهمة، لأنني لا أحب القتل ولا أقوى عليه.»

لا، ليس هذا من طبع جوناثان ولا ينسجم مع شخصيته. ثم سألته:

«لماذا أنقذت حياة ذلك الرجل المدعوّ بارك؟»

أجاب جوناثان:

«لا أدري إذا كان ذلك عملاً حسناً، ولكن، هناك أشياء يتوجب عليك أن تعملها، وإلاّ لن تكون إنساناً، إنما كومة من السوء والقذارة. لقد أوضحت لك هذا من قبل.»

قلت: «ولكن افرض أنه اكتشف حقيقة شخصيتّك فقبضوا عليك؟»

قال: «عندئذٍ يكونون قد قبضوا على ليونهارت لا على كومة من القذارة.»

خَبَت النار وغلّف الظلام الجبال المحيطة بالتدريج؛ ففي البدء لوّن الغسق الأفق لبرهة قصيرة بدت معه الأشياء كلها أكثر رقّة ووداعة، ثم ما لبث الظلام الدامس أن عمّ البقاع، وسكن الكون حتى لا يُسمع فيه إلاّ هدير شلالات كارما، ولا يرى فيه أي قبس من الضوء في أي مكان.

زَحَفْت حتى التصقت بجوناثان، وأسندنا ظهرينا إلى الجدار الجبليّ وأخذنا نتحدث في الظلام. لم أكن خائفاً في تلك الساعة، ولكن شعوراً بالتوتر والقلق بدأ يسيطر عليّ. قال جوناثان إن علينا أن ننام، ولكني كنت أدرك أنني لن أستطيع ذلك. ثم صار من الصعب عليّ أن أتحدث. بسبب شعور القلق الذي ألمّ بي. ولم يكن لذلك الشعور أي علاقة بالظلام، وإنما كان شيئاً آخر لا أدرك كنهه. وذكّرت نفسي بأن جوناثان

يجلس إلى جانبي.

فجأةً شقَّ ظلمة السماء برق ساطع، أعقبه دويّ رعد هائل مجلجل زلزل الجبال المحيطة، ثم هبت عاصفة رهيبة تفوق كل خيال، وامتد هدير الرعد غامراً الجبال حتى غطّى على صوت شلالات كارما، بينما تتابع البرق في لمعات ساطعة متعاقبة، وفي بعض الأحيان كان التماع البرق يضيء الدنيا في لحظة خاطفة، وفي اللحظة التالية يعود الظلام أشدّ حلكة وسواداً من ذي قبل، وتهيأ لي أن ليلة من الأزمنة القديمة قد حطّت علينا.

ثم أضاء البرق من جديد في التماعة أخرى ساطعة أشد مهابة ورهبة من سابقاتها وقذفت بضوئها الوهّاج على كل شيء.

عندئذٍ، في ذلك الضوء الساطع...

رأيت كاتلا. رأيت كاتلا.







الفصل الثالث عشر

نعم رأيت كاتلا ، ولكني لم أعرف ماذا حدث بعد ذلك. فقد غرقت في الأعماق المظلمة السوداء ولم أصحُ إلاّ بعد أن انتهت العاصفة الرعديّة . وبدأ ضوء الصباح يبزغ من خلف قمم الجبال . كنت أنام ورأسي في حجر جوناثان ، وغمرني الرعب في اللحظة التي تذكرت فيها ما حدث - هناك بعيداً بعيداً على الجانب الآخر من النهر ، كانت كاتلا تقف على جرُف صخري يرتفع عالياً فوق شلالات كارما . ارتجف جسمي كلّه من الخوف حين استرجعت صورتها في ذهني ، وحاول جوناثان تهدئتي ، وقال :

«إنها لم تعد هناك، لقد ذهبت الآن. »

ولكني بكيت وسألته :

« كيف يمكن أن توجد مخلوقات مثل كاتلا؟ أهي وحش أم ماذا؟ »

أجــاب:

«نعم إنها وحش، تنين أنثى قامت من الأزمنة القديمة. هي هكذا. وهي قاسية متوحّشة مثل تنغل نفسه. »

عدت لأسأل :« ومن أين جاءت؟ »

قال جوناثان: «لقد جاءت من كهف كاتلا - هكذا يعتقد الناس. نامت هناك في ليلة من ليالي الأزمنة القديمة ، ومكثت نائمة ألوفاً بعد ألوف من السنين . ولم يكن أحد يعرف بوجودها. وفي صباح أحد الأيام أفاقت من النوم . في ذلك الصباح الرهيب خرجت زاحفة نحو حصن تنغل وهي تطلق نيران جوفها القاتله على كل من تصادفه ، فيتساقطون قتلى في كل اتجاه

من طريقها. »

سألت: « ولماذا لم تقتل تنغل؟ »

أجاب: « فرّ تنغل بحياته عبر الغرف الواسعة الكثيرة في حصنه. ولما اقتربت منه انتزع بوقاً ضخماً مصنوعاً من قرن الحيوان، من النوع الذي يستخدم في المعارك ولدعوة العساكر من أجل النجدة، وحين نفخ في البوق.. »

سألت متعجّلاً: « ماذا حدث عندئذٍ؟ »

قال: « عندئذٍ تحوّلت كاتلا إلى الخضوع التام، وجاءته زاحفة خانعة كالكلب. فهي تخاف من بوقه، وكلما نفخ فيه أطاعته طاعة عمياء. »

أخذ ضوء النهار ينتشر في كل ناحية، وتوهجت قمم جبال كارمانياكا مثل نار كاتلا .. وتأهبنا للمضيّ إلى كارمانياكا. ولكم كنت خائفاً في تلك الساعة! آه، كم كنت خائفاً! فمن يدري أين تستلقي كاتلا الآن في انتظار ضحاياها؟ أين هي؟ وأين تعيش؟ هل تعيش في كهف كاتلا؟ وإذا كانت كذلك فكيف يمكن أن يكون أورفار هناك؟

وجهت هذه الأسئلة إلى جوناثان، فشرح لي الأمر.

لم تكن كاتلا تعيش في الكهف المسمّى باسمها: كهف كاتلا. فهي لم ترجع إلى ذلك الكهف بعد نومها الطويل القديم. وإنما احتفظ بها تنغل مقيّدة في كهف مجاور لشلالات كارما. في ذلك الكهف، كانت مقيّدة بجنزير طويل من الذهب كما قال جوناثان. وكان عليها أن تمكث هناك إلاّ حين يصطحبها تنغل معه ليزرع الرعب في نفوس من يرغب في إرهابهم.

وقال جوناثان : « لقد رأيتها مرّةً في وادي الوردة البريّة. »
سألت : « وهل صرخت حين رأيتها ؟ »
قال: « نعم ، صرخت . »
وتنامى خوفي وقلت :
« إنني شديد الخوف يا جوناثان. كاتلا ستقتلنا. »
حاول تهدئتي من جديد وقال:
« ولكنها مقيّدة، فلا تستطيع أن تتحرك إلى أبعد مما تسمح لها به السلسلة التي تقيّدها. وأبعد ما يمكن أن تصل اليه هو الجرف الصخريّ الذي رأيتها عليه، وهي تقف هناك معظم الوقت تحدّق في شلالات كارما. »
سألت: « ولماذا تفعل ذلك؟ »
أجاب: « لا أدري، لعلّها تبحث عن كارم. »
سألت: « ومن هو كارم؟ »
أجاب جوناثان: « إنما هي أساطير وحكايات خرافية. كلام تقوله الفريدا. فلا يذكر أن أحداً قد شاهد كارم يوماً. إنه ليس حقيقة، ولكن الفريدا تقول أنه مخلوق عاش في شلالات كارما في العصور القديمة السحيقة وأن كاتلا كانت تكرهه، وأنها لا تستطيع أن تنساه، ولذلك فهي تقف هناك وتحدّق في الشلالات. »
قلت: « أي مخلوق هذا الذي يستطيع أن يعيش في مثل هذه الشلالات المرعبة. »
قال جوناثان: « إنه وحش كذلك، ثعبان بحري ضخم طويل يمتدّ طوله على عرض النهر كما تقول الفريدا. ولكن، على الأرجح ليس هذا غير واحدة من

الأساطير القديمة.»

قلت: «ولماذا يكون كارم أكثر أسطورية من كاتلا التي رأيناها بعيوننا؟» لم يجب عن تساؤلي هذا، ولكنه قال:

«أتدري ماذا قالت لي الفريدا حين كنت أنت منشغلاً عنا بقطف التوت البريّ من الغابة؟ قالت إنها عندما كانت صغيرة، كان الناس يخيفون أطفالهم بكاتلا وكارم، فقد سَمِعَت الناس في طفولتها يرددون اسطورة التنين في كهف كاتلا والثعبان البحري في شلالات كارما مرات ومرات. وقد أحبت تلك الحكايات الأسطورية كثيراً لما فيها من تشويق ووقائع مرعبة ومثيرة. فهي لم تكن أكثر من واحدة من تلك الحكايات الأسطورية القديمة التي كان الناس يخيفون أطفالهم بها عبر العصور، كما قالت الفريدا.»

قلت معلّقاً: «أفلم يكن من الخير للناس جميعاً لو بقيت كاتلا مختفية في كهفها لتظل محضَ حكاية أسطورية؟»

قال جوناثان: «نعم، هذا هو رأي الفريدا كذلك.»

ارتعشت وأنا أتساءل في نفسي عمّا إذا كانت كارمانياكا بلداً مليئاً بأنواع الوحوش الغريبة المرعبة. لم أكن راغباً في الذهاب إلى هناك، ولكن كان عليّ أن أفعل ذلك الآن.

أكلنا الطعام الذي نحتفظ به في الكيس وتقوّينا بذلك، إلاّ أننا وفرنا حصّة من الطعام لأورفار، لأن الجوع هو السائد في كهف كاتلا كما قال جوناثان.

شرب غريم وفيالار من ماء المطر المتجمع في القيعان الصخرية. ولم

يكن العشب متوافراً في تلك الجبال العالية، إلاّ أن بعض العشب كان نامياً بجانب الجسر، ولذا أعتقد أنهما أكلا منه ما يكفي قبل أن نشرع في المسير.

قطعنا الجسر نحو كارمانياكا، بلد تنغل، وبلد الوحوش المرعبة الغريبة. كنت شديد الخوف حتى أن جسمي كلّه كان يرتجف، وتذكرت الثعبان البحري. لعلي لم أؤمن بوجوده حقاً، ولكن ماذا لو كان موجوداً وبرز فجأة من أعماق الماء وسحبنا من فوق الجسر إلى شلالات كارما؟ ثم ماذا عن كاتلا!؟ كان رعبي منها أشد من أي شيء آخر. لعلّها تنتظرنا الآن على الضفة الأخرى بأنيابها الحادّة القاسية ونيران جوفها القاتلة. آه، كم كنت خائفاً!

ولكننا قطعنا الجسر، ولم أرَ كاتلا. لم تكن على جرفها الجبلي الشاهق، فقلت لجوناثان:

«لا، إنها ليست هناك.»

ولكن، سرعان ما تبيّن لي خلاف ذلك. أجل، كانت هناك، ولكنها لم تكن على الجرف الجبلي المشرف على الشلالات، وإنما أطلت برأسها الرهيب من وراء كتلة هائلة من الصخور المحاذية للطريق المؤدّي إلى حصن تنغل. شاهدناها وشاهدتنا، فأطلقت صيحة مدويّة تكاد تندك الجبال لها دكّاً، مع صليات نفّاثه من النار والدخان انطلقت من فَتْحَتَيْ أنفها بينما أخذت تحاول الانفلات من جنزيرها لتندفع نحونا. حاولت وحاولت وهي تتابع إطلاق الصيحات المدوّية

تمكن الرعب من غريم وفيالار حتى صار من الصعب علينا التحكم

بهما، ولم يكن رعبي أقل من رعبهما. وتوسّلت إلى جوناثان أن نعود إلى نانجيالا، ولكنه قال:

«لا نستطيع أن نخذل أورفار، لا تخف. لا تستطيع كاتلا أن تصل إلينا مهما شدّت وجذبت جنزيرها.»

ولكن، كان علينا أن نسرع كما قال جوناثان، لأن صيحات كاتلا تمثل إشارات يمكن سماعها من حصن تنغل، وإذا لم نسرع في الابتعاد والاختباء بين الجبال، فإن كوكبة من جنود تنغل ما تلبث أن تطبق علينا.

وهكذا انطلقنا مسرعين بجوادينا. مضينا في طرقات جبلية ضيقة منحدرة متعرّجة. عدونا بسرعة حتى كان الشرر يتطاير من وقع حوافر الجوادين على الصخور، وكنا نقفز متعمّدين على الصخور هنا وهناك وفي اتجاهات مختلفة لكي لا نترك أثراً واضحاً يمكن أن يتعقّبه أحد، ولكي نضللّ أيّاً ممّن يمكن أن يلاحقنا. وفي كل لحظة كنت أتوقع أن أسمع من ورائنا عَدْوَ الخيول وصيحات جنود تنغل محاولين القبض علينا مع رماحهم وسيوفهم وسهامهم. ولكنْ، لم يأت أحد. ولعلّه كان من الصعب ملاحقة أي إنسان بين جبال كارمانياكا ومنحدراتها الحادّة وجروفها الصخرية الكثيرة.

بعد أن قطعنا مسافة طويلة، سألت جوناثان: «إلى أين نمضي؟»

أجاب:

«إلى كهف كاتلا بالطبع. نوشك الآن أن نصل إليه. ذاك هو جبل كاتلا في مقابلك مباشرةً.»

نعم كان الأمر كما قال. فقد كان أمامنا جبل عريض يحتوي على

منحدرات حادةً جداً. إلاّ أن القسم الذي يقع في اتجاهنا كان أقلها انحداراً مما يسهل علينا الصعود من تلك الجهه.

قال جوناثان:

«إن المدخل يقع في الجهة الأخرى من الجبل في اتجاه النهر. وينبغي أن أرى ما يحدث هناك.»

سألت: «جوناثان! هل تعتقد حقاً أن بإمكاننا أن ندخل في كهف كاتلا؟»

كان قد حدّثني عن البوابة النحاسية الضخمة المقامة عبر المدخل المؤدي إلى الكهف، كما حدّثني عن رجال تنغل الذين يقفون هناك للحراسة ليلاً ونهاراً. فكيف إذن يمكن لنا الدخول إلى الكهف؟ لم يجب جوناثان عن سؤالي، ولكنه قال إنّ علينا أن نخفي جوادينا الآن لأنهما لا يستطيعان صعود الجبال.

قدنا الجوادين إلى شقّ صخريّ مغلق من الأعلى ومخفيّ، ويقع تحت جبل كاتلا مباشرةً. وهناك تركنا الجوادين وأحمالنا الأخرى. ربّت جوناثان على غريم وقال:

«انتظر هنا. نحن خارجان في رحلة كشفيّة فقط.»

لم تعجبني فكرة ترك الجوادين، لأنني لم أكن أحب مفارقة فيالار، ولكن لم يكن بدّ من ذلك.

أنفقنا وقتاً طويلاً في الصعود حتى بلغنا مكان استواء الجبل. وحين بلغناه كنت أشعر بإنهاك شديد. وقال جوناثان إن بإمكاننا أن نستريح برهة قصيرة، فألقيت جسمي على الأرض فوراً، وكذلك فعل جوناثان. واستلقينا

هناك على قمة الجبل المنبسطة، فوقنا السماء العريضة، وأسفل منا يقع كهف كاتلا مباشرة. وبدأت أتأمّل في ذلك الوضع الغريب:

في مكان ما في جوف الجبل تحتنا يوجد ذلك الكهف المخيف الواسع بكل ممراته وحجيراته حيث ذوى ومات أناس كثيرون، أما هنا في الخارج فثمة فراشات تطير في الجوّ وتنعم بضوء الشمس، والسماء فوقنا زرقاء تزيّنها بعض الغيوم الصغيرة، والزهور والأعشاب تنمو في كل مكان. إنها لمفارقة غريبة أن تنمو الزهور والأعشاب على سقف كهف كاتلا.

وتساءلت عمّا إذا كان قد مات أناس كثيرون في كهف كاتلا، وعمّا إذا كان أورفار قد مات أيضاً، وسألت جوناثان عمّا إذا كان يعتقد هذا أيضاً. ولكنه لم يجب. فقد مكث متمدداً هناك يحدّق في السماء ويفكر بأمر ما كما لاحظت. أخيراً قال:

«إذا كان صحيحاً أن كاتلا قد نامت نومتها القديمة الطويلة في كهف كاتلا، فكيف استطاعت الخروج حين أفاقت؟ لقد كانت البوابة النحاسية قائمة في مكانها في ذلك الوقت، إذ إن تنغل يستعمل كهف كاتلا سجناً منذ أمد بعيد.»

قلت: «كان يستعمله سجناً بينما كانت كاتلا تنام في داخله؟»

قال: «نعم، بينما كانت كاتلا ما تزال نائمة في داخله من غير أن يعرف أحدٌ بذلك.»

وارتجفت لهذا الكلام، إذ لا أستطيع أن أتصور ما هو أسوأ من هذا. تخيّل إنساناً سجيناً في كهف كاتلا وعليه أن يشاهد تنّيناً رهيباً يقبل زاحفاً هكذا!.

ولكنّ أفكاراً أخرى كانت تدور في ذهن جوناثان، فقد قال:
«لابدّ أنها خرجت من طريق أخرى. ويجب علي أن أجد تلك الطريق حتى لو أنفقت عاماً في ذلك.»

لم يكن في وسعنا الانتظار وقتاً أطول، فقد كان جوناثان شديد القلق والتوتر. ومضينا متقدمين نحو كهف كاتلا الذي كان يقع على بعد مسافة قصيرة منا عبر الجبال. كان بإمكاننا أن نرى من مكاننا النهر وقد صار بعيداً منا إلى الاسفل، ونانجيالا في الجانب الآخر. آه، كم كنت مشتاقاً أن أكون هناك!

قلت:«انظر يا جوناثان! أستطيع أن أرى شجرة الصفصاف حيث استحممنا بماء النهر، هناك في الجانب الآخر من النهر!»

ولكن جوناثان أشار لي أن أصمت، خشية أن يسمعنا أحد، إذ كنّا قد صرنا قريباً من الكهف في تلك اللحظة. كان جبل كاتلا ينتهي بجرف صخري... وعلى سفح الجبل أسفل منا كانت تقع البوابة النحاسية المؤدية إلى كهف كاتلا - كما قال جوناثان - على الرغم من أنه لم يكن بإمكاننا رؤيتها من موقعنا الأعلى في تلك اللحظة.

ولكن، كان في استطاعتنا أن نرى جنود الحراسة. كانوا ثلاثة من رجال تنغل. وكان يكفيني أن أرى خوذاتهم السود لكي يبدأ قلبي في الخفقان الشديد.

زحفنا على بطنينا حتى حافة الجرف الصخري المطّل لنتمكن من النظر إليهم أسفل منا. ولو أن أحدهم رفع رأسه ونظر إلى الأعلى لاستطاع أن يرانا. ولكن، كان من الواضح أنهم لا يحسنون القيام بعملهم في

الحراسة، إذ لم يكونوا ينظرون في أي اتجاه، وأنما كانوا يجلسون ويلعبون طاولة النرد دون اهتمام بأي شيء آخر. على أي حال، من المفترض أنه لا يقدر أحد على اختراق البوابة النحاسية، فلماذا إذن يُعَنّون أنفسهم بالمراقبة؟

في تلك اللحظة، رأينا البوابة تفتح هناك، ويخرج منها رجل آخر من رجال تنغل. كان يحمل طبقاً من الطعام وضعه على الأرض، وانغلقت البوابة وراءه، وكان باستطاعتنا أن نسمعه يحكم اغلاق الرتاج.

وسمعنا ذلك الرجل يقول: «بهذا نكون قد قدمنا لذلك الخنزير آخر وجبة له في حياته.»

ضحك الجميع، وقال أحدهم:

«هل اخبرته عن اهمية هذا اليوم - اليوم الأخير في حياته؟ لابدّ أنك اخبرته أن كاتلا تنتظره هذا المساء حين يهبط الظلام.»

قال الرجل: «نعم، أخبرته، هل تعرف ماذا قال؟»

قال: «آه، نعم. أخيراً!» ثم طلب السماح له بإرسال خطاب إلى وادي الوردة البريّة.

ماذا يقول فيه؟

آه، نعم، يقول فيه: «أورفار يمكن أن يموت، أما الحرية فلا.»

قال الرجل الآخر: «ها! يستطيع أن يقول هذا لكاتلا في هذا المساء، وليسمع جوابها!»

نظرت إلى جوناثان فوجدت وجهه قد صار شاحباً. ثم قال:

«هيا. يجب ان نبتعد عن هذا المكان الآن.»

زحفنا بأكبر قدر ممكن من السرعة والهدوء، وحين صرنا بعيداً عن الأنظار أخذنا نركض، لم نتوقف عن الركض في طريق عودتنا حتى وصلنا الى مكان غريم وفيالار.

دخلنا الشقّ الذي أخفينا فيه الجوادين وجلسنا هناك، لأننا في تلك الساعة لم نكن نعرف ماذا علينا ان نفعل. كان جوناثان شديد الحزن، ولم يكن بإمكاني أن أخفّف عنه، سوى أن أشاركه الحزن. وتبينت مدى حزنه وأساه على المصير الذي ينتظر أورفار. كان يعتقد قبل الآن أن في وسعه أن يساعده، أما الآن فلم يعد يعتقد ذلك.

قال: «أورفار، صديقي الذي لم أقابله من قبل! سيموت الليلة. فماذا سيصيب وديان نانجيالا الخضراء بعد ذلك؟»

أكلنا القليل من الخبز، وأطعمنا منه غريم وفيالار. كنت راغباً في جرعة أو جرعتين من حليب الماعز الذي ادّخرنا قسماً منه. ولكن جوناثان قال:

«ليس الآن. الليلة حين يهبط الظلام، سأعطيك كل قطرة فيه. ولكن ليس قبل ذلك.»

أمضى وقتاً طويلاً وهو يجلس ساكناً واجماً منقبضاً، وأخيراً قال:

«سيكون الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قشّ، أدرك ذلك. ولكن، يجب أن نحاول على كل حال.»

سألت: «نحاول ماذا؟»

أجاب: «معرفة الطريق المجهول الذي سلكته كاتلا في خروجه من الكهف.»

على الرغم من هذا القول، كان في وسعي أن ألاحظ أنه لم يكن مقتنعاً حقاً بإمكان حصول ذلك. ثم قال:

«لو كان معنا من الوقت سنة، لكان ذلك ممكناً. ولكن كل ما نملك هو يوم واحد فقط.»

بينما كان يقول هذا، حدث شيء ما.

كان الشقّ الجبليّ الضيق الذي نختبئ فيه ينتهي داخل الجبل ببضع شجيرات صغيرة نمت هناك، وفجأة رأينا ثعلباً خائفاً يبرز من خلف تلك الشجيرات ويتابع سيره نحونا ويمرّ من جانبنا ثم يخرج قبل أن نتمكن من التمعنّ فيه.

قال جوناثان متعجباً: «من أين جاء ذلك الثعلب؟ يجب أن اعرف.»

وتقدّم نحو نهاية الشقّ واختفى وراء الشجيرات. ومكثت منتظراً في مكاني. ولكنه تأخر كثيراً مع هدوء مطبق، حتى بدأت أشعر بالقلق والتوتر.

صحت: «أين أنت يا جوناثان؟»

عندئذ تلقيت إجابته، وكان صوته مفعماً بالحيوية والنشاط.

«أتدري من أين جاء الثعلب يا رسكي؟ من داخل الجبل! هل تفهم هذا يا رسكي؟ من داخل جبل كاتلا! هناك كهف كبير هناك.»

ربما كانت الأمور محددة ومقررة سلفاً في الأساطير القديمة بفعل الأقدار. ربما كانت الأقدار قد حكمت مسبقاً أن يكون جوناثان هو منقذ أورفار. وربما كانت هناك قوى أسطورية خفيّة تقود خطانا دون علم منا. وإلاّ كيف استطاع جوناثان أن يكتشف طريقاً إلى كهف كاتلا في نفس المكان الذي

اتفق أن وضعنا فيه جوادينا؟ كان هذا الأمر في مثل غرابة ما حدث معي حين دخلت وادي الوردة البريّة واهتَديت إلى بيت ماثياس دون غيره من بين جميع البيوت الأخرى.

لقد اهتدينا إلى مخرج كاتلا من كهف كاتلا. هذا ما اكتشفه جوناثان حقاً؛ وما كان لنا أن نحيد عن ذلك الاعتقاد. كان ذلك ممراً يخترق جوف الجبل. ولم يكن عريضاً، ولكن عرضه كان كافياً لمرور تنين أنثى جائعة - كما قال جوناثان - حين أفاقت بعد آلاف السنين ووجدت طريقها الاعتياديَ مسدوداً ببوابة نحاسيّة.

كذلك كان عرض الممر كافياً لمرورنا نحن منه. حدّقت في الفجوة المعتمة وتساءلت في نفسي: ماذا لو كان الممرّ مليئاً بالتنّينات النائمة التي يمكن أن تستيقظ إذا دسنا عليها في الظلام؟

عندئذٍ شعرت بذراع جوناثان تطوّق كتفيّ. وقال:

«رسكي! لا أعرف ما الذي ينتظرنا هناك في عتمة الممرّ، ولكنني سأدخل الآن.»

قلت بصوت مرتجف قليلاً: «وأنا كذلك.»

ربّت جوناثان على خدّي كما كانت عادته في بعض الأحيان، وقال:

«هل أنت متأكد أنك لا تفضل الانتظار هنا مع الحصانين؟»

قلت: «ألم أقل لك إنني أحب الذهاب حيث تذهب؟»

قال جوناثان بصوت ينمّ عن السعادة:

«بلى، قلت لي هذا.»

وتابعت قائلاً: «لأنني أحب أن أكون معك حتى في أسوأ الأحوال

والظــروف.»

كان كـهف كاتلا بمثابة جحيم تحت الأرض. إذ إن الدخول من فتحة ذلك الممرّ المعتم كان أشبه بالدخـول في حلـم أسود مخيف لا يستطيـع الإنســان أن يصحـو منـه، كما لـو أن الإنسـان يخرج من ضـوء الشمـس إلى عتمة أبديّة. وبدا لي كـهف كـاتلا برمّتـه عش تنّـين مـوغل في القـدم، تفـوح منه رائحة الشرّ المتراكمة من عصور سحيقة. لا شك أن ألوفاً من بيوض التنّين قد فقست في هذا المكان، وخرجت جحافل من التنينات الزاحفة لتقتل وتدمرّ كل ما تجـد في طريقها.

كـان من الطبيـعي أن يختـار تنغل مكاناً مـرعبـاً كـهذا ليكون سجناً. وارتجف جسـمي حين تصـوّرت المآسي التي وقـعت في هذا المكان. وبدا لي الهواء مشبعاً بروح شريرة قديمـة، وخيّل إلي اني أسمع همسات من داخل الكهف تروي قصص العذاب والـدمـوع التي وقـعت فـي كـهف كاتـلا فـي أثناء حكم تنغل. أردت أن أسأل جوناثان عما إذا كان هو أيضاً يسمع تلك الهمسـات، ولكني لم أفـعل، فلعلها ليـست أكـثر من تخـيلات تـدور في ذهـني.

قــال جونـاثـان:«سـنمضي الآن يــا رسـكي فـي مســيرة لن تنســاها ما عشـت أبداً.»

كان محقاً في قوله، فقد كان علينا أن نخترق جوف الجبل لنصل إلى كهف السجن حيث يقيم أورفـار إلى الداخل من البوابة النحاسـية. وذلك هـو الكهف الذي كـان الناس يقـصدونه حين يذكرون كـهف كاتـلا، لأنهم لم يكونوا يعلمـون بوجـود أي كـهف آخـر. بل إننا لـم نكن واثقين تمامـاً من أن

الممر سيقودنا إلى كهف السجن في نقطة بعيدة من جوف الجبل. ولكننا كنا نعلم أن الطريق سيكون طويلاً. فقد سبق أن قطعنا المسافة في الخارج على الجبل نفسه، وكانت مسافة طويلة. ولا بدّ أن يكون المسير في أعماق الجبل وجوفه أضعافاً مضاعفة، إذ كان علينا أن نسير عبر ممرات مظلمة موحشة ملتوية وليس معنا غير سراجين صغيرين نضيء بهما الطريق.

آه، كم كان فظيعاً أن نرى ضوء السراج يهتز على جدران الكهف ولا يبدّد غير القليل من العتمة العامة المحيطة بنا، وبذلك كان كل شيء خارج بقع الضوء يبدو أكثر رهبة وخطورة. وحدثت نفسي قائلاً:

«من يدري؟ لعلّ هناك تنينات وأفاعيَ خرافية رهيبة ووحوشاً غريبة تقبع الآن في كهوفها في انتظارنا». كذلك كنت خائفاً من احتمال أن نضل طريقنا في تلك الممرات. ولكن جوناثان ترك علامات سوداء على جدران الممرات مستعملاً السناج الذي يخلفه لهب السراج، وذلك لكي نهتدي بتلك العلامات في طريق عودتنا.

«امشِ!»، هكذا قال جوناثان حين شرعنا في رحلتنا عبر جوف الجبل. ولكنّ المشي كان أقل ما فعلناه. فقد كان علينا أن نزحف ونحبو ونصعد ونسبح ونقفز ونتسلّق ونناضل ونكدح ونقع. هذا ما فعلناه حقاً. أي كهوف غريبة تلك! بعض الكهوف التي صادفناها كانت من السعه حتى بدت لنا بلا نهايه، وكان الصدى يدلّ على الفراغ الهائل فيها. وقد عبرنا من أماكن لا يستطيع المرء أن يقف فيها، فكان علينا أن نزحف على بطوننا كما يفعل التنّين. وفي أماكن أخرى اعترضت طريقنا جداول ماء جوفية، فلم يكن مفر



من أن نسبح لنقطعها. وأشدّ من هذا كله الهُوَى والصدوع السحيقة التي صادفناها وكنا نكتشفها في آخر لحظة، وقد كدت أسقط في إحداها. كنت أحمل السراج حينما تعثرت قريباً من حافة الهوّة فسقط السراج مني فيها. وشاهدنا السراج يسقط مثل جدول من النار في غور الهوّة السحيق حتى اختفى أخيراً. ومكثنا في ظلام مطبق ليس في الكون كلّه ما هو أشدّ منه حلكة ورهبة. حاولت أن أنسى وجودي واقفاً هناك في الظلمة الدامسة على حافة الهوّة العميقة. ولكني سمعت صوت جوناثان بالقرب مني، فقد أشعل السراج الآخر الذي بقي معنا بينما كان يحدّثني بهدوء دون توقف حتى لا أجن من الرعب.

هكذا تابعنا طريقنا بجهد جهيد. ولا أعلم كم أمضينا من الوقت في ذلك، فقد بدا لي أن الزمان توقف في أعماق كهف كاتلا. وشعرت كأننا قضينا دهراً في ذلك الطريق، حتى بدأت أخشى أننا لن نصل إلى هدفنا إلاّ بعد فوات الأوان. ربما قد فات الأوان حقاً. ربما كان الظلام قد عمّ في الخارج هناك.. وأورفار! ربّما كان قد صار الآن عند كاتلا!

سألت جوناثان عمّا إذا كان يعتقد ذلك، فأجاب:

«لا أدري، ولكن لا تفكر بهذا الآن إن كنت لا تريد أن تفقد صوابك.»

وصلنا إلى ممرّ ضيق متعرّج بدا لنا بلا نهاية. وكلما تقدمنا فيه كان يضيق مسافة تلو المسافة ويتناقص عرضاً وارتفاعاً حتى صار من الصعب علينا أن نتابع تقدمنا فيه، ثم انتهى بفجوة ضيقة لا يستطيع المرء أن يعبر منها إلاّ زحفاً. وحينما صرنا في الجانب الآخر من الفجوة وجدنا أنفسنا فجأة

في كهف واسع، إلاّ أنه كان من الصعب تقدير سعته، إذ أن ضوء السراج لم يكشف منه غير ساحة محدودة. ولكن جوناثان حاول تجريب الصدى، فصاح:

«هو - هو - هو» ورجع الصدى: «هو - هو - هو» متكرراً مرات كثيرة في الاتجاهات المختلفة.

ولكن، عندئذٍ سمعنا صوتاً آخر من مكان بعيد في الظلمة يقول:

«هو - هو - هو، ماذا تريد أيها القادم الغريب ومعك مصباح وضوء؟»

أجاب جوناثان: «إنني أبحث عن أورفار.»

قال الصوت: «أورفار هنا. من أنت؟»

أجاب جوناثان: «أنا جوناثان ليونهارت. ومعي أخي كارل ليونهارت، جئنا لتخليصك يا أورفار.»

قال الصوت: «تأخر الوقت على ذلك. فات الوقت. ولكن شكراً على كل حال.»

وما كاد الصوت ينتهي من العبارة الأخيرة حتى سمعنا الباب النحاسي يفتح مع صوت كالصرير. فأسرع جوناثان فرمى السراج أرضاً وداس عليه ليطفئه، ثم مكثنا واقفين بهدوء تام ونحن نترقب الآتي.

دخل أحد رجال تنغل من البوابه وهو يحمل مصباحاً كبيراً. وبدأت في البكاء بصمت. ولم يكن ذلك بسبب الخوف، ولكنه كان إشفاقاً على مصير أورفار. كيف يمكن أن تكون الحياة بمثل هذه القسوة حتى يأتي هؤلاء لأخذ أورفار في اللحظة التي كنا فيها على وشك إنقاذه!

قال الرجل: «هيء نفسك يا أورفار، يا ابن وادي الوردة البريّة. فبعد لحظة ستؤخذ إلى كاتلا. المرافقون السود في طريقهم إليك.»

في ضوء المصباح الذي جاء به الرجل استطعنا أن نبصر قفصاً خشبياً كبيراً مصنوعاً من قضبان خشبيّة خشنة، وفي داخله كان أورفار محبوساً كما يحبس الحيوان.

وضع الرجل مصباحه على الأرض قريباً من القفص وقال:

«يمكنك الاستمتاع بضوء المصباح في ساعتك الأخيرة، لقد قرّر تنغل ذلك بدافع الرحمة، حتى تعتاد عيناك الضوء من جديد، فيصير باستطاعتك أن ترى كاتلا بوضوح حين تقابلها، وهو ما تتطلع اليه بالتأكيد!»

أطلق ضحكة ساخرة واختفى عبر البوّابة التي انغلقت وراءه بقوّة ومع صوت كالدويّ.

تقدمنا فوراً نحو القفص وأورفار، وكان في وسعنا أن نراه الآن بوضوح في ضوء المصباح. لقد كان منظره بائساً حقاً، ولم يكن يقوى على الحركة، إلاّ أنه تمكن من الزحف نحو القضبان ومدّ يديه إلينا عبرها، وقال:

«جوناثان ليونهارت. لقد سمعت عنك الكثير في وطني: وادي الوردة البريّة، والآن ها قد جئت إلى هنا.»

قال جوناثان: «نعم، أنا هنا الآن.» وهنا لاحظت أن جوناثان كان يبكي قليلاً لحالة أورفار البائسة المحزنة. ولكنه أسرع فاستخرج سكينه التي يحتفظ بها تحت حزامه وبدأ يحز بها قضبان القفص الخشبي. ثم قال:

«هيا يا رسكي! ساعدني!» فانضممت إليه على الفور وبدأت أحزّ القضبان بسكيني معه، ولكن، ماذا عسى أن تفعل السكين في تلك القضبان؟ فالذي نحتاج اليه حقاً هو بلطة أو منشار.

ومع ذلك تابعنا حزّ الخشب، كلّ منا بسكينه، حتى دَمِيَتْ أيدينا. كنا نحزّ ودموعنا تسيل، شعوراً منا بأن الوقت قد فات وأن جهدنا قد يذهب عبثاً. وقد أدرك أورفار ذلك أيضاً، إلاّ أنه أراد أن يتعلّق بالأمل، فكان يلهث في قفصه وهو يراقبنا متوتراً، ويغمغم بين الفترة وأخرى قائلاً:

«هيا! هيا أسرعا!»

وأسرعنا حتى سال الدم من أيدينا، كنا نحزّ قضبان الخشب لنقطعها بأقصى ما نملك من جهد وطاقة، ونحن نتوقع أن تفتح البوابة في أية لحظة ليدخل منها الجنود الذين سيرافقون أورفار إلى كاتلا. وعندها ستكون نهاية أورفار ونهايتنا ونهاية وادي الوردة البريّة برمّته. إذا جاؤوا الآن فلن يأخذوا واحداً فقط، وسوف تحصل كاتلا على ثلاثة في هذه الليلة.

وشعرت بأنني لم أعد قادراً على احتمال المزيد، كانت يداي ترتجفان حتى صار من الصعب عليّ أن أقبض على السكين. وأخذ جوناثان يصرخ بغضب جارف. كان غضبه منصباً على تلك القضبان الخشبية التي تأبى أن تنكسر على الرغم من كل ما بذلناه من جهد في حزّها. فطفق يركلها بقدمه ويعود ليصيح ثم يركل ثم يحز ثم يركل من جديد، وأخيراً سمعنا صوت شيء يتهشم - أخيراً انكسر أحد القضبان الخشبية، ثم انكسر آخر. وكان هذا كافياً.

قال جوناثان: «الآن يا أورفار، الآن!» ولكن أورفار كان أضعف من

أن يتحـرّك. وهكذا زحف جـوناثان إلى داخل القـفص وسـحب أورفـار إلى خارجه. ولم يكن في وسعه الوقوف ولا المشي. وكنت أنا أيضاً على وشك أن أصبح مثله من شدّة الارهاق والخـوف، ولكني تحاملت على نفسي فحملت المصباح وتقدمتهما، وبدأ جوناثان يجرّ أورفـار بعيداً نحو فجوة الممرّ التي دخلنا منها. كان جوناثان نفسه قد بلغ الآن حدّ الإعياء فصار يلهث بقوّة. نعم، لقد كنا جميعاً نلهث كالحيوانات المطاردة المهدّدة بالافتراس.

أخيراً نجح جوناثان في سحب أورفار عبر الفجوة الضيقة. لا أدري كيف أستطاع أن يفعل ذلك، ولكنه ضغط نفسه عبر الفجوة ساحباً أورفار معه بطريقة مدهشة. وشعرت في تلك اللحظة أن أورفار قد صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. والآن جاء دوري لكي أزحف عبر الفجوة. ولكن ما إن هممت بذلك حتى سمعنا صرير انفتاح البوابة النحاسيّة. وعندئذٍ خارت قواي تماماً وشعرت بأن جسمي قد فقد كل طاقته ولم أعد أقوى على الحركة إطلاقاً.

همس جـوناثان لاهثـاً: «أسـرع، أسـرع ونـاولني المصـبـاح!» نـاولتـه المصباح بسرعة على الرغم من ارتجاف يديّ. كان لابدّ من إخفاء المصباح، إذ إن أدنى لمعة من الضوء يمكن أن تكشف وجودنا وتؤدّي إلى هلاكنا.

كان المرافقون السود قد صاروا في داخل الكهف مع مزيد من رجال تنغـل وبأيديهم المصابيح. وازداد الضـوء في المكان إلى حـدّ شـديـد الخطورة، إلاّ أن موقعنا على جانبي الفجوة كان بعيداً عن دائرة الضوء، وانحنى جوناثان عبر الفجوة وأمسك بذراعي وجرّني عبر الفجوة إلى ذلك الممرّ المعتم خلفها. وهناك جلسنا جميعاً نلهث ونستمع إلى صرخاتهم:

«قـد اختفى! قـد اختفى!»



الفصل الرابع عشر

في تلك الليلة حملنا أورفار عبر الجحيم. والأصح أن جوناثان هو الذي قام بالعمل. لقد جرّ أورفار في ظروف هي الجحيم بعينه، ولا أجد وصفاً آخر ينطبق على تلك الظروف.

كان آخر ما سمعناه من جنود تنغل صراخهم حين اكتشفوا اختفاء أورفار. ثم عمّ الصمت. وتوقعنا أن يلاحقونا، ولكنهم لم يفعلوا. لا بدّ أنهم أدركوا أن ثمّة طريقاً آخر للخروج من كهف كاتلا، وهو الطريق الذي عبرناه. ولم يكن من الصعب اكتشافه ولكنهم كانوا جبناء في الحقيقة لا يجرؤون على مواجهة خصومهم إلاّ حينما يكونون معاً كالقطيع. ولكن

الواحد منهم لا يجرؤ على أن يكون أول الزاحفين في مجرى ضيق معتمّ حيث يقبع عدوّ مجهول في الانتظار. حقاً لا بدّ انهم جبناء، ولولا ذلك لما تركونا نفرّ بتلك السهولة. لا أحد استطاع الفرار من كهف كاتلا من قبل. وماذا عساهم سيقولون لتنغل؟ وكيف يفسرون له اختفاء أورفار؟ ولكن هذه مشكلتهم. أما نحن فلدينا من المشاغل والمشكلات ما يكفينا.

جررنا أنفسنا عبر الممر الضيق قبل أن نجرؤ على التوقف لنلتقط أنفاسنا، من أجل أورفار. وقدم له جوناثان من حليب الماعز الذي كان حامضاً ومن الخبز الذي كان مبتلاً، ومع ذلك قال أورفار:

«إنها الذ وجبة أكلتها في حياتي.»

دعك جوناثان ساقي أورفار الطويلتين ليرد إليهما الحياة، وبدأ الانتعاش يظهر عليه، إلاّ أنه بقي عاجزاً، ولم يكن في وسعه إلاّ الزحف.

شرح له جوناثان وجهة الطريق. وسأله عمّا إذا كان باستطاعته أن يواصل التقدّم في تلك الليلة، فقال أورفار بحماس:

«نعم، نعم، نعم. سأزحف الطريق إلى وطني في وادي الوردة البريّة إذا اقتضى الأمر. لا أريد أن أستلقي هنا في انتظار أن تأتي كلاب تنغل المتعطشة للدماء نابحةً وراءنا عبر هذه الممرات.»

كانت ملامح أورفار وهيئته تدلّ على حقيقة معدنه وشخصيته. لم يظهر لنا بمظهر السجين المقهور المنكسر، بل تمثّل لنا متمرداً على الظلم، مقاتلاً من أجل الحرية. إنه حقاً أورفار بطل وادي الوردة البريّة. وحين رأيت عينيه في ضوء المصباح أدركت لماذا كان تنغل يخشاه كل تلك الخشية.

فعلى الرغم من الضعف الذي آل إليه جسمه، شعرت بأن ثمة ناراً متّقدةً تتأجج في داخله. ولعل تلك القوة الناريّة المشتعلة في أعماقه هي التي مكنته من احتمال الجحيم الذي مررنا به في تلك الليلة. إذ لم يكن بين الليالي كلها ماهو أشد وأقسى من تلك الليلة.

لقد بدت الليلة طويلة كالأبد، ومفعمة بالرعب. ولكن، حينما يبلغ الإنسان حداً هائلاً من الإعياء لا يعود شيء قادراً على إثارة قلقه، حتى الكلاب المفترسة الضارية. نعم، لقد سمعنا نباحها المرعب يقبل من بعيد، ولكني لم أكن أملك الطاقة حتى للخوف. وعلى كل حال، ما لبثت تلك الكلاب أن توقفت عن النباح، وساد الصمت من جديد. اذ حتى الكلاب المفترسة الضارية لا تجرؤ على المضّي قدماً في اختراق تلك المعابر العميقة التي كنا نزحف ونحبو فيها.

زحفنا طويلاً طويلاً، وعندما خرجنا في النهاية إلى الفضاء الخارجي قريباً من موقع غريم وفيالار، وقد امتلأت أجسامنا بالكدمات والتورّمات وآثار الدم الجاف، وطفح منا العرق حتى التصقت ثيابنا بجلودنا، وبلغنا من الإعياء حداً لا يوصف، عندما خرجنا على تلك الحال كان الليل قد انقضى وبزغ ضوء الصباح. مدّ أورفار ذراعيه كأنه يريد أن يحتضن الأرض والسماء وكل ما تقع عليه عيناه، ولكنّ ذراعيه ما لبثتا أن ارتختا ووقع نائماً. وذهبنا جميعاً في نوم عميق عميق أشبه بالغيبوبة، وفقدنا الوعي بكل شيء، حتى اقترب المساء. ثم أفقت، لأجد فيالار يربّت عليّ بأنفه. لا بدّ أنه قدّر أنني نمت وقتاً طويلاً كافياً. كذلك استيقظ جوناثان، وقال: «يجب أن نصل إلى كارمانياكا قبل حلول الظلام، فإن تأخرنا عن ذلك

ضللنا طريقنا.»

وهكذا أيقظ أورفار. وعندما استردَّ أورفار وعيه وحيويته واعتدل جالساً ونظر حوله وأدرك أنه لم يعد في كهف كاتلا، ترقرقت الدموع في عينيه.

وغمغم قائلاً: «الحرية! الحرية!»

أخذ يدي جوناثان وبقي ممسكاً بهما وقتاً طويلاً ثم قال:

«حياتي وحريتي - لقد أعدتهما إليّ». وشكرني كذلك، على الرغم من أنني لم أفعل شيئاً يذكر، بل ربّما كنت عائقاً في بعض الأحيان.

لا بدّ أن الشعور الذي سيطر على أورفار في تلك اللحظة كان في مثل الشعور الذي غمرني حينما تحررت من كل أوجاعي وجئت إلى وادي الكرز. ورجوت من كل قلبي أن يصل إلى واديه حياً وحراً، ولكننا ما زلنا بعيدين عن تلك الغاية. فقد كنا ما نزال في جبال كارمانياكا، والأرجح أن جنود تنغل قد انتشروا في كل مكان منه بحثاً عنا. وكان من حسن حظنا أنهم لم يعثروا علينا نائمين في ذلك الشق من الجبل.

أكلنا ما تبقى معنا من الطعام، وبعد حين قال أورفار:

«تصوّروا! إنني حيّ! حيٌّ وحرّ!»

إنه الوحيد الذي بقي حياً من سجناء كهف كاتلا، أما الآخرون فَقُدِّموا واحداً تلو الآخر لكاتلا الرهيبة.

ثم قال أورفار: «ولكنّ تنغل سيملأ كهف كاتلا من جديد بسجناء جدد. كونوا على يقين من ذلك. صدّقوني.»

ومن جديد، ترقرقت الدموع في عينيه، وقال متأثراً:

«آه يا وطني، يا وادي الوردة البريّة الحبيب! كم سيكون عليك أن تعاني تحت وطأة تنغل قبل أن تتحرر!»

أراد أن يعرف كل ما جرى في وديان نانجيالا خلال مدة سجنه. استفسر عن صوفيا وماثياس وكل ما فعله جوناثان. وقد أخبره جوناثان عن كل شيء، وعن جوسي كذلك. وشعرت أنه يوشك أن يموت أمام عينيّ حينما أدرك أنه عانى كل ما عانى في حبسه الطويل في كهف كاتلا، بسبب جوسي. صمت طويلاً قبل أن يستردّ روعه ويتمالك نفسه من جديد ليقول:

«حياتي لا تعني شيئاً بالنسبة إليّ. ولكنّ ما اقترفه جوسي بحق وادي الوردة البريّة لا يمكن أن يغتفر.»

قال جوناثان: «سواء أغُفِرَ له أم لم يُغْفَرْ، الأرجح أنه قد تلقى عقابه وانتهى الأمر. لا أعتقد أنك سترى جوسي مرّة أخرى.»

ولكن الغضب الجارف ما لبث أن هيمن على أورفار. أراد أن يتحرّك فوراً، وبدا كأنه يتمنّى أن يبدأ النضال من أجل الحرية في ذلك المساء ذاته. وشتم ساقيه لأنهما كانتا تخذلانه كلما همّ بالوقوف عليهما، ولكنه تابع المحاولة، وأخيراً نجح في الوقوف بهما. وبدا عليه الاعتزاز حين تمكن من ذلك أمامنا. وكان منظره طريفاً حقاً وهو يتأرجح إلى الأمام والخلف وكأنه يوشك أن يسقط في أية لحظه. ولم نملك سوى الابتسام ونحن نراقبه.

قال جوناثان: «أورفار! يمكن لأي إنسان أن يلاحظ من مسافة طويلة أنك كنت سجيناً في كهف كاتلا.»

كان هذا صحيحا. كنا جميعاً ملطخين بالأوساخ والدم الجاف، إلا أن مظهر أورفار كان أشدنا بؤساً ورثاثة. كانت ثيابه قد صارت خرقاً بالية رثّة، ووجهه لا يكاد يُرى تحت شعره ولحيته. لم يكن يظهر منه حقاً غير عينيه المتقدتين كالجمر.

كان هناك جدول ماء يجري في الشق الذي كنا نختفي فيه، فأزلنا بمائه ما علق بنا من الأوساخ ولطخات الدم. غمست وجهي بالماء البارد مرةً تلو أخرى. كان الشعور رائعاً ؛ أحسسنا أننا نشطف عن أنفسنا آثار كهف كاتلا كلّه.

ثم استعار أورفار سكيني، وبها قص الكثير من لحيته وشعره حتى بدا أقل شبهاً بسجين فارّ. ثم استخرج جوناثان من كيسه الخوذة والرداء اللذين يستعملها جنود تنغل، وهما اللذان أخرجهما معه من وادي الوردة البريّة.

قال جوناثان لأورفار: «ضعهما عليك يا أورفار، حتى إذا صادفنا رجال تنغل ظنوك واحداً يسوق سجينين معه إلى مكان ما.»

وهكذا ارتدى أورفار الرداء والخوذة، ولكنه أعرب عن ضيقه بهما وقال: «هذه أول مرة وآخر مرّة أرتدي فيها هذه الثياب، إنها تمثل القمع والاضطهاد والقسوة.»

حان الوقت الآن لأن نغادر. بعد ساعة أو ساعتين تغيب الشمس فيعمّ الظلام الدامس هذه الجبال مما يستحيل معه أن يتعرف الأنسان طريقه في هذه المعابر الخطرة.

بدا الجدّ على وجه جوناثان. كان يدرك ما الذي يتعين علينا أن

نواجهه، وسمعته يقول لأورفار:

«الساعتان القادمتان ستقرران مصير وادي الوردة البريّة كما أعتقد. هل تستطيع الركوب طوال هذا الوقت؟»

قال أورفار: «نعم، نعم، نعم. بل أستطيع الركوب مدّة عشرة ساعات إن شئت.»

تقرر أن يمتطي أورفار صهوة فيالار. ساعده جوناثان على الركوب، وفي لحظة واحدة تحوّل إلى إنسان آخر، كأنه يكبر ويصبح أكثر قوةً وعظمة على صهوة الحصان. نعم، كان أورفار واحداً من هؤلاء الرجال الشجعان الاقوياء من أمثال جوناثان. كنت الوحيد الذي يفتقر إلى الشجاعة. ولكني، حين أردفني جوناثان وراءه على حصانه وطوّقت خصره بذراعي وأسندت رأسي على ظهره، شعرت بأن شيئاً من قوته يتسرّب إليّ، وقلّ خوفي. ومع ذلك لم أملك إلاّ أن أحدث نفسي قائلاً:

«كم كان يمكن أن تكون الحياة أسهل وأروع لو كانت خالية من الشرور التي تتطلب منّا ان نكون أقوياء وشجعان!» وتمنيت لو عادت أيامي الأولى مع جوناثان في وادي الكرز. آه، كم تبدو تلك الأيام بعيدة الآن!

ثم انطلقنا في رحلتنا. ومضينا نحو مغرب الشمس. إذ كان الجسر في ذلك الاتجاه. كانت الطرق كثيرة ومتشعبّة ومربكة في جبال كارمانياكا، ولم يكن في وسع أحد غير جوناثان أن يهتدي إلى الطريق الصحيح في تلك المتاهة. ولحسن حظنا انه كان قادراً على ذلك.

كنت أستطلع في كل اتجاه مترقباً ظهور جنود تنغل. ولكن لم يظهر أحد منهم. لم يكن وراءنا غير أورفار مرتدياً تلك الخوذة الرهيبة وذلك الرداء

الاسود.

وكنت كلما التفتُّ ورأيته في تلك الهيئة ، أشعر بطعنة خوف تنغرز في ظهري، فقد نما في داخلي الخوف من تلك الخوذة ومن كل من يرتديها.

تابعنا الركوب وقتاً طويلاً من غير أن يحدث شيء. كانت الطبيعة هادئة وجميلة. وبدا المساء ساكناً في الجبال. ولكن لم يكن كل ذلك الهدوء والسكينة إلاّ مظهراً خادعاً. كان التوتر يسيطر علينا جميعاً، حتى جوناثان بدا متوتراً متحفزاً.

قال جوناثان: «إذا بلغنا الجسر يكون الأسوأ قد انتهى.»

سألته: «متى نبلغ الجسر؟»

أجاب: «في غضون نصف ساعة إذا سارت الامور على ما يرام.»

ولكن الامور لم تسر على ما يرام. ففي تلك اللحظة رأينا كوكبة من جنود تنغل: ستة منهم يحملون الرماح على خيولهم السود. وقد برزوا في المكان الذي ينعطف فيه الطريق حول جدار جبليّ، وكانوا يتقدمون في اتجاهنا.

قال جوناثان: «حياتنا الآن في خطر. تقدم يا أورفار.»

تقدّم أورفار حتى صار بجانبنا، وقذف له جوناثان زمام حصانه، ليبدو أن أورفار يقودنا بوصفنا سجينَيْن عنده.

لم يكونوا قد ابصرونا بعد، ولكن الوقت كان قد فات على الفرار، ولم يكن هناك طريق للفرار كذلك. كل ما نستطيع فعله هو أن نتابع طريقنا، آملين أن تنطلي خدعة الخوذة والرداء.

قال أورفار: «لن أسلمهم نفسي حياً أبداً، أريدك أن تعرف هذا يا ليونهارت.»

بهدوء تام تابعنا التقدم نحو اعدائنا. وبدأت المسافة بيننا تضيق رويداً رويداً، وشعرت بوخزات الخوف في صلب ظهري. وخطر في بالي أنه إذا كانوا سيقبضون علينا الآن، فقد كان من الأجدى لو بقينا في كهف كاتلا، ووفرنا على أنفسنا عذاب تلك الليلة الطويلة بلا طائل.

ثم تقابلنا. وبدأوا في اتخاذ وضع مناسب للعبور من جانبنا على الممر الضيق، وهنا أبصرت قائد المجموعة الذي لم يكن غير بارك نفسه.

ولكن بارك لم ينظر إلى جوناثان وإليّ، فقد اتجه بصره إلى أورفار. وفي اللحظة التي تجاوز فيها كل منهم الآخر، سأل بارك:

«هل تعلم إذا كانوا قد قبضوا عليه؟»

أجاب أورفار: «لا، لم أسمع شيئاً.»

قال بارك: «إلى أين أنت ذاهب؟»

قال أورفار: «معي سجينان». ولم يعطِ أية معلومات أخرى، وتابعنا انطلاقنا بأسرع ما نستطيع. قال لي جوناثان:

«التفت إلى الوراء بحذر يارسكي، وانظر ماذا يفعلون.»

فعلت كما طلب، وقلت:

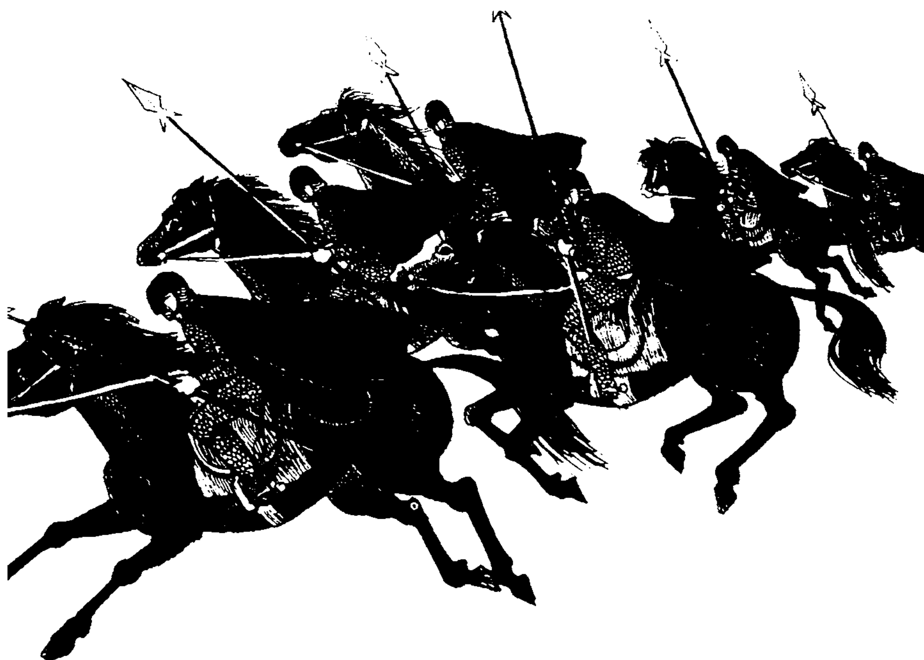
«إنهم يبتعدون.»

قال جوناثان: «عظيم.»

لقد تعجلّ بالتفاؤل، ففي هذه اللحظة رأيتهم يتوقفون ويلتفتون نحونا.

قال جوناثان: «لقد بدأوا في التمعنّ والتفكير.»

كان من الواضح أن هذا ما حدث فعلاً.



صاح بارك: «توقف لحظة! أريد ان أتفحصك عن قرب مع سجينَيْك.»

صرّ أورفار بأسنانه وقال:

«انطلق يا جوناثان. وإلاّ فنحن بحكم الأموات.»

وانطلقنا فعلاً مسرعين.

وهنا استدار بارك ومجموعته بخيولهم وراءنا بسرعة جعلت أعراف خيولهم ترفرف في الهواء.

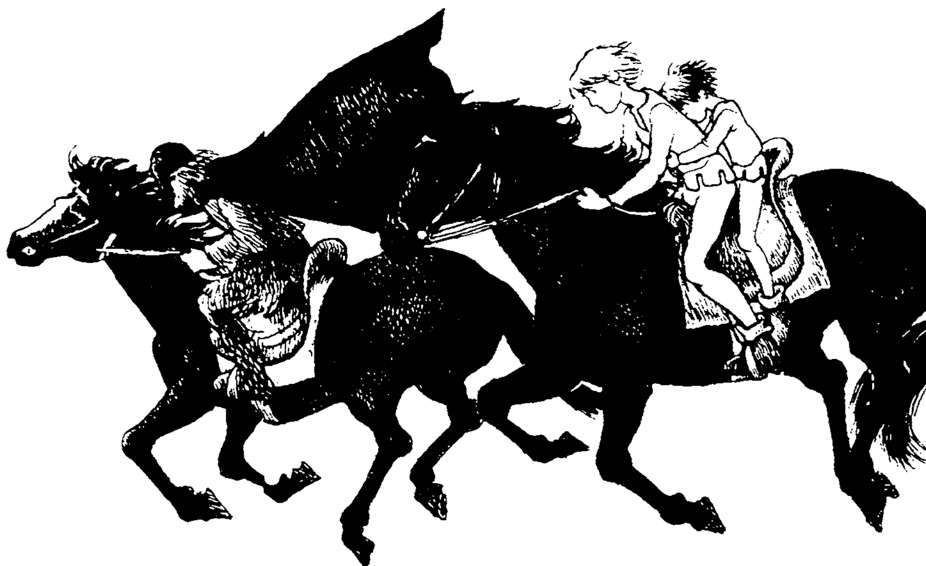
حثّ جوناثان حصانه قائلاً: «الآن يا غريم، أرهم ماذا بوسعك أن تفعل.»

قلت في نفسي: «وأنت كذلك يا فيالار.» وتمنيت لو كنت أنا الآن على صهوته.

لم يكن لأحد حصاناً مثل غريم وفيالار اللذين طارا الآن عبر الممر وقد أدركا أن المسألة صارت مسألة حياة أو موت. وفي المقابل انطلق ملاحقونا في اعقابنا؛ وسمعنا وقع حوافر الخيول وراءنا، تقترب حيناً وتبتعد حيناً، ولكنها لا تتوقف. لقد عرف بارك الآن أنه يطارد أورفار. وما كان لأحد من رجال تنغل أن يترك صيداً ثميناً كهذا يفلت منه، دون أن يحاول الامساك به وحمله إلى حصن تنغل ليحصل في مقابله على رضا تنغل ومكافأته.

قطعنا الجسر وهم في أعقابنا، وسمعنا أزيز رمحين قُذفا علينا، ولكنهما لم يصلا الينا.

لقد صرنا الآن على الجانب الآخر من الجسر، في أرض نانجيالا. وحسب



كلام جوناثان، يُفترض أننا الآن قد تخطينا الأسوأ. ولكن الواقع كان خلاف ذلك، إذ استمرت المطاردة على ضفة النهر. كان ممرّ الخيول المؤديّ إلى وادي الوردة البريّة يرتفع على جانب النهر ثم ينعطف ويلتوي، وقد تابعنا العدو عليه. كان هذا هو الطريق الذي سلكناه سابقاً ذات مساء صيفي، حينما جئت مع جوناثان على جوادينا، وكنا نسير على مهل في طريقنا إلى الموقع الذي أوقدنا فيه النار في البريّة لأول مرّة. لقد صارت هذه المناسبة ذكرى بعيدة، وكأنها حدثت قبل ألف عام. ولكن، هكذا يجب أن يسير الناس على ضفاف الأنهار، وليس بالطريقة التي نعدو بها الآن مُطارَدِين، حتى أوشك جوادانا على السقوط إعياءً.

كان أورفار أسْرَعَنا، لأنه كان منطلقاً إلى وطنه «وادي الوردة البريّة». ولم يستطع جوناثان أن يلحق به، وكاد بارك أن يصل إلينا. لم أعرف السبب أول الأمر، ثم أدركت أني أنا السبب. لم يكن هناك من هو أسرع من جوناثان ولا من يستطيع اللحاق به إذا انطلق وحده بجواده، أما الآن فعليه أن يفكرّ بي طوال الوقت، وقد أعاقه هذا.

كان جوناثان قد قال إن هذه المسيرة ستقرّر مصير وادي الوردة البريّة. والموقف الآن يعني أنني الشخص الذي سيكون العامل الأكبر في تحديد النهاية. وبالحكم على ما يجري الآن بسببي يبدو أن النهاية ستكون سيّئة. لقد صرت مقتنعاً بهذا، فكلما التَفَتُّ ورائي كنت أرى جنود تنغل قد صاروا أقرب وأقرب منا. أحياناً كانت تخفيهم رابيه أو مجموعة من الشجر، ولكنهم ما يلبثون أن يبرزوا من جديد وقد ازدادت المسافة بيننا ضيقاً.

وقد أدرك جوناثان، مثلما أدركت، أنه لم يعد في وسعنا النجاة معاً. وقد كان من الضروريّ أن يفلت جوناثان. وما كنت لأقبل أن يُقْبَضَ عليه بسببي، ولذا قلت:

«جوناثان! افعل كما أقول لك الآن. اقذفني خلف منعطف حيث لا يرون. والْحَقْ أنت بأورفار!»

لاحظت الدهشة عليه أول الأمر، إلاّ أنه لم يكن بمثل دهشتي أنا من نفسي.

قال جوناثان: «هل تملك الجرأة حقاً.»

قلت: «لا، ولكني أريد ذلك على كل حال.»

قال: «أيها الشجاع الصغير رسكي، سأعود إليك لآخذك، بعد أن أوصل أورفار بسلام إلى ماثياس، أعود اليك فوراً.»

قلت: «هل تَعِدْ؟»

قال: «طبعاً. ماذا تعتقد؟»

كنا قد بلغنا موضع الصفصافة المتدلية إلى ماء النهر حيث استحممنا سابقاً، فقلت:

«سأختبىء في شجرتنا، عد إليّ هناك.»

لم يكن لدي وقت لقول المزيد، فقد كنا الآن نتوارى عن عيون المُطارِدِين خلف إحدى الربوات. خفف جوناثان من سرعته لأتمكن من الانزلاق والنزول عن الجواد، ثم انطلق وحده من جديد، وسارعت أنا إلى الاختفاء في إحدى الحفر. تكوّمت هناك بينما مرّت كوكبة الجنود هادرةً كالرعد. واستطعت أن أرى وجه بارك الغبي في لمحة خاطفة. كان مُكَشِّراً كأنه على استعداد

للعض - هذا هو الرجل الذي أنقذ جوناثان حياته!

ولكن جوناثان استطاع اللحاق بأورفار. وقد رأيتهما يختفيان معاً، فشعرت بالراحة والسرور. قلت في نفسي: «هيا يا بارك، تابع العدو إذا كنت تعتقد أن هذا يجدي. لن يكون بإمكانك أن ترى جوناثان وأورفار بعد الآن.»

مكثت بالحفرة حتى اختفى بارك ورجاله تماماً، ثم انحدرت نحو النهر وشجرة الصفصاف. وشعرت بالارتياح وأنا أخفي جسمي في وسط الشجرة وأستقر على غصن ذي شعبتين، فقد كنت متعباً في تلك اللحظة.

كان هناك قارب صغير ذو مجدافين يتمايل عند ضفة النهر، تحت الشجرة. وبدا أن القارب قد انفلت من مرساه في مكان ما قبل هذا الموضع، إذ لم يكن مربوطاً هنا. ولا بدّ أن صاحبه حزين الآن لفقده. هذا ما خطر لي وأنا أجلس هناك وأنظر في كل اتجاه متسائلاً حول هذا وذاك.

نظرت إلى الماء المتدفق وإلى صخرة بارك، وحدّثت نفسي قائلاً: «كان يجب أن يكون هناك ذلك الجبان بارك». ورأيت جبل كاتلا على الجانب الآخر من النهر، وتساءلت كيف لإنسان أن يسجن إنساناً آخر هناك في تلك الكهوف الرهيبة. فكّرت بأورفار وجوناثان ورجوت من كل قلبي أن يتمكن من الفرار عبر ممرنا السريّ تحت الأرض قبل أن يلحق بهما بارك. وتساءلت عمّا سيقوله ماثياس حين يجد أورفار في مخبئه. كم سيكون سعيداً! كل هذا خطر في بالي بينما كنت جالساً هناك.

ثم بدأ الغسق المسائيّ بالظهور في الأفق، وعندها أدركت أنه ربّما كان عليّ أن أقضي الليلة هنا وحيداً. فالأرجح أن جوناثان لن يملك الوقت

الكافي ليعود إليَّ قبل الظلام. كان الوضع مثيراً للخوف، وبدأ القلق يزحف إلى داخلي مع هبوط المساء، وشعرت بوحدة مؤلمة.

وفجأةً رأيت امرأة تقبل من مكان مرتفع بمحاذاة النهر، ولم تكن غير صوفيا، ولم أكن يوماً أسعد برؤيتها مني في تلك اللحظة.

صحت: «صوفيا! صوفيا أنا هنا!»

نزلت عن الشجرة وأخذت ألوّح من مكاني، ومرّ وقت قبل أن تتفطن إليَّ وتُميِّز شخصي.

قالت صائحة: «ولكن، كيف جئت هنا يا كارل؟ وأين جوناثان؟ انتظر دقيقة حتى نصل إليك، يجب أن نسقي خيولنا على كل حال.»

عندئذٍ رأيت رجلين خلفها راكبين. ميّزت واحداً منهما أولاً، كان ذلك هربرت. أما الرجل الآخر فلم يكن ظاهراً حتى تلك اللحظة، ثم تقدم قليلاً فاستطعت تمييزه، إنه جوسي.

وحدثت نفسي قائلاً: «ولكن، لا يمكن أن يكون هذا جوسي!» وكدت أظن أنني فقدت عقلي وصرت أتوهّم. لا يمكن أن تأتي صوفيا مع جوسي! أين وقع الخطأ؟ هل جُنّت صوفيا كذلك، أم أنني كنت فقط قد حلمت أن جوسي خائن؟ لا، لا لم يكن ذلك حلماً. لقد كان خائناً حقاً! ولم أكن أتوهم أني أرى الأشياء، فقد كان هذا هو بنفسه. ما الذي سيحدث الآن إذن؟

أقبل على جواده نحو النهر وصاح من بُعْد:

«انظروا مَنْ هنا! إنه كارل ليونهارت الصغير. هل تصوّرتم أن نلقاه هنا!»

انحدر ثلاثتهم نحوي، ووقفت هناك ساكناً في انتظارهم وليس في ذهني

غير سؤال واحد: «ما الذي سيحدث الآن!»

ترجلوا عن جيادهم، وركضت صوفيا نحوي وطوّقتني بذراعيها بسعادة غامرة ظهرت في بريق عينيها.

وقال هربرت ضاحكاً: «هل خرجت لاصطياد الذئاب من جديد؟»

ولكني بقيت واقفاً هناك من غير كلام، واكتفيت بالتحديق. وأخيراً استطعت أن أستردّ صوتي لأقول:

«إلى أين تذهبون؟»

أجابت صوفيا: «سيرينا جوسي أنسب مكان في الجدار يمكن أن نعبر منه. يجب أن نعرفه من الآن لنكون على استعداد عندما تبدأ المعركة الفاصلة فعلاً.»

قال جوسي: «نعم، ينبغي ذلك. يجب أن تكون لدينا خطة جاهزة قبل أن نهاجم.»

شعرت بالغليان في أعماقي. وحدّثت نفسي قائلاً: «لا شكّ أنّكَ قد أعددتَ خطتك أيها الخائن». أدركت لماذا جاء. كان هدفه أن يستدرج صوفيا وهربرت إلى شَرَكٍ مُعَدّ. سيقودهما إلى الدمار مباشرةً إذا لم يوقفه أحد. عندئذٍ تبيّن لي الموقف: عليّ أنا أن أوقفه دون تأخر. يجب أن أفعل هذا الآن. بغض النظر عن كراهيتي للفكرة، لا بدّ أن أفعل ذلك الآن. ولكن، كيف أبدأ؟

أخيراً سألت صوفيا: «كيف حال بيانكا يا صوفيا؟»

بدا الحزن على وجه صوفيا وأجابت قائلة:

«لم تعد بيانكا أبداً من وادي الوردة البريّة. ولكن، هل تعرف شيئاً عن

جوناثان؟ »

لم تكن راغبة في الكلام عن بيانكا، ولكني سمعت ما أريد سماعه. لقد ماتت بيانكا قبل أن تبلغها. لهذا السبب جاءت صوفيا مع جوسي. فهي لم تتلق رسالتنا أبداً.

وأبدى جوسي رغبة في السماع عن جوناثان كذلك. قال:

«بالتأكيد لم يُقْبَضْ عليه. أليس كذلك؟ »

قلت: «لا ». ونظرت في عينيه مباشرة وتابعت:

«لقد خلّص أورفار من كهف كاتلا. »

شحب وجه جوسي الأحمر وران عليه الصمت. ولكن صوفيا وهربرت أبديا سعادة غامرة، حتى أن صوفيا احتضنتني من جديد. أما هربرت فقال:

« هذا أجمل خبر يمكن أن تنقله لنا. »

طلبت صوفيا وهربرت مني أن أقص عليهما كيف حدث ذلك، ولكنَّ جوسي لم يكن راغباً في هذا، فقد صار الآن شديد التعجّل. وقال:

«يمكننا أن نسمع تفاصيل ذلك لاحقاً. أما الآن فيجب أن نسرع إلى هدفنا قبل أن يسود الظلام. »

قلت في نفسي: «نعم، لأن جنود تنغل يكمنون الآن منتظرين. »

قالت صوفيا: «هيا يا كارل. يمكن أن نركب حصاني معاً، أنت وأنا. »

قلت: «لا، يجب ألا تمضي إلى أي مكان مع ذلك الخائن! » وأشرت إلى جوسي. حسبت أنه سيقتلني حين أطبق على عنقي بيديه القويتين وقال بغضب:

«ماذا قلت؟ كلمة أخرى وسأقضي عليك.»

حرّرتني صوفيا من قبضتيه، ولكنها لم تكن مسرورةً مني، وقالت:

«كارل! لا يجوز إطلاقاً أن تدعو إنساناً بالخائن حينما لا يكون ذلك صحيحاً. ولكنك أصغر سناً من أن تدرك معنى ما قلت الآن.» أما هربرت فضحك ضحكة هادئة وقال:

«ظننت أنني أنا الخائن. أنا الذي يعرف أشياء كثيرة ويحب الخيول البيض، وكل ذلك الكلام الذي كتبته عني على حائط المطبخ في المنزل.»

قالت صوفيا بحزم: «نعم يا كارل. إنك توزع اتهاماتك في كل اتجاه، يجب أن تتوقف عن ذلك.»

قلت: «أنا آسف يا هربرت.»

قالت صوفيا: «حسناً، وماذا عن جوسي؟»

قلت: «لن أعتذر لأني دعوت الخائن بالخائن.»

ولكني لم أفلح في إقناعها بكلامي. وشعرت بالحنق حين تبيّنت ذلك. لقد ارادا المضي قدماً مع جوسي. كانا يريدان أن يجلبا الدمار على نفسيهما، على الرغم من كل محاولاتي لايقافهما.

صحت: «انه يقودكما إلى مصيدة، إلى كمين! أنا أعرف ذلك! نعم، أعرف ذلك! اسألاه عن ڤيدر وكادر اللّذيْن قابلهما في الجبال. واسألاه كيف خان أورفار وأوقع به!»

بدا أنّ جوسي يريد أن يندفع نحوي، ولكنه تمالك أعصابه. وقال:

«ألا ننطلق الآن؟ أم أننا سنخاطر بكل شيء بسبب أكاذيب هذا الولد؟»

وأرسل إليّ نظرة مفعمة بالحقد. وقال:

«وأنا الذي أحببتك يوماً!»

قلت: «وأنا كذلك احببتك يوماً.»

واستطعت أن أتبين مدى الخوف الذي يختفي وراء غضبه. لقد صار الآن أحْرَصَ من ذي قبل على الاسراع في المضيِّ، لكي يتخلصَ من صوفيا ويوقعها في الشَّرَك قبل أن تظهر لها الحقيقة. وإلاّ صارت حياته نفسها في خطر.

لابدّ أنه شعر بارتياح حين وجد أن صوفيا لا تريد تصديقي. لقد كان جوسي موضع ثقتها دائماً. أما أنا، فكيف تصدقني بعد ان اتهمت قبله شخصاً آخر بدون حق؟

قالت: «هيا الآن يا كارل. سوف أسوي هذا الأمر معك لاحقاً.»

قلت: «لن يكون هناك وقت لاحق إذا مضيت مع جوسي.»

عندئذ بكيت. ليس في وسع نانجيالا أن تحتمل فقدان صوفيا. وها أنذا الآن عاجز عن إنقاذها لأنها لا تريد ذلك.

وعادت تُردِّد بإصرار: «هيا يا كارل.»

ولكني في هذه اللحظة تذكرت أمراً آخر.

قلت: «جوسي! افتح قميصك واكشف لهما عن صدرك لِيَرَيا ما يوجد عليه!»

اكتسى وجه جوسي فوراً بشحوب كشحوب الأموات، حتى أن صوفيا وهربرت نفسهما لاحظا ذلك، ووضع يده على صدره كمن يريد أن يخفي شيئاً.

مرّت هنيهة من الصمت، ثم قال هربرت بصوت شديد:
«افعل كما قال الصبيّ يا جوسي!»
قال جوسي وهو يتحرك نحو حصانه: «علينا أن نسرع.»
تصلبّت عينا صوفيا وقالت:
«ليس بهذه السرعة. أنا قائدك يا جوسي. اكشف عن صدرك!»
صار منظر جوسي فظيعاً وهو يقف هناك لاهثاً مرتعباً مشلولاً، لا يدري هل يمكث واقفاً أم يحاول الفرار. وتقدّمت صوفيا نحوه، ولكنه دفعها جانباً بكوعه، فتعلّقت بقميصه فتمزق وانشكف صدر جوسي.
هناك على صدره، ظهرت علامة كاتلا: رأس تنين يلمع كالدماء. شحب وجه صوفيا شحوباً زاد على شحوب جوسي نفسه، وقالت:
«أيها الخائن. اللعنة عليك للمصائب التي جلبتها على وديان نانجيالا!»
أخيراً عادت الحياة إلى جوسي، فاندفع إلى حصانه وهو يشتم. ولكن هربرت كان قد سبقه إلى هناك، فاستدار جوسي يبحث عن مهرب آخر، فلمح القارب الصغير. وبقفزة واحدة صار فيه، وقبل أن تصل صوفيا وهربرت إلى ضفة النهر، كان التيار قد حمله بعيداً عنهما.
ثم أطلق ضحكة عالية فظيعة وصاح:
«سأعاقبك يا صوفيا! عندما أعود زعيماً لوادي الكرز سوف أعاقبك.»
قلت في نفسي: «أيها المغفل، لن تبلغ وادي الكرز أبداً. ستنتهي إلى شلالات كارما فقط.»

حاول التجذيف، ولكن الأمواج العاتيه والدّوامات الرهيبة أطبقت على القارب وأطارت المجذافين من يَدَيْ جوسي. ثم جاءت موجة عاليه واختطفته من القارب إلى الماء. عندئذ بكيت. فقد كان بودّي أن أنقذه لو استطعت، حتى وإن كان خائناً. ولكن لم يكن بوسع أحد أن ينقذه. لقد كان من الفاجع والمحزن أن أقف هناك في عتمة المساء أراقب ما يجري لجوسي، مدركاً عجزه التام عن مقاومة التيارات الجارفة.

شاهدناه يبرز مرّة واحدة على صفحة موجة عاتية، ثم يغرق من جديد ويغيب نهائياً.

كان المكان يغرق في العتمة، بينما كان نهر الأنهار القديمة يبتلع جوسي ويحمله نحو شلالات كارما.





الفصل الخامس عشر

أخيراً جاء اليوم المنتظر، يومُ المعركة. في ذلك اليوم هبّت عاصفة على وادي الوردة البريّة، فانحنت الأشجار وتكسرت أغصانها. ولكنها لم تكن ذلك النوع من العواصف الذي قصده أورفار حين قال:

«إن عاصفة الحريّة قادمة لا محالة، وسوف تحطّم الطغاة كما تتحطم شجرة وتهوي إلى الأرض. سوف تهبّ مُطْلِقةً زئيرها، لتأخذ معها عبوديتنا وتتركنا أحراراً إلى الأبد!»

هكذا تحدث أورفار في مطبخ ماثياس لجموع الناس الذين جاؤوا سِراً للقائه. نعم، لقد أرادوا أن يروه ويروا جوناثان. وقد سمعتهم يقولون:

«أنتما شعلة آمالنا وكل ما نملك.»

كانوا يرددون ذلك كلما جاءوا متسللّين إلى بيت ماثياس في الأمسيات، على الرغم مما ينطوي عليه ذلك من خطورة. وقد علّق ماثياس قائلاً:

«إنهم يخاطرون بالتسلّل، لأنهم يريدون أن يسمعوا عن عاصفة الحريّة كما يحب الأطفال أن يستمعوا إلى الملاحم و الأساطير.»

كان يوم المعركة الفاصلة هو الشيء الوحيد الذي يحلمون به ويتطلعون إليه. ولم يكن ذلك غريباً، فبعد فرار أورفار أزداد تنغل وحشيّةً وشراسة. وكان يخترع في كل يوم طرقاً جديدة لتعذيب الناس في وادي الوردة البريّة ومعاقبتهم، مما زادهم كرهاً له ونقمةً عليه، ودَفَعَهم إلى اخفاء

المزيد من السلاح استعداداً للمعركة.

وقد تدفق المزيد من الثوار والمقاتلين من أجل الحريّة من وادي الكرز لمساعدة إخوانهم في وادي الوردة البريّة. وقد أقامت صوفيا وهربرت معسكراً للمحاربين في أبعد أعماق الغابة، وبالقرب من كوخ الفريدا. وفي بعض الاحيان، كانت صوفيا تأتي عبر النفق السّري تحت الارض، وهناك في مطبخ ماثياس كانت تشترك مع أورفار وجوناثان في وضع خطط المعركة.

كنت أستمع إليهم وأنا مستلقٍ على أريكة المطبخ. وكلما جاءت صوفيا كانت تبادر إلى القول:

«هذا هو مخلّصي! لم أنس أن أشكرك يا كارل، أليس كذلك؟»

ثم يقول أورفار في كل مرّة إنني بطل وادي الوردة البريّة. أما أنا فكنت دائم التفكير بمصير جوسي في تلك المياه الداكنة، فيسيطر عليّ الحزن.

كذلك قامت صوفيا بتوفير كميات من الخبز لوادي الوردة البريّة. كان يُؤتى به من وادي الكرز عبر الجبال بالعربات، ثم يُهرّب عبر النفق المحفور تحت الأرض. ثم يقوم ماثياس بحمله في أكياس ليوزعه سراً بين البيوت. وما كنت أعرف من قبل أنه يمكن بعث السعادة في الناس بشيء قليل من الخبز. أما الآن فقد شهدت ذلك بنفسي، إذ كنت أخرج مع ماثياس لهذا الغرض، وشاهدت مدى معاناة الناس، وسمعتهم يتحدّثون عن المعركة القادمة بشوق عظيم. أما أنا فكنت خائفاً من ذلك اليوم، ولكني مع الوقت صرت أنا أيضاً أتطلع بشوق إليه. وما ذاك إلا لأن طول

الانتظار صار أمراً لا يحتمل، إضافةً إلى خطورته. كما عبّر جوناثان حين قال لأورفــار:

«ليس في وسعك أن تُبْقيَ كل هذه الحركة سراً لوقت طويل. فليس من الصعب تحطيم حلم الحريّة الذي تعيش من أجله.»

لقد كان مُحقّاً في هذا على وجه التأكيد، إذ لم يكن الأمر يحتاج إلى اكثر من أن يكتشف أحد رجال تنغل ذلك النفق السّري، أو أن يقوم الجنود بجولة جديدة من التفتيش في البيوت ليكتشفوا أورفار وجوناثان في المخبأ السرّي. إن مجرد التفكير في هذا يبعث الرجفة في جسمي.

ولكنْ، بدا كأن رجال تنغل مصابون بالعمى والصَّمَم، وإلا لكانوا قد لاحظوا شيئاً. فلو أنهم أصغوا السمع قليلاً لكان في وسعهم أن يسمعوا بداية هدير العاصفة الزاحفة، عاصفة الحريّة التي توشك أن تهز أركان وادي الوردة البريّة، ولكنهم لم يسمعوا.

في الليلة التي سبقت يوم المعركة، كنت أستلقي على أريكة المطبخ ولا أستطيع النوم، بسبب العاصفة في الخارج، وبسبب القلق الذي يسيطر عليّ. كان قد تقرّر أن تبدأ المعركة مع فجر اليوم التالي. كان أورفار وجوناثان وماثياس يجلسون أمام الطاولة ويتحدثون حول الموضوع، بينما كنت أستلقي وأستمع. كان أورفار أكثرهم حديثاً، وكانت عيناه تتوهجّان وهو يتابع الكلام دون توقف. كان أكثرَ الجميع تشوّقاً لطلوع الفجر وبدء المعركة. وقد استطعت أن أستوعب ملامح الخطة التي وضعوها. كانت الخطة تقضي أن يبدأ الثوار بمهاجمة الحرس الموجودين عند البوابة الرئيسة وبوابة النهر، حتى يمكن فتح البوابتين لعبور صوفيا وهربرت بقواتهما: صوفيا من البوابة

الرئيسة، وهربرت من بوابة النهر.
قال أورفار:
«عندئذ، إما أن ننتصر معاً أو نموت معاً.»
ثم بيّن أن ذلك يجب أن يتمّ بسرعة خاطفة. يجب تخليص الوادي من جنود تنغل جميعاً واغلاق البوابتين ثانيةً قبل أن يتمكن تنغل من أحضار كاتلا، إذ لا سلاح يؤثر في كاتلا، ولا سبيل إلى التغلّب عليها إلاّ بقطع الطعام عنها نهائياً حتى تذوي وتموت، كما قال أورفار.
«إن الرماح والسهام والسيوف كلّها لا تؤثر فيها. وأنّ لمسة بسيطة من نارها كافية لقتل الإنسان أو إصابته بالشلل.»
سألت: «اذا كان تنغل يحتفظ بكاتلا هناك في الجبال، فما جدوى تحرير وادي الوردة البريّة؟ فهو يستطيع أن يقهركم بها من جديد، كما فعل في المرّة الأولى!»
قال أورفار: «لقد بنى جداراً يمكن أن نستخدمه ليحمينا، لا تنسَ ذلك. وهناك بوابتان يمكن إغلاقهما في وجه الوحوش.»
ثم بيّنّ أورفار أن عليّ ألاّ أقلق بشأن تنغل. ففي مساء اليوم سوف يقوم هو وجوناثان وصوفيا وآخرون باختراق حصن تنغل ليفاجئوا الحرس ويتغلبوا عليهم، ثم يقبضوا على تنغل هناك، قبل أن يتاح له مجرد العلم بأخبار الثورة في الوادي. ثم تُقَيَّدُ كاتلا في الكهف حتى تضعف وتذوي من انعدام الطعام، وحينئذ يقتلونها.
قال أورفار: «ليس هناك طريقة أخرى للقضاء على كاتلا.»
ثم عاد يتحدثّ عن ضرورة السرعة الخاطفة في تخليص الوادي من رجال

تنغل، وسأل جوناثان:

«هل تعني بالتخلص منهم قتلهم؟»

أجاب أورفار: «نعم، ماذا يمكن أن يعني كلامي غير ذلك؟»

قال جوناثان: «ولكني لا أستطيع أن اقتل احداً. أنت تعرف هذا يا أورفار!»

قال أورفار: «حتى لو كانت المسألة تتعلق بحياتك؟»

قال جوناثان: «حتى لو كانت كذلك.»



لم يكن باستطاعة أورفار وماثياس أن يستوعبا ذلك.

قال أورفار: «لو كان الجميع مثلك لبقي الشر مهيمناً إلى الابد.»

عندئذ قلت إنه لو كان الجميع مثل جوناثان لما كان هناك شرّ إطلاقاً.

لم أقل شيئاً بعد ذلك طوال الأمسية، إلاّ حينما جاء ماثياس وربّت عليّ، فهمست له:

«أنا خائف يا ماثياس.»

ربتّ عليّ من جديد وقال: «أنا كذلك.»

على كل حال، كان على جوناثان أن يَعدَ أورفار أن يبرز للناس في غمرة المعركة، ويتحرك بينهم على جواده ليشجعَ الناس على فعل ما لا يستطيع هو أن يفعله، ولا يريد ان يفعله.

قال أورفار: «يجب أن يراك أهل وادي الوردة البريّة. يجب أن يرونا كلَيْنا.»

عندئذ قال جوناثان: «ان لم يكن بدّ من ذلك، فلا بأس.»

ومع ذلك فقد شاهدت وجهه شاحباً في ضوء الشمعة الصغيرة الوحيدة في المطبخ.

كنا قد تركنا غريم وفيالار في الغابة عند الفريدا حينما كنا عائدين من كهف كاتلا. ولكن تقرّر ان تحضرهما صوفيا معها عندما تعبر البوابة الرئيسة في يوم المعركة.

كذلك تقرّر دوري. وهو ألاّ أفعل شيئاً غير الانتظار حتى تنتهي المعركة. هذا ما قاله جوناثان. سيكون عليّ أن أجلس وحيداً في مطبخ البيت وأنتظر.

لم ينم أحد كثيراً في تلك الليلة.

ثم أقبل الصباح.

نعم، جاء الصباح، وجاء معه يوم المعركة. آه، كم كان قلبي مفعماً بالرعب ذلك الصباح. شاهدت ما يكفي وأكثر من الدماء، وسمعت فوق الكفاية من الصراخ، فقد كان القتال يجري على المنحدرات أسفل منزل ماثياس.

رأيت جوناثان يعدو بحصانه بين الجموع والريحُ العاصفة تعبث بشعره، وليس حوله إلاّ القتال الضاري والسيوف اللامعة والرماح الصافرة والسهام الطائرة والصراخ المتّصل المخيف، وقلت لفيالار: «إذا مات جوناثان، فإني أريد أن أموت أيضاً.»

نعم، كان فيالار معي في المطبخ. كنت قد فكرت ألا أخبر أحداً بذلك، ولكن كان لا بدّ ان أبقيه معي ؛ اذ لم يكن باستطاعتي أن أبقى وحيداً. لا لم يكن ذلك ممكناً. نظر فيالار عبر النافذة أيضاً إلى القتال الدائر على المنحدرات، ثم أطلق صهيله. ولم أدر هل فعل ذلك لأنه تمنّى أن ينضم إلى غريم، أم أنه كان خائفاً مثلي.

كنت خائفاً، خائفاً، خائفاً.

شاهدت ڤيدر يسقط برمح من صوفيا، وكادر يموت بسيف أورفار.

كذلك شاهدت موت دوديك وعدداً من الآخرين. كانوا يتساقطون يميناً وشمالاً بينما كان جوناثان يتجول بحصانه في غمرة ذلك كلّه والعاصفة تعبث بشعره، وكان وجهه يزداد شحوباً، وقلبي يزداد رعباً وقلقاً.

ثم جاءت النهاية!

سمعت صيحات كثيرة مدويّة في وادي الوردة البريّة في ذلك اليوم، ولكن جاءت أخيراً صيحة تختلف عن جميع الصيحات.

في وسط المعركة، دوّى بوق حربيّ خلال العاصفة، فأعقبته صيحة عالية:

«كاتلا قادمة!»

ثم جاءت الصرخة - صرخة كاتلا المعبرّة عن جوعها، الصرخة التي يعرفها الجميع جيداً. سقطت السيوف والرماح والأقواس إلى الأرض، وتوقف المقاتلون عن القتال إدراكاً منهم أن القتال لن يجدي مع كاتلا. ولم نعد نسمع إلاّ هدير العاصفة وبوق تنغل الحربيّ وصرخات كاتلا. ثم انطلقت نيران كاتلا لتقتل كل من يشير إليه تنغل. وطفق تنغل يشير إلى الرجال واحداً تلو الآخر بينما كان وجهه القاسي قاتماً بروح الشر. الآن أدركت أن نهاية وادي الوردة البريّة قد حلّت.

لم أعد أريد النظر - لم أعد أريد النظر إلى أي شيء، إلاّ إلى جوناثان. كان ينبغي أن أعرف مكانه، وقد أبصرته أسفل منزل ماثياس ساكناً وشاحباً على صهوة غريم، والعاصفة تعبث بشعره.

صحت: «جوناثان! جوناثان، هل تسمعني؟»

ولكنه لم يسمعني، ثم شاهدته يحث جواده فجأة وينطلق كالسهم على المنحدر، طائراً بسرعة لا يقدر على مثلها رجل في الكون كلّه. كان منطلقاً نحو تنغل، وفي مثل سرعة البرق عبر من أمامه.

ثم دوّى صوت البوق الحربي من جديد، ولكنْ كان جوناثان هو الذي ينفخ فيه الآن! فقد استطاع أن يخطفه من يد تنغل، وهو الآن ينفخ فيه بقوّة لكي

تعرف كاتلا أنه صار لها الآن سيد جديد.

ثم ساد الهدوء التام، حتى العاصفة هدأت وتوقفت، وران الصمت على الجميع بلا استثناء، وساد جوّ من الانتظار والترقب.

تصلّب وجه تنغل من الخوف وهو جالس على حصانه منتظراً. وكانت كاتلا تنتظر أيضاً.

ثم عاد جوناثان فنفخ في البوق من جديد.

عندئذٍ أطلقت كاتلا صرخة رهيبة واستدارت بغضب نحو الرجل الذي





كانت من قبل تطيعه طاعة عمياء.

أذكر ان جوناثان كان قد قال في وقت سابق: «إن نهاية تنغل ستجيء في يوم ما.»

وقد جاءت حقاً في تلك اللحظة.

وهكذا انتهى يوم المعركة في وادي الوردة البريّة، كثير من الرجال قَدَّموا أرواحهم من أجل الحرية. نعم، لقد تحرر واديهم الآن، ولكنَّ القتلى كانوا يتمددون هناك في كل مكان، ولم يكن بإمكانهم أن يشاركوا في بهجة النصر.

كان ماثياس من بين القتلى. وبذلك فقدت جدّي. كذلك قُتِلَ هربرت، وكان أول من سقط صريعاً. بل لم يتح له أن يعبر بوابة النهر، لأنه هناك التقى بتنغل وجنوده. والأسوأ من ذلك أنه التقى هناك بكاتلا. كان تنغل قد قرر في ذلك اليوم إحضار كاتلا لمعاقبة وادي الوردة البريّة للمرّة الأخيرة بسبب فرار أورفار. ولم يكن يعرف أن ذلك النهار هو نهار المعركة. ومن المؤكد أنه حين اكتشف ذلك، كان سعيداً لأن كاتلا كانت معه.

ولكن تنغل قد مات مثل بقية من ماتوا.

صاح أورفار في الجموع قائلاً:

«لقد انتهى الطاغية، سيعيش أطفالنا في حرية وسعادة. وقريباً سيعود وادي الوردة البريّة كما كان.»

ولكني كنت أعتقد بخلاف ذلك، أن وادي الوردة البريّة لن يعود كما كان أبداً بالنسبة إليّ، بعد أن فَقَدْتُ ماثياس.

أصيب أورفار بضربة سيف في ظهره، ولكنه بدا وكأنه لم يشعر به، أو أنه لم يلتفت إليه، وكانت عيناه تشعّان وهو يخاطب سكان الوادي. وظلّ يكرر قوله:

«سوف نسترد سعادتنا من جديد.»

بكى كثير من الناس في ذلك اليوم، في وادي الوردة البريّة. ولكنّ أورفار لم يبك.

نجت صوفيا من أهوال ذلك اليوم، بل إنها لم تُصَبْ بأي جرح. واستعدّت للعودة إلى وادي الكرز مع من بقي من مقاتليها.

جاءت لوداعنا خارج منزل ماثياس.

بكت قليلاً وهي تقول: «هنا كان يعيش ماثياس.» ثم احتَضَنَتْ جوناثان وقالت:

«عد إلينا وإلى مزرعة الفرسان قريباً. سأفكر فيك كل لحظة حتى نلتقي من جديد.»

ثم نَظَرَتْ إليّ وقالت:

«هل ستأتي معي يا كارل؟»

قلت: «لا، لا، سأبقى مع جوناثان.»

خشيت ان يُصِرّ جوناثان على إرسالي مع صوفيا، إلاّ أنه لم يفعل، بل قال:

«أحب أن يبقى كارل معي.»

على المنحدر الذي يلي منزل ماثياس، كانت كاتلا منبطحةً كأنها جبل

رهيب. وكانت ساكنةً مُتْخَمَةً بالدماء. وكانت تنظر إلى جوناثان بين الفينة والأخرى مثل كلب يترقب أوامر سيده وحاجاته. لم تعد الآن تلمس أحداً، إلاّ أن مجرد وجودها سيبقى مصدر رعب للوادي، ولن يتاح لأحد أن يعرف طعم السعادة والطمأنينة الحقه. فطالما بقيت كاتلا حيّة لن يكون بإمكان سكان وادي الوردة البريّة أن يحتفلوا بالنصر والحريّة، ولا أن ينعوا موتاهم، هكذا قال أورفار. إن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يعيدها إلى كهفها هو جوناثان.

قال أورفار لجوناثان: «هل لك أن تساعد وادي الوردة البريّة مرّة واحدة أخرى؟ إذا قُدْتَها إلى هناك وقَيَّدْتَها، فسوف أتولى أنا بقيّة أمرها عندما يحين الوقت المناسب.»

أجاب جوناثان: «نعم، سأساعدكم مرّة واحدة أخرى يا أورفار.»

أعرف الطريقة المثلى للاستمتاع بجولة على ضفة النهر. على الإنسان أن يقود حصانه ببطء ليراقب النهر يجري ويتدفّق، ويشهد الضَّوْءَ يبرق على صفحة الماء، وأغصانَ شجر الصفصاف وهي ترقص في الريح. هكذا ينبغي أن يكون التجوال على ضفة النهر، لا أن تمضي ووراءك تنين يمشي على أعقابك.

ولكن، هذا ما فعلناه. كنا نتقدّم ونستمع إلى خبط أقدام كاتلا وراءنا. طمب، طمب، طمب. كان دَوِيّ دعساتها مرعباً ومزعجاً حتى كاد غريم وفيالار أن يصابا بالجنون، وكدنا لا نقدر على التحكم بهما. وبين الفينة والأخرى كان جوناثان ينفخ بالبوق. ولكنَّ صوت البوق نفسه كان

مزعجاً بما فيه الكفاية. ومن المؤكد أن ذلك لم يكن يعجب كاتلا أو يريحها. ومع ذلك كان لا بدّ أن تطيع عندما تسمعه. ولذا كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يطمئنني في أثناء مسيرتنا.

لم نتبادل كلمة واحدة في الطريق - جوناثان وأنا، إنما كنا حريصين على الوصول بأسرع ما نستطيع. كان على جوناثان أن يقيّد كاتلا في كهفها قبل هبوط الظلام. وكان من المفترض أن تموت هناك بعد حين. فإذا فعلنا ذلك فإننا لن نراها من جديد، بل إننا سوف ننسى أنه كان هناك في وقت ما بلد اسمه كارمانياكا. سوف تبقى جبال الجبال القديمة في مكانها هناك إلى الأبد، ولكننا لن نعبر طريقها بعد ذلك أبداً كما وعدني جوناثان.

مع اقتراب المساء، ساد الهدوء ولم يعُد هناك أثر من العاصفة، بل كان مساءً دافئاً، وكان منظر الغروب بديعاً يُذكّر بالأماسي الجميلة التي يخرج الإنسان فيها للتنزه على ضفاف النهر بلا خوف ولا قلق.

أما الآن، فليس بإمكاني أن أتحرر من الخوف. إلاّ أنني حاولت أن أخفي ذلك عن جوناثان.

أخيراً وصلنا إلى شلالات كارما.

قال جوناثان بينما كنا نقطع الجسر: «ها نحن هنا يا كارمانياكا للمرّة الأخيرة.»

ثم نفخ في البوق.

أبْصَرَت كاتلا الجرف الصخريّ الذي كان من عادتها المكوث عنده، على الجانب الآخر من النهر. ومن الواضح أنها كانت راغبة في الذهاب إليه، إذ

إنها أصدرت نفخة مسمومةً على أعقاب غريم مباشرة، وما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك. فما كادت تفعل ذلك حتى جفل غريم مرتعباً وانحرف بطريقه إلى حافة الجسر، فَصَرَخْتُ بدوري لأنني خشيت أن يسقط جوناثان مباشرة في شلالات كارما.

لم يسقط حقاً، ولكنَّ البوق طار من يده واختفى في الماء المتدفق تحت الجسر.

شاهَدَتْ كاتلا بعينيها القاسيتين ما حدث، وأَدْرَكَتْ فوراً أنه لم يعد لها الآن سيد يُطاع. ثم صَرَخَتْ صرخةً حادة وبدأت تنفث تياراً من النيران من منْخَرَيْها.

آه، لن يتصوّر أحد كيف انطلقنا بالجوادين طلباً للنجاة! قطعنا الجسر ثم اندفعنا عبر الطريق المؤدي إلى حصن تنغل، بينما كانت كاتلا تنفخ خلفنا.

كان الطريق يتعرّج تعرّجاً حاداً عبر الجبال القديمة. لا أظن أن أحداً يمكن أن يواجه حتى في الكوابيس موقفاً أشد من موقفنا ذاك ونحن نقفز من رفٍّ صخريّ إلى رفٍّ آخر وكاتلا لاحقة بنا تنفث نارها حتى تكاد تلامس أعقاب الجوادين. وقد انْطَلَقَتْ نفثةٌ نارية منها قريباً جداً من جوناثان، وللحظة رهيبة ظننت أنها أحرقته، ولكنه صاح بي:

«لاتتوقف. تابع، تابع!»

يا لغريم وفيالار المسكينين! كانت كاتلا تلاحقهما وتدفعهما إلى الاسراع حتى كادا ينفجران وهما يحاولان الابتعاد عنها. أخذا يصعدان الممر الجبليّ

عبر منعطفات وتعرّجات حادّة بأسرع ما يستطيعان، وأخذ الزبد يخرج من فاهيهما، وتابعا بأقصى جهد ممكن وهما يزيدان من السرعة حتى لم يبق فيهما طاقة على الاسراع. ولكن كاتلا نفسها كانت قد تخلّفت عنا في هذه المرحلة وأخذت تصرخ بغضب جارف. لقد صارت الآن في أرضها وميدانها، وليس بإمكان أحد أن يفرّ منها. وتابَعَتْ دعساتها المدويّة: طمب، طمب، طمب، وأخذت تقترب شيئاً فشيئاً، وأدركت أنها لا بدّ أن تفوز علينا في النهاية، بكل عنادها القاسي المروّع.

ومع ذلك حملنا جوادينا على متابعة الصعود وقتاً طويلاً آخر على هذا النحو، وَفَقَدْتُ كل أمل في النجاة.

كنا قد قطعنا مسافة طويلة عبر الجبل الصاعد حتى تلك النقطة، ومن هناك استطعنا أن نرى كاتلا أسفل منا على حافة صخريّة ضيقة تُطلّ على شلالات كارما. تَوَقَّفَتْ هناك لبرهة، فقد كانت هذه هي حافتها الصخرية المفضّلة التي اعتادت الوقوف عندها والتحديق في الشلالات إلى أسفل منها. وهذا ما فعلته في هذه اللحظة. فقد تَوَقَّفَتْ وأَخَذَتْ تحدّق في الشلالات بينما كانت تنفث النار والدخان من منخريها وهي تتحرّك قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف مع نفاد صبر. ولكنها عادت وتذكرتنا، فأَرْسَلَتْ إلينا نظراتها الحاقدة المرعبة.

قلت في نفسي «أيتها المتوحّشة القاسية، أيتها المتوحّشة القاسية، لماذا لا تمكثي هناك في مكانك المفضل عند الحافة الصخريّة؟»

كنا قد وصلنا الآن إلى الصخرة العظيمة التي رأينا منها كاتلا تُطلّ

برأسها الرهيب في أول مرة جئنا فيها إلى كارمانياكا. فجأة لم يعد جوادانا قادرَيْنِ على المتابعة. إنه لأمر فظيع أن يرى الإنسان جواده ينهار تحته. ولكن هذا ما حدث، فقد هبط غريم وفيالار إلى أرض الممر الجبليّ. وإذا كنا قبل هذه اللحظة نأمل في حدوث معجزة تنقذنا، فقد بلغنا الآن وضعاً فقدنا معه أي أمل بالنجاة.

أدركنا أننا قد انتهينا ولا مفرّ. كذلك أدْرَكَتْ كاتلا هذه الحقيقة، فأرسلت إلينا نظرة شيطانيّة شامتة تعبّر عن شعورها بالفوز. وخُيِّل إليَّ أنها تضحك منا بسخرِية. لم تعد الآن على عجل من أمرها. وبدت كأنها تقول لنفسها: سآتيكما في الوقت المناسب، على راحتي، لماذا العجلة!

نظر جوناثان إليَّ بأسلوبه الحنون الوادع المألوف، وقال:

«سامحني يا رسكي لأنني أسقطت البوق، ولكن لم يكن في اليد حيلة.»

أردت أن أقول إنّه لم يرتكب في أي وقت من الأوقات خطأ يستدعي المسامحة. ولكنَّ الرعب عقد لساني.

لَبِثَتْ كاتلا في مكانها هناك، وبقيت تنفث النار والدخان من منخريها في صليات متقطّعة، ثم بدأت تخبط بقدميها من جديد. أما نحن فقد احتمينا بالصخرة الكبيرة لكي لا تصل إلينا نيرانها. كنت أتمسك بجوناثان بقوّة. آه ما أشدّ ما تمسّكت والتصقت به. ونظر إليَّ والدموع تترقرق في عينيه. ثم غمره غضب جارف فانحنى بجسمه إلى الأمام وصاح قائلاً:

« لن تمسكي رسكي! هل تسمعين هذا أيتها المتوحشة! لن تمسّي رسكي

وإلاّ...»

وضغط على الصخرة كأنه عملاق يستطيع إخافتها. ولكنه لم يكن عملاقاً وما كان باستطاعته أن يخيف كاتلا، إلاّ أنه تبيَّن أن الصخرة لم تكن ثابتة في مكانها على حافة الشق الصخريّ الجبليّ، بل كانت متخلخلة يسهل انحدارها.

كان أورفار قد قال: «ان الرماح والسهام والسيوف لا تؤثر في كاتلا.» وكان باستطاعته أن يضيف الصخور أيضاً، مهما كانت الصخرة عظيمة.

لم تُقْتَل كاتلا بالصخرة التي دفعها جوناثان نحوها، ولكنها صدمتها صدمة قويّة، ومع صرخة مدويّة كادت الجبال تنهار لها، سقطت إلى الخلف في شلالات كارما.





الفصل السادس عشر

لا ، لم يكن جوناثان هو الذي قتل كاتلا ، إنما قتلها كارم. وكاتلا قتلت كارم كذلك. وجرى ذلك كلّه أمام أعيننا. لقد شاهدنا كل شيء. لا أحد غيري وغير جوناثان شاهدا وحشين من العصور القديمة السحيقة في القِدَم، يتصارعان حتى الموت، ويدمّر أحدهما الآخر.

عندما أطْلَقَت كاتلا تلك الصرخة الرهيبة واختفت، لم نصدق ما حدث لأول وهلة. كان من المستحيل أن نصدّق أنها انتهت. وحيث غابت في مياه الشلالات لم نرَ شيئاً إلاّ دوامة من الزبد، لا شيء آخر.

ولكننا ما لبثنا أن شاهدنا ذلك الثعبان المائي المخيف يبرز برأسه الأخضر عبر الزبد ويضرب الماء بذيله الضخم. آه، كم كان مخيفاً وضخماً. لقد كان كما وصَفَتْه الفريدا يغلق عرض النهر بطوله.

إن الثعبان المائي الرهيب الذي سمعت عنه الفريدا قصصاً خرافية في طفولتها لم يعد الآن خرافة، بلّ هو واقع مثلما كانت كاتلا نفسها. كان يُطوّح برأسه في كل اتجاه باحثاً مفتشاً.. ثم شاهد كاتلا. برزت فجأة من أعماق الماء إلى السطح لتجد نفسها في وسط دوامة مائية عارمة، وقذف الثعبان نفسه عليها والتف حولها. نفثت نارها القاتلة عليه، ولكنه عصرها عصراً شديداً حتى خمدت النار في صدرها. ثم أطبقت عليه فكيها وعضته، فردّ عليها بالطريقة نفسها. وطفقا يتبادلان العض والقضم بهدف القتل. أعتقد أنهما قد انتظرا هذه اللحظة منذ العصور السحيقة.

نعم، لقد أخذا يتبادلان العض والقضم باهتياج وغضب عارِمَيْن، وفي

هذه الأثناء كان كل منهما يطوّح بجسمه الضخم المرعب على الآخر في قلب التيارات المائية المتدفقة. وكانت كاتلا تطلق صرخاتها بين العضة والأخرى، أما كارم فكان يعضها ويقضم من جسمها بصمت. وتدفقت منهما الدماء، دماء سوداء من كاتلا، ودماء خضراء من كارم، وعامت دماؤهما فوق الزبد الأبيض وحولّته إلى لون قاتم مثير للاشمئزاز.

كم استمرت المعركة بينهما؟ لقد بدا لي أنني مكثت واقفاً هناك على الممر المشرف ألف عام، وكأنني لم أرَ في حياتي شيئاً غير هذين الوحشين الهائجين يتقاتلان حتى الموت في المعركة الفاصلة النهائية بينهما.

كانت معركة طويلة فظيعة، ولكنها وصلت أخيراً إلى نهايتها. فقد أطلقت كاتلا زعيقاً حاداً، كان بمثابة صيحة الموت الأخيرة، ثم غرقت في الصمت. أما كارم فقد كان قد فقد رأسه، إلاّ أنه بقي ملتفاً بجسمه عليها، وغرقا معاً متشابكين في أعماق الماء. عندئذٍ انتهى أمر كاتلا وكارم. لقد غابا إلى الأبد وكأنهما لم يوجدا أبداً. وما لبث الزبد أن استعاد بياضه، إذ إن مياه الشلالات المتدفقة العارمة شطفت الدماء الوحشية السامّة بعيداً. وعاد كل شيء كما كان من قبل؛ كما كان منذ العصور القديمة الموغلة في القدم.

مكثنا واقِفَيْن هناك على الممر المشرف نلتقط أنفاسنا، على الرغم من انتهاء كل شيء. ومرّ وقت طويل من غير أن نتفوه بكلمة واحدة. وأخيراً قال جوناثان:

«يجب أن نغادر بسرعة! قريباً يحلّ الظلام ولا أريد أن يهبط علينا الليل ونحن ما نزال في كارمانياكا.»

يا-لغريم وفيالار المسكينين. لا أدري كيف استطعنا أن نُنْهضهما من جديد على سيقانهما، أو كيف استطعنا المضيّ بهما. كانا من الإنهاك والتعب بحيث صار من الصعب عليهما نقل سيقانهما.

ولكننا تمكنا من مغادرة كارمانياكا، وقطعنا الجسر لآخر مرة. ثم لم يعد في وسع الجوادين أن يتقدّما خطوة واحدة أخرى. فما ان وصلنا الجانب الآخر من الجسر حتى هبطا إلى الأرض ومكثا كذلك، وكأنهما كانا يقولان: «أما وقد بذلنا من أجلكما كل هذا الجهد، فإن ذلك يكفي.»

قال جوناثان: «سوف نوقد نارنا في مكاننا القديم». وكان يعني بذلك الشق الجبلي الذي كنا فيه أثناء العاصفة حينما رأيت كاتلا لأول مرة. ما زلت حتى الآن أرتجف حين أتذكر ذلك، وكنت أفضل أن ننزل في مكان آخر. ولكن لم يعد في وسعنا الآن أن نمضي إلى أبعد من ذلك الموضع.

كان لابدّ من سَقْي الجوادين أولاً قبل أن نرتاح. قدمنا لهما الماء ولكنهما لم يشربا منه شيئاً. كانا أكثر إرهاقاً من أن يلتفتا لشيء. وشعرت بالقلق تجاهما. وقلت لجوناثان:

«جوناثان! هناك شيء غريب بالنسبة اليهما. هل تعتقد أن حالهما سوف يتحسّن بعد أن يناما؟»

أجاب جوناثان قائلاً: «نعم، كل شيء سيصبح أحسن حالاً بعد أن يأخذا حظاً من النوم.»

مسحت بيدي على فيالار الذي كان منبطحاً مغمض العينين:

«ما أشد ما لقيتَ هذا اليوم يا فيالار المسكين، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام غداً كما يقول جوناثان.»

أشعلنا نارنا في نفس المكان الذي أشعلنا فيه نارنا الأولى. ولا شك أن ذلك المكان كان أفضل موقع يمكن العثور عليه لإشعال نار يقضي المرء ليلة حولها في البريّة. هذا إذا استطاع أن ينسى أن كارمانياكا تقع بالقرب منه. خلفنا كانت توجد جدران جبلية عالية احتفظت بدفئها من أشعة شمس النهار الغارب، وكانت محميّة من جميع الرياح. وأمامنا كان يقع الجرف الصخري الذي كان يشرف مباشرة على شلالات كارما. وكان الجانب الأقرب من الجسر ينحدر أيضاً نازلاً حتى يصل إلى مرج أخضر يبدو مثل نقطة خضراء صغيرة في الغور العميق.

جلسنا إلى جانب النار وشاهدنا الليل يهبط على جبال الجبال القديمة وعلى نهر الأنهار القديمة. كنت مرهقاً، وخيّل إليّ أنني لم أقض في حياتي كلها نهاراً أطول وأصعب من ذلك النهار المنصرم، فمن الفجر إلى المساء، لم يكن غير الدم وخوف الموت. كان جوناثان قد قال يوماً: إن ثمة مغامرات ينبغي ألاّ تحدث، وقد واجهنا من هذا النوع أكثر من حاجتنا في ذلك النهار. نهار المعركة - لقد كان حقاً نهاراً طويلاً قاسياً، ولكنه الآن قد انتهى أخيراً.

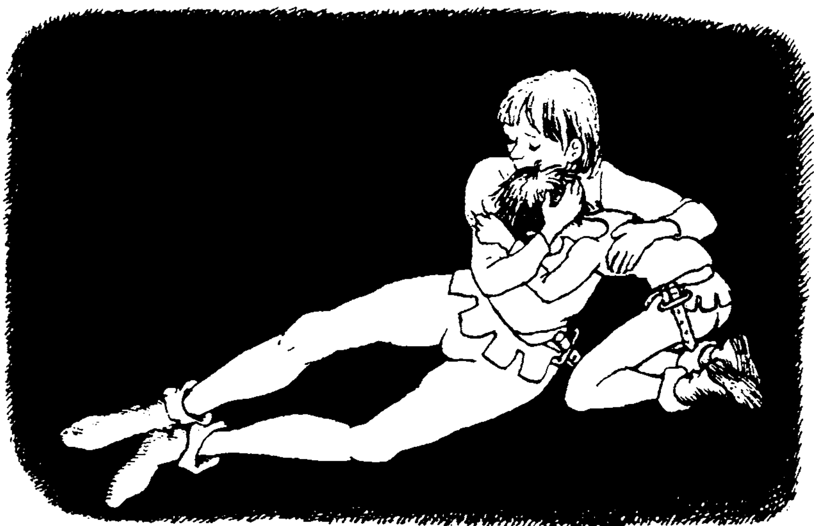
إلاّ أن شعورنا بالحسرة والأسى والحزن لم ينته. فكرت بماثياس. كانت حسرتي بفقدانه عظيمة. وبينما كنا نجلس إلى جانب النار سألت جوناثان:

«أين تعتقد أن ماثياس موجود الآن؟»

أجاب جوناثان: «إنه في نانجيليما.»

قلت: «نانجيليما! لم أسمع بها من قبل.»

قال جوناثان: «بل سمعت بها. هل تذكر ذلك الصباح حين غادرتُ وادي



الكرز وكنتَ أنت شديد الخوف؟ هل تذكر ما قلتُه لك عندئذٍ؟ قلت:«إذا لم أعد فسوف نلتقي في نانجيليما. هناك يوجد ماثياس الآن.»

ثم أخذ يحدثني عن نانجيليما. منذ وقت طويل لم يروِ لي قصصاً لأنه لم يكن لديه الوقت لها. أما الآن فقد بدا لي وهو جالس إلى جانب النار يحدثني عن نانجيليما وكأنه يجلس على حافة الأريكة في منزلنا في العالم الأرضي البعيد.

قال جوناثان بذلك الصوت الذي يستعمله دائماً حين يروي قصصه:

«في نانجيليما... في نانجيليما، ما زال الناس يعيشون في أيام الأساطير ونيران المعسكرات المقامة في البريّة.»

قلت معلقاً: «يا لماثياس المسكين، إذن فإن هناك مغامرات من النوع الذي ينبغي ألاّ يحدث.»

ولكن جوناثان أخبرني أن نانجيليما لا تعيش في أيام الأساطير القاسية المؤلمة، بل في أيامٍ كلها سعادة والعاب ومتعة. فالناس هناك يمارسون اللعب والهوايات الجميلة. وهم يعملون كذلك بالطبع، ويساعد بعضهم بعضاً في كل شيء، إلا أنهم يملكون وقتاً طويلاً للعب والغناء والرقص ورواية القصص والحكايات. في بعض الأحيان يخيفون الأطفال بحكايات أسطورية مرعبة عن وحوش خرافية مثل كارم وكاتلا وعن رجال قساة مثل تنغل. ولكنهم يضحكون بعد ذلك، ويقولون لأطفالهم:

«هل خفتم؟ إنها مجرّد أساطير وحكايات خرافية لم تحدث أبداً. على الأقل لم تحدث هنا في وادينا.»

وأكد جوناثان أن ماثياس سعيد في نانجيليما. فلديه هناك مزرعة قديمة في وادي التفاح. وهي أجمل المزارع في أروع وديان نانجيليما وأكثرها خضرةً.

قال جوناثان: «قريباً يحين الوقت هناك لقطاف التفاح من روضته. عندئذٍ يجب أن نكون عنده لنساعده، فهو أكبر سناً من أن يصعد على السلّم.»

قلت: «أكاد أتمنى أن نذهب إلى هناك». فقد تصورت جمال الحياة في نانجيليما، وكنت شديد الشوق لرؤية ماثياس من جديد.

قال جوناثان: «هل ترى ذلك حقاً؟ حسناً، يمكننا أن نعيش مع ماثياس

في مزرعة ماثياس في وادي التفاح في نانجيليما.»

قلت له: «أخبرني كيف يمكن أن تكون حياتنا هناك؟»

قال: «آه، ستكون رائعة. سنتجول في الغابات على جوادينا ونشعل النيران في البريّة هنا وهناك ونعسكر عندها. ليس في إمكانك أن تتصور مدى جمال الغابات في وديان نانجيليما. وفي قلب الغابات توجد بحيرات صغيرة صافية. يمكننا أن نشعل ناراً ونعسكر في كل مساء عند واحدة جديدة منها. ونستطيع أن نقضي في تلك البقاع أياماً وليالي ثم نعود إلى بيتنا عند ماثياس من جديد.»

قلت: «ونساعده في قطف التفاح. ولكن ذهابنا إلى هناك يعني أنه سيكون على صوفيا وأورفار أن يديرا شؤون وادي الكرز ووادي الوردة البريّة بدونك يا جوناثان.»

قال جوناثان: «ولم لا؟ صوفيا وأورفار لم يعودا في حاجة إليّ. في وسعهما أن يرتبا بنفسيهما أوضاع الواديين.»

ثم غرق في صمت عميق، ولم يعد يقصّ عليّ القصص. كلانا غرق في الصمت، وكنت مرهقاً وغير سعيد إطلاقاً. لم تكن أخبار نانجيليما مصدر راحة لي، فهي بعيدة كلّ البعد عنا.

اشتد الظلام من حولنا، وبدت الجبال أكثر سواداً، وحوّمت فوقنا طيور سوداء وأطلقت صيحات كئيبة بدا معها كل شيء موحشاً ومثيراً للكآبة. كانت شلالات كارما تهدر من بعد، وكنت قد مللت من سماعها. فهي تذكرني بما أريد أن أنساه. بدا كل شيء حزيناً كئيباً، وقدّرت أنني لن أشعر بالسعادة يوماً بعد الآن.

اقتربت من جوناثان، كان يجلس ساكناً مسنداً ظهره على الحائط الجبليّ، وكان وجهه شاحباً. كان في جلسته تلك يشبه أميراً من أمراء الأساطير، ولكنه أمير مرهق شاحب. قلت في نفسي: «أيها المسكين جوناثان، أنت أيضاً تشعر بالتعاسة. ليتني أستطيع أن أخفف عنك ولو قليلاً.»

وبينما كنا نجلس هناك في صمت، تحدّث جوناثان فجأة وقال:

«رسكي! هناك شيء يجب أن أخبرك به.»

شعرت بالخوف فوراً، إذ إنه لا يتحدث بهذا الأسلوب إلاّ حين يكون هناك خبر سيء يريد أن ينقله إليّ.

سألت: «ما الذي تريد أن تخبرني به؟»

ربّت على خدي بأطراف أصابعه، ثم قال:

«لا تخف يا رسكي... ولكن، هل تذكر ما قاله أورفار؟ لمسة واحدة من نار كاتلا تكفي لشلّ إنسان أو قتله - هل تذكر قوله هذا؟»

قلت: «نعم، ولكن لماذا تذكر هذا الآن؟»

قال: «لأنّ.. لأنّ شعلة من نار كاتلا قد لمستني حينما كنا نفرّ من أمامها.»

على الرغم من كل ما لقيته في ذلك النهار من الأسى والحزن، لم أبكِ. أما الآن فقد سالت الدموع من عينيّ وكدت أشهق من الصدمة.

صحت: «هل ستموت ثانيةً يا جوناثان؟»

قال جوناثان: «لا، ولكنَّ هذا ما أتمناه، لأنني لن أتمكن من الحركة ثانيةً.»

شرح لي فظاعة ما تُحْدثه نار كاتلا. فهي إن لم تقتل الإنسان، أحدثت له

شيئاً أكثر فظاعة، إذ أنها تدمر شيئاً ما في داخله يؤدي إلى إصابته بالشلل. ولا يلاحظ الإنسان ذلك أول الأمر، ولكن الدمار يسري في جسده ببطء وعناء.

قال: «لا استطيع الآن أن أحرّك غير ذراعي. وقريباً أفقد القدرة على ذلك أيضاً.»

قلت باكياً: «ولكن، ألا تعتقد أنك ستشفى من ذلك؟»

قال: «لا يا رسكي. لا شفاء منه أبداً، إلاّ أن نصل إلى نانجيليما.»

إلاّ أن يصل إلى نانجيليما! آه، فهمت الآن! إنه يفكر بتركي من جديد. أدرك ذلك! ففي السابق اختفى في نانجيالا بدوني...

صحْت: «لن يحدث هذا مرّة أخرى. لن يكون بدوني! لن تختفي في نانجيليما بدوني!»

سأل قائلاً: «هل تريد أن تصحبني إذن؟»

قلت: «نعم، ماذا تظن؟ ألم أخبرك أنني سأمضي معك إلى حيث تمضي؟»

قال جوناثان: «قد قلتَ ذلك حقاً. وذلك مصدر راحة لي. ولكنه ليس من السهل الوصول إلى هناك.»

صَمَتَ برهةً، ثم قال:

«هل تذكر ذلك الوقت حين قفزنا معاً؟ أعني حين اشْتَعَلَت النار في البيت وقفزنا إلى الساحة؟ ذهبتُ إلى نانجيالا حينئذ، هل تذكر ذلك؟»

قلت وأنا أزداد بكاءً: «بالطبع أذكر. كيف يمكن أن تسأل؟ هل تظن

أنني لم أفكر بذلك في كلّ لحظة منذ ذلك الوقت؟»

قال جوناثان: «نعم، أعرف.» وربّت على خدّي من جديد وقال:

«خطر لي أنه ربّما كان بإمكاننا أن نقفز من جديد عن حافة هذا الجرف الجبلي إلى المرج الأخضر في القاع البعيد.»

قلت: «عندئذٍ سوف نموت، ولكن هل سننتقل إلى نانجيليما بعد ذلك؟»

قال جوناثان: «نعم، بالتأكيد. ففي لحظة هبوطنا سوف نُبْصِر النور من نانجيليما. سوف نبصر نور الصباح الذي يغمر وديان نانجيليما، لأنها الآن في وقت الصباح.»

قلت: «ها، ها، نستطيع القفز مباشرة إلى نانجيليما.» وضحكت لأول مرة منذ وقت طويل.

قال جوناثان: «نعم، نستطيع، وفور هبوطنا سنرى الطريق إلى وادي التفاح أيضاً أمامنا. وإن غريم وفيالار قد صارا في انتظارنا هناك الآن. كل ما سيكون علينا أن نفعله هو أن نمتطيهما ونمضي بهما قدماً.»

قلت: «وعندئذٍ لن تكون مشلولاً!»

قال: «لا، لن أكون مشلولاً. بل سأتحرر من كل سوء، وسأكون سعيداً أيّما سعادة. وأنت أيضاً يا رسكي، ستكون سعيداً. إن طريق وادي التفاح يمرّ عبر الغابة. هل تتصوّر روعة شعورنا حين نعبر من هناك في ضوء الشمس، أنت وأنا؟»

قلت: «جميل.» وضحكت من جديد.

قال جوناثان: «ولن نكون على عجلة من أمرنا. نستطيع أن نستحمّ في

إحدى البحيرات الصغيرة إذا شئنا. ثم سيكون في وسعنا أن نصل إلى منزله قبل أن يفرغ من تحضير العشاء.»

قلت:«كم سيكون سعيداً حين يرانا عنده.»

ثم شعرت كأنني أتلقى ضربة من هراوة. غريم وفيالار - كيف قدّر جوناثان أننا نستطيع أخذهما معنا إلى نانجيليما؟

سألت:«كيف تقول إنهما قد صارا في انتظارنا هناك؟ إنهما يستلقيان نائمَيْن هنا.»

أجاب جوناثان:«ليسا نائمَيْن يا رسكي. إنهما ميتان. لقد ماتا من تأثير نار كاتلا. وما تراه هناك هو قشرة الجسد الخارجية، ليس إلاّ. صدقني، لقد سَبَقَنا غريم وفيالار وهما الآن في انتظارنا على الطريق المؤدي إلى نانجيليما.»

قلت:«دعنا نسرع إذن، حتى لا يُضطَرا إلى انتظارنا وقتا طويلاً.»

عندئذٍ نظر جوناثان إليّ وابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

«لا أستطيع الاستعجال. لا أستطيع التحرّك وحدي من هذا الموضع. لا تنسَ هذا.»

عندئذٍ أدركت ما يجب عليَّ عمله.

قلت:«جوناثان! سأحملك على ظهري. لقد فعلتَ هذا يوماً من أجلي. والآن سأفعل الشيء نفسه من أجلك. هذا هو العدل.»

قال:«نعم، هذا هو العدل. ولكن هل تملك الجرأة الكافية لفعل هذا يا رسكي ليونهارت؟»

قمت ومشيت إلى حافة الجرف الجبلي الشاهق ونظرت إلى القاع

السحيق. كان الظلام شديداً حتى صار من الصعب عليَّ أن أبصر المرج الأخضر هناك في الأسفل البعيد. كان القاع بعيداً جداً مما جعلني أُطلق نَفَساً عميقاً. ولكن، إذا قفزنا إلى هناك، فمن المؤكد أننا سنصل إلى نانجيليما، كلانا. لن يكون على أحدنا أن يتخلّف عن الآخر ويبقى وحيداً يتحسر ويبكي ويشعر بالخوف.

ولكنَّ الحقيقة أنه لن يقفز كل منا بنفسه، إذ عليَّ أنا أن أقوم بالقفز حاملاً جوناثان على ظهري. إن الوصول إلى نانجيليما ليس بالأمر الهيّن كما قال جوناثان. والآن أدركت السبب. كيف يمكن أن أجرؤ؟ كيف يمكن أن أجرؤ في أي وقت على فعل ذلك؟

خاطبت نفسي قائلاً: «إن لم أجرؤ الآن، فلن أكون إلاّ شيئاً تافهاً لا قيمة له، وسأبقى كذلك إلى الأبد.»

عدت إلى جوناثان، وقلت:

«نعم، إنني أملك الجرأة.»

قال جوناثان: «أيها الفتى الشجاع رسكي، إذن، دعنا نفعل ذلك.»

قلت: «أريد أولاً أن أجلس هنا معك لبرهة من الوقت.»

قال جوناثان: «ولكن، يجب ألاّ يطول الوقت.»

قلت: «لا، سأنتظر فقط حتى يشتد الظلام، حتى لا أرى شيئاً إطلاقاً.»

جلست إلى جانبه، وأمسكت بيده، وشعرت أنه ما زال قويّ النفس كما كان دائماً، وأنه لن يصيبنا سوء طالما كان موجوداً.

ثم صار الظلام دامساً ولفّ نانجيالا والجبال والوديان والأرض. ووقفت

هناك على حافة الجرف الجبلي حاملاً جوناثان على ظهري بينما كان يُطوّق عنقي بذراعيه، وشعرت بأنفاسه على أذني من الخلف. كان يتنفس بهدوء تام، على عكسي أنا - جوناثان! يا أخي الحبيب! لماذا أنا لست في مثل شجاعتك؟

لم يكن في استطاعتي أن أرى القاع البعيد في الأسفل، ولكني كنت أدرك أنه هناك، وأن كل ما أحتاج اليه هو أن أخطو خطوة واحدة في الظلمة، وعندها ينتهي كلّ شيء. سيحدث ذلك بسرعة خاطفة.

قال جوناثان: «رسكي ليونهارت! هل أنت خائف؟»

قلت: «لا... نعم، أنا خائف. ولكني سأقوم بالعمل على كل حال يا جوناثان. إنني أفعل ذلك الآن... الآن... ولن أخاف أبداً بعد الآن... أبداً لن أخا...»

«آه، نانجيليما! نعم يا جوناثان!
نعم، إنني أبصر النور! *إنني أبصر النور!*»





دار المنى